ملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام

للعلامة دوزي ترجمة بقلم

كامل كيلاني

«وأشترط على نفسي ألا أعرض لذكر ما أعتمده، فما أجده محاسنا أثبته، وفي
التحرير عنه أرده، وتعصبي [illegible]
[illegible]»

الطبعة الأولى — ١٩٣٣ م - ١٣٥١ هـ

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر
صندوق بريد الغورية نمرة ٢٦ بالقاهرة

تصدير

هذه فصول مترجمة من كتاب العلامة المستشرق «دوزى» وقدآثرنا نقلها الى العربيـة لتبيان وجهة تفكير عالم أوروبى كبير ، وهى ـ وإن خالفت آراءنا أحياناً فى بعض مناحيها ـ جديرة أن تقرأ بعناية فائقة ؛ فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال .

وإذا كان العـلامة « فخر الدين الرازى » يقول فى مقدمته لشرح « الإشارات » لابن سينا :

« إن التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد »

فما أجدرنا أن نقول بدورنا : « والترجمة أيضاً غير النقد »

لهذا اقتصرت على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق إلا ما يقتضـيه المقام من توضيح لمـا أعتقد أن أكثر القراء في حاجة إليه .

٦

***

على أننى لم أكد أنشر الفصـل الأول من هـذا الـكتاب في « ديوان ابن زيدون » حتى نال من استحسان القراء أكثر مما كنت أقدره له .

وقد وعدت بإظهار هذا القسم كاملا بعد أن أُنْجِزَ شرح « ديوان ابن زيدون » ثمَّ منعتني عَوادي الزمن ومشاغلُه عن إنجاز هذا الوعد، ثمَّ تَغَلَّبَت العزيمة على التردُّدِ والتَسْوِيف. ورأيتُ أن أَفِيَ ببعض ماوعدتُ به القُرَّاء، فأنجزتُ ترجمة هذا الكتاب وكُلِّي أَملٌ في أن أُلْحِقَه بالكتاب الثاني الذي وَعَدْتُ به القُرَّاء وهو :

« ابنُ زيدون — أدبه وعصره » . فإذا انتهيتُ منه شرعتُ في إظهار « ديون ابن حمديس » . وأنا أستمد من الله العَوْنَ على إنْجَازِ هذا الوَعْدِ، وأَسْتَلْهِمُهُ الرُّشْدَ والسَّدَاد .

١

ملوك الطوائف

الفصل الاول

١ — بعد إلغاء الخلافة

منذ سنين عدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الإسلامية في بلاد الأندلس وأصبح أمر كل منها بيدها ، ولم يكن تفكك السلطة مما يرغب فيه أهل تلك الولايات عامة أو يتفق ومصالحهم وآمالهم .

وقد جزعوا لهذا التفكك وذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه أسفاً على الماضي وجزعاً من المستقبل(١) .

---

(١) نشأت ملوك الطوائف بعد أن اضمحل أمر الخلافة الأموية بالأندلس ، فقد استبد بالأمر «المنصور بن أبي عامر» وأعقابه ، وأسسوا الدولة العامرية ، وحالفوا بربر «صنهاجة» واستعانوا بهم في مواقفهم من دون العرب ، ثم ثارت الفتنة بعد ذلك فتقوضت دولة العامريين وانتهب الثائرون دورهم وأديل لبني أمية ثانية ، ثم ظهر بنو حمود وثب الأمراء والموالي والوزراء وكبار العرب وأعيان البربر وقام كل واحد منهم بأمر في ناحية . وما زال حبل الأمن في اضطراب حتى ولي الأمر «أبو محمد جهور بن محمد بن جهور» في قرطبة، وانطوى بساط الدولة الأموية وصار الأمر إلى رؤساء البلاد . وولي بنو عباد «أشبيلية» وغرب الأندلس .

وقد شغل ملوك الطوائف بتغلب بعضهم على بعض والتجئوا إلى ملوك الفرنجة مستنصرين بهم حتى جاءهم «يوسف بن تاشفين» وأقام في بلاد الأندلس دولة المرابطين .

ولم يكن ليستفيد من هذا الانحلال والتفكك في تلك البلاد إلا ملوك الإفرنج وحدهم ، وقد كان من نتائجه أن اقتسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وأصبح ما بقي بعد ذلك من بلاد الأندلس نهبا مقسما بين ذوى المطامع من المغيرين المتوثبين على تلك البلاد،وبين آخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث [1] » و « المنصور »التي كانت مصوبة الى الارستقراطية .

---

(١) تفرقت إمبراطورية « عبد الرحمن الثالث » العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف والمصادفات ــ كما يقول الاستاذ « نيكلسون » ــ وكانت يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أصاب « نيكلسون » في تشبيه« أسبانيا » في القرن الحادى عشر الميلادى بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه ــ كما يقول ــ كبيراً جداً بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم « Condottieri » وكان من بينهم ملوك بني عباد الذين وطنوا أشبيلية . وهم أقوى الملوك الذين أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف » .

وعلى أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسى ، وعلى أن اسبانيا كانت تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى لم يصل إلى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف حظة عند نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الحضارة الإسلامية في أوروبا .

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين «قرطبة» و«أشبيلية» حكومتان شوريتان .

فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لانهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم ، إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق — في الغرب — حتى انعكست الآية تماماً .

ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف من المسيحيين من كل جهة فتحوها . وقد عاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين . وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية ، وكثيراً ما رفعتهم الى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتاناً .

حتى رأينا «ألفارو» — كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد — يؤنب في أوائل ذلك العصر كثيراً من أبناء دينه لانصرافهم الى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وعكوفهم على دراسة كتابات اللاهوتيين المسلمين وفلاسفتهم ، وهم لا يقصدون بذلك الى تفنيدها بل يقصدون الى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رائع صحيح .
وكان «ألفارو» يتساءل قائلاً :

«أليس من المحزن ألا يوجد بين أبناء جنسنا من يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟

واحسرتاه ! إن كل الشبان المسيحيين الموهوبين لا يعرفون إلا العربية ولا الكتاب العربي ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منقطعة ، كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكاتبهم ، وإنك تراهم حيثما وجدوا — يذيعون أن هذا الأدب جدير بالاعجاب .
فإذا تحدثت اليهم عن الكتب المسيحية ازوروا جانبهم وأجابوك بازدراء : إنها أسفار تافهة لا خطر لها ولا قيمة» .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم حتى لتندر العثور بين الآلاف منهم على فرد واحد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب مقبول ، على حين ترى جمهرتهم قادرة على الإبانة عما في نفوسهم بأسلوب عربي رائع ، وعلى

٢ — قرطبة

أما « قرطبة » فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعمدوا

حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حد فاقوا معه العرب أنفسهم » .

ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من إغراق ، فما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب المسيحين الأسبان ، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى أنشئوها بلغتهم وبلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الأسبانيين الذين دانوا بالاسلام فقد استعربوا تماماً — بعد أجيال قليلة — ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربى .

* * *

وقد كان للشعر العربى — فى أوروبا — على الاجمال نفس الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق .

فإن الأوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين « بغداد » أن يحرروا أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هى — فى قرطبة وأشبيلية .

وكما تأثر الشعر العربى فى الشرق بالآداب الفارسية ، فقد تأثر فى أسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئاً فشيئاً .

فكان ذلك سبباً فى إدخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابهم بعد ، ولعل أمتع مميزات الشعر الأندلسى هي ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثاله فى الذهب ، والذى ظهر كثيراً فى أغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساساً جديداً بمحاسن الطبيعة التى جملته .

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين من لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبى » . انظر كتاب « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » للمترجم .

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين «قرطبة» و« أشبيلية » حكومتان شوريتان .

فبينما ترى العرب الفاتحين فى آسيا قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لانهاية له فأذعنوا لهـا وظهر أثرها فيهم ، إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق — فى الغرب — حتى انعكست الآية تماماً .

ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع فى أيديهم آلاف من المسيحيين من كل جهة فتحوها ، وقد عاش أولئك المسيحيون فى كنف المسلمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية ، وكثيراً مارفعتهم الى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك ، فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتاناً .

حتى رأينا «الفارو» — كاهن قرطبة فى أواسط القرن التاسع للميلاد — يولول فى أوائل ذلك العصر ، شاكياً من أبنـاء دينه انصرافهم الى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات اللاهوتى المسلمين وفلاسفتهم ، وهم لايقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربى رائع صحيح . وكان « الفارو » يتساءل قائلا :

«أنى يتاح لانسان فى هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟

واحسرتاه : إن كل الشبان ذوى المواهب لايعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منتهاها ، كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها فى مكاتبهم ، وإنك لتراهم — حيثما وجدوا — يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب . فاذا تجاوزت عن ذلك وأخـذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور عنهم وأجابوك بازدراء : « إنها أسفار تافهة لاخطر لها ولا قيمة » .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسى المسيحيون أنفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منهم على فرد واحد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب مقبول ، على حين ترى جمهرتهم قادرة على الإبانة عما فى نفوسهم بأسلوب عربى رائع . وعلى

٢ — قرطبة

أما « قرطبة » فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعمدوا

حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حد فاقوا معه العرب أنفسهم » .
ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من إغراق ، فما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الأسبان ، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى أنشئوها بلغتهم وبلغة أبناء عمهم العرب .
أما المولدون والصابئون من الأسبانيين الذين دانوا بالاسلام فقد استعربوا تماماً — بعد أجيال قليلة — ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربى.

***

وقد كان للشعر العربى — فى أوروبا — على الاجمال نفس الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق .
فإن الأوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين « بغداد » أن يحرروا أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هى — في قرطبة وأشبيلية .
وكما تأثر الشعر العربى فى الشرق بالآداب الفارسية ، فقد تأثر فى أسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئاً فشيئاً .
فكان ذلك سبباً فى إدخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابهم بعد ، ولعل أمتع ميزات الشعر الأندلسى هي ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله في النسيب، والذى ظهر كثيراً فى أغانيهم عن الحب، وهو وجدان لايقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساساً جديداً بمحاسن الطبيعة التى جملته .
ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي » . انظر كتاب « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » للمترجم .

إلى « ابن جهور[١] » فأسندوا اليه السلطة التنفيذية ، وقد كان مشهوراً عندهم جميعاً بجدارته وكفايته لتقلد هـذا المنصب والاضطلاع بالحكم ، ولكنهم لم يكادوا يعرضون عليه قرارهم حتى رفض ـ بادئ ذي بدء ـ ذلك المركز السامي ، ثم قبله بعد أن ألح عليه في ذلك جمهرة منتخبيه ، ولكنه اشترط عليهم أن يكون إلى جانبه في الحكم زميلان له في مجلس الشورى ، هما « محمود بن عباس » و « عبد العزيز بن حسن » وكانا من أعضاء أسرته .

فأجابه أصحابه إلى ما طلب ، ولكن على شرط ألا يكون لهذين الزميلين إلا صوت استشاري فقط .

وقد حكم السفير الأول « ابن جهور » تلك الحكومة الشورية الجديدة متوخياً فى أحكامه العدل والسداد ، وكان مخلصاً رشيداً ، وإليه

---

(١) استولى « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور » على مقاليد الحكم ، وكان رئيس الجماعة بها أيام فتنة بنى أمية .

قالوا : ولما خلع الجند آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس استبد جهور بالأمر واستولى على المملكة بقرطبة سنة ٤٢٢ هـ . وكان على سنن أهل الفضل ، فأسندوا اليه أمرهم إلى أن يوجد خليفة ، ثم اقتصروا عليه ، فدبر أمرهم إلى أن هلك سنة ٤٣٥ هـ .

وخلفه ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور » وما زال على قرطبة ، حتى خلعه أهلها سنة ٤٦١ هـ . فأعقبه ابنه « عبد الملك ابن الوليد » فأساء السيرة ، فأخرجوه عنها ، وزحف « المعتمد بن عباد » على قرطبة فملكها سنة ٤٨٤ هـ . »

يرجع الفضل في استتباب الأمن ورفع المظالم ، فلم يكد يتولى الحكم حتي أمن أهل « قرطبة » وأصبحوا لا يشكون شيئاً من الإعنات والمظالم التى كانت تترى عليهم من قساة البربر الجائرين .

وكان أول ماعني به أن صرفهم عن الخدمة واحتفظ ببني « يفْرن » وحدهم لأنه رأى أن من المستحيل عليه أن يعتمد على سواهم لما عرفه من ولائهم وطاعتهم له .

وقد استبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرساً وطنياً ، وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فإذا طلب إليه تنفيذ أمر بعينه قال لهم :

« ليس من شأنى أن أقرر أمراً هو من اختصاص مجالس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأمره وقراراته . »

وكان كلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمىّ موجه إلى شخصه أبى أن يتسلمه ، وأمر بتوجيهه إلى مستشاريه .

ولم يكن ليصدر قراراً قبل عرضه على مجلس الشورى . أضف الى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فظل باقياً فى مسكنه المتواضع الذى اعتاد سكناه دائماً ، وآثر الإقامة فيه على أن ينتقل إلى

قصر الخلافة (١).

---

(١) قال صاحب كتاب المعجب :

« ولما انقطعت دعوة بني أمية بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة . ولا من تليق به الرياسة،استولى على تدبير ملك «قرطبة» جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى : أبا الحزم ، وهو قديم الرياسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ، وحسن التدبير ، ولم يدخل — من دهائه — في الفتن الكائنة قبل ذلك ، وكان يتصاون عنها ، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف . فلما خلا له الجو وصفر الفناء ، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ، واضطلع بحمايتها . ولم ينتقل إلى رتبة الامارة ظاهراً جريا على ماقدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق اليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها ، وجعل مايرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم . وصير أهل الأسواق جندا له، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم ، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه . وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ، ويعود المرضى جريا على طريقة الصالحين . وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف ، واستمر أمره على ذلك الى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره — منذ استولى إلى أن مات — أربع عشرة سنة وأشهرا ، ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور » ، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى أن مات « أبو الوليد » المذكور في سابع شوال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها — بعد

وكانت العقيدة فى نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب وقد رفض ـ مع هذا ـ أن يكون بيت المال فى داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقاماً وأكثرهم احتراماً فى المدينة .

أمور جرت — الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طايطلة فدبرها مدة يسيرة الى أن مات ، وخالف فيها بعده من البربر رجلا يعرف بابن عكاشه أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه ان شاء الله تعالى . فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لأشبيلية .

وجاء فى كتاب الصلة لابن بشكوال ما يأتى :

« جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى عبيدة رئيس قرطبة ، يكنى : أبا الحزم .

روى عن أبى بكر عباس بن الهمذانى ، وأبى محمد الأصيلى ، والقاضى أبى عبدالله ابن مفرج ، وأبى القاسم خلف بن القاسم ، وأبى يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم ، وسمع منهم وأخذ العلم عنهم . وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال: حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ـ وهو يعنى أبا الحزم هذا ـ ثم صار تدبير أهل قرطبة إلى أبى الحزم هذا فألفها بالرياسة فيها ، إلى أن توفى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من سنة ٤٣٥ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من بعده . وكانت سنه يوم وفاته إحدى وسبعين سنة . وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤ .

قالوا :

« أما قرطبة فاستولى عليها « أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور » وكان من وزراء الدولة العامرية ، موصوفا بالدهاء والعقل ، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها ، فلما خلا الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينتقل الى رتبه الامارة ظاهراً بل رتبها ودبرها تدبيراً لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه ورتب البوابين والحشم على أبواب

وكان — على حبه المال — يؤثر المصلحة العامة التى قضت عليه ألّا يرتكب عملا غير شريف . والحق أن « ابن جهور » كان مقتصداً بل حريصاً حرصاً يكاد يصل به إلى درجة البخل ، فقد أثرى حتى

قصور الامارة ولم يتحول عن داره اليها ، ودعا مايتحصل من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم له .

وكان « جهور » يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك وكان مأمون الجانب . فأمن الناس فى أيامه ،وبقى كذلك إلى أن مات سـنة خمس وثلاثين وأربعمائة . وقام بالأمر بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات» .

وجاء فى المطمح :

الوزير الأجل « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور » وبنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار « ابن هبيرة » فى « فزاره » وأبو الحزم هذا أمجدهم فى المكرمات ، وأنجدهم فى الملمات — ركب متون الفنون فراضها ، ووقع فى بحور المحن وهوفخاضها،منبسط غير متكمش،لاطائش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزر فى الدولة العامرية فشرفت بجـلاله ، واعترفت باستقلاله . فلما انقرضت وعاقت الفتن واعترضت ، تحيز من التدبير مدتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة وشدتها . وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر ، غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف فى ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوغت ماشاءت رداها ، وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب ويسعى فى الفتنة ،. ولـما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال راسل مستمداً بهم ومعتمداً على بعضهم تخييلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها ، وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام ، وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام، ثقة بسرعة التياثها ، وتعجيل انتكاثها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه . وتوجهوا مع ذلك الإمام،وألموا بقرطبة أحسن إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة ، والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير .

أصبح أغنى رجل فى « قرطبة » ولكنه مع ذلك لم يألُ جهداً جهوده المحمودة في توفير اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل كل ما في وسعه في تحسين العلاقات الودية وتوثيقها بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك وحالفه التوفيق فلم يمض وقت طويل حتي استتبّ الأمن وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية ، وأمنت السبل ، فأم « قرطبة » طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التى دمر البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة .

حتى نبذ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطاً آمن خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلاله الجو فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له « قرطبة » على أكمل حالتها ، وانجلى به نور جلالتها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة ، إلى أن توفى سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر إلى ابنه أبى الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبى الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم نادرالمنال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وذلك قوله فى تفضيل الورد :

« الورد أحسن مارأت عينى ، وأذ كي ماسقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه فتذللت تنقاد وهى شواهد
وإذا تبدى الورد فى أغصانه يزهو ، فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً لطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد . »

٣ ــ اشبيلية

على أنه مع تلك الأعمال التى قام بها ، فإن « قرطبة » عاصمة الخلافة القديمة لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين أخذت « أشبيلية » ــ التى سنعنى بتاريخها عناية خاصة ــ تحرز الشأن الأول في المركز السياسي .

كانت «أشبيلية» ــ منذ أمد بعيد لاتزال ــ مرتبطة الحظ بقرطبة، متأثرة بما يجرى من الحوادث فيها ، متأسّية بالعاصمة، خاضعة لملوك الدولة الأموية ــ على التعاقب ــ ثم لدولة « بني حمود » ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في « قرطبة » أثرها السيء فى « أشبيلية » فقد ثار القرطبيون على « قاسم بن حمود » وطردوه ، فعول هذا الأمير على الالتجاء الى « أشبيلية » حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة « محمد بن زيرى » من قبيلة « بنى إيفورين » .

وأرسل إلى الأشبيليين يأمرهم بإخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه وقد ترك هذا الأمر أثراً سيئاً فى نفوس أهل «أشبيلية». هذا الى ما عرف عن جنود « قاسم » الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من شرار اللصوص .

وقد أظهرت « قرطبة » للأشبيليين أنه من الممكن أن يتحرروا من

هـذا النير الذى يضجون بالشكوي منـه . فعولوا على أن يحذوا حذو « قرطبة » ، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانيهم . وبعد جهد نجح قاضى المدينة « أبو القاسم ابن عباد[1] » فى استمالة قائدالحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملـكا على «أشبيلية» ، فأعلن حينئذ « مناد ابن زيرى » استعداده لمساعدته ، وسارع القاضى فعقد بينه وبين قائد بربر « قرمونة » محالفة تقلدوا السلاح ــ على أثرها ــ ضد ولدي « قاسم » وحاصروا قصره .

ووصل «قاسم[2]» إلى « أشبيلية » التى كانت مغلقة ، وحاول أن

---

(١) استبد « القاضى أبو القاسم اسماعيل » بإشبيلية بعـد فرار « القاسم ابن حمود » عن قرطبة وقد استطاع القاضى أن ينتزع قرطبة من « ابن زيرى » الذى ولاه عليها « القاسم بن حمود » ومازال يعظم شأن القاضى حتى مات سنة ٤٣٣ هـ فخلفه عليها ابنه « عباد » ولقب نفسه « بالمعتضد » وطالت أيامه وعظم شأنه حتى تغلب على أكثر الممالك بغرب الأندلس ، ومات سنة ٤٦١ هـ .

فخلفه ابنه المعتمد ، وما زال يعظم شأنه حتى استولى على دار الخلافة بقرطبة من يد « ابن جهور » وعظم أمر المعتمدين ملوك الطوائف حتى غلبه « يوسف بن تاشفين » على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ .

(٢) القاسم بن حمود وعلي بن حمود كانا فى جملة جماعة المستعين الأموى المسمى سليمان بن الحـكم ، وبعـد أن انقرضت دولة بنى حمود من « فس » عقد المستعين للقاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء من الأندلس وعقـد لعلى ابن حمود عـلى

يجتذب سكان المدينة إليه بلوعود الخلابة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة، ولما أوجس في نفسه خيفة على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهداً أن يجلي — هو ومن معه من الجند — عن أراضي « أشبيلية » اذا ما أسلموا إليــه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما ، فضمن له الأشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب« قاسم» وعاد أدراجه ، وثم سنحت للقاضي أول فرصة ليرضى حامية البربر .

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر حينئذ لم تكن هادئة ، والنفوس لم تكن مطمئنة ، خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد « بنو حمود » الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة في معاقبة المجرمين الثائرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة في أن يأخذ على عاتقه عبء المسئولية عما وقع .

« طنجة » . وبعد قليل سمت نفس « علي » هــذا إلى الخلافة وزعم أن هشاما الأموى قد كتب له بعهد ، فبايعه ناس. وأجاز إلى « مالقة » فملكها ، ثم دخل « قرطبة » ، سنة ٤٠٧ ونعت نفسه « بالناصر لدين الله » وبقي كذلك حتى قتله صقالبته سنة ٤٠٨ في حمام .

فولي مكانه أخوه "قاسم بن حمود — وكان حينئذ في « طنجة » — ولقب نفسه بالمأمون، ثم غلبه يحيي — ابن أخيه علي — وزحف إلى قرطبة فملكها سنة ٤١٢ ولقب نفسه بالمعتلي ، وما زال يعظم شأنه حتى حصر « ابن عباد » بأشبيلية وكبا به فرسه فقتل . وانتهت بقتله دولة بني حمود بقرطبة .

٤ — بنو عباد

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسئولية على عاتق القاضى وحده الذى حسدوا ثروته واستشعروا سروراً خفيا فى أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضى أن يتولى حكم المملكة ، وكان — مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال — حكيما حازماً ، فرفض فى إباء أن يتولى الحكم فى وقت غير مناسب . ولم يكن القاضى متصل النسب بالسلالات العريقة ، إلا أنه امتاز بحيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض « أشبيلية » وكانت له فوق ذلك منزلة سامية من الاعتبار نظراً لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضمن إلى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة .

وقد تم له ذلك — فيما بعد — تدريجيا ، وكان يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود ، ولم يشك فى أن الأرستقراطية العظيمة المجيدة في « أشبيلية » لابد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا فى الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك « لخم » الذين كانوا يحكمون الحيرة قديماً قبل ظهور محمد (ص) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للإشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد مايبرر هـذا الزعم ، لأن بنى عباد والمتزلفين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك ، وكل مايربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب إلى قبيلة « لخم » اليمنية التى ينتسب إليها ملوك الحيرة . ولـكن فرع أسرة آل عباد الذى تسلسل منه آباؤهم لم يقطـن — على مايظهر — الحـيرة بتاتاً ، بل كانوا يقيمون أخـيرا قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في ناحية حمص .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا مافى استطاعتهم كى يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فإنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود حمص ، وقد رحل إلى أسبانيا مع « بلج » حيث أعطيت لجنود حمص أراض على مقربة من أشبيلية ، وأقام على ضفاف الوادى الـكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت ببطء من ظلمة الماضى أناساً صالحين عاملين مقتصدين ، وإسماعيل والد القاضى هو عنوان

مجدها، وهو الذى خط بيمينه ـ في الصحيفة الذهبية لنبلاء أشبيلية ـ اسم عباد [١] .

ولا غرو فقد كان «إسماعيل» من حملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة في حرس « هشام الثانى » ثم صار ـ فيما بعد ـ إماماً لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضياً لأشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة ، وإسداء النصح للكافة، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو ـ على الرغم من انتشار الفساد والرشوة ـ كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريماً الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقى القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات جديرا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد فى الغرب .

وقبيل العهد الذي نحن بصدده توفى إلى رحمة الله في غضون سنة ١٠١٩ م .

وربما كان ابنه « أبو القاسم محمد » يماثله علماً وأدباً ، و إن كان لا يدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانياً ذا أثرة وطمع وصلف وتكبر و إنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى

---

(١) وكان عباد لجد ثالث لاسماعيل .

منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء إلى « قاسم بن حمود » فنال ـ بفضل قاسم ـ منصب القضاء الذى كان يؤمله .

وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل.

٥ — قاضى أشبيلية

وفى مفتتح هذا العهد ـ الذي نحن بصدده ـ أشار نبلاء « أشبيلية » وأصحاب الرأى فيها على أبى القاسم قاضى «أشبيلية» أن يتبوأ عرش المملكة[١] ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن

---

(١) جاء فى كتاب المعجب ما يلى :

أما أحوال أشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين أعنى « على بن حمود » والقاسم بن حمود ، ويحي بن على بن حمود ، أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدم ذكره .

فلما زحف يحي بن على بالبربر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها ، وقصد أشبيلية ، وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل اشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم فتوارد اختيارهم بعد محض الرأى وتنقيح التدبير على القاضى أبى القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلو همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا ، وأبي ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء وشركاء

يقبل هذا الشرف الذي يولونه اياه إلا بشرط أن يشرك معه في الحكم لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الالهانى ، وأبو الأصبع عيسى الهوزنى ، ورجال آخرون ذهبت عنى أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك وأجابوه الى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر أشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ، وكان له من الولد اسماعيل وهو الأكبر يكى أبا الوليد، وعباد يكنى أبا عمرو ، فأما اسماعيل فخرج إلى لقاء البربر ، بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ماكان البربر يملكونه من الحصون القريبة من أشبيلية بعسكر من جند أشبيلية ، فالتقى هو وصاحب « صنهاجة » فأسلمت اسماعيل عساكره ، وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى ادريس ابن على الفاطمى كما تقدم ، وبقي الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان مصلحا صالحا إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

وفى كتاب عقد الجمان للعينى (القسم الرابع) ما يأتى :

وأما « أشبيلية » فاستولى عليها قاضيها « محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى » ، وهو من ولد « النعمان بن المنذر » ، وفي هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقة ثم سار منها إلى « المرية » ، فخافه صاحبها « زهير العامرى » وأخرجه منها ، وقصد قلعة رياح فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها اسماعيل بن ذى النون ، فحاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد إليـه باشبيلية ، وأذاع أمره وقام بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس، فأجب أكثرهم وخطبوا له ، وجرت بيعته فى المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عبادا سير جيشاً إلى زهير العامرى بأن يخطب للمؤيد ، فستنجد زهير حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير بيأسه ، وجاء حبوس إلى مالقة فمات ، وولى بعده ابنه « باديس » ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحبوس ، فلم تستقر بينهما

أفراداً يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه في الاضطلاع بأعباء الحكم، بحجة أن هؤلاء الأشخاص الذين يشركهم معه في الرأي

قاعدة ، واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد وابنه اسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر ادريس الفلوى صاحب «سبتة» بطنجة واقتتلوا قتالا شديداً ، فقتل سماعيل ، ثم مات بعــده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتضد بالله ، فضبط ماولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتغل بأمر « أشبيلية » وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه « أبو القاسم محمد » ولقب بالمعتمد على الله ، فاتسع فى ملكه ، وتمكن سلطانه ، وملك كثيراً من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الظافر بالله ، فبلغ خبر ملكه لهــا إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة فأقام يسعى فى ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديد ورعد وبرق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معــه من عبيد وحرس ، وكان صغير السن ، فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم عثر فى بعض كرته فسقط ، فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا وانقضى ما هنالك ولاحق بجرير أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فمر عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحالة ، فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه   سوى أنه قد سل عن ماجد محض »

ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها ، فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

وأخــذت أشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى مسجونا فى أغمات إلى أن مات بها وكان هذا وأولادهم جميعهم ــ « الرشيد » ، و « المأمون » ، و « الراضى » ، والمعتمد ، . وأبوه وجده علماء شعراء

ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الأشبيليون ما اشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى ، فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا اليه إنفاذ ما اعتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل « ابن حجاج » وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ، وأطلعهم كواكب فى سماء المصر ، كأبى بكر الزبيدي العالم النحوى الشهير مؤدب هشام الثانى ، و بعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه إلى تكوين جيش للمملكة ، ورفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عدداً كبيراً من المماليك ودربهم على القتال ، وجرد منهم حملة على الشمال ، وهى فى الكثير الغالب كانت موجهة إلى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين فى شمال « فيزى » أنشئا متقابلين على صخور يفصلهما سور ، وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسمهما العربى وهو اسم « الأخوين » وقد حرفه القوم فهو يقولون « الأقوين » وكان يقطنهما أسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع « موسى بن نصير » ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي نتحدث عنه في حيازة ملك

« ليون » ولا فى حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضى عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما — وهم زهاء ثلاثمائة فارس — على الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند مايكفي للإغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية ضد «أشبيلية» .

وهذا ماوقع له سنة ١٠٢٧ ، ففى هذه السنة جاء الخليفة الحمودى « يحي بن علي » وأمير بربر قرمونة « محمد بن عبد الله » وحاصرا أشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لايستطيع المقاومة طويلا أخذ الأشبيليون يفاوضون « يحي » واعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم ، على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم ، فقبل « يحي » هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضمانا لوفائهم وإخلاصهم — أن برسل بعض أعيان ونبلاء «أشبيلية» أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الأشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضى وحده هو الذى لم يتردد فى إجابة الطلب إذ أرسل إلى يحي بنجله عباد . وكان الخليفة يعلم ماللقاضى من الجاه والنفوذ فاكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الإخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضى عندالأشبيليين

عامة، وأصبح ـ منذ ذلك الحين ـ لا يخشى شيئاً لا من جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذى اعترف بسيادته شكلا، وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل « ابن حجاج » وغيره ، ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهما عن خدمته ونفى « زبيدى » وعين رجلا من خواص « أشبيلية » اسمه « حبيب » رئيساً للوزارة ، ولم يكن « حبيب » هذا من رجال المبادئ إلا أنه كان مع هذا ذكياً مخلصاً بكل معانى كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفا إلى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضى أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على « باجة » ، وقد حلت أخيراً بهذه المدينة المصائب فى غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التى نشبت بين العرب والخائنين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ما صادفوه في طريقهم ، وكان فى نية القاضى أن يعيد تشييد ما خرب منها، ولكن لما اتصل بعبدالله بن الأفطس أمير « بطليوس » عزم القاضي ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتم استيلاء هذه الجيوش على « باجة » في الوقت الذي جاء فيه « اسماعيل ابن القاضى » بجيش أشبيلية ، وجيش حليف أبيه أمير قرمونة ، فبدأ

حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب فى القرى الواقعة بين « ايفرن » والبحر وعلى الرغم من المدد الذي جاء به « ابن طيفور » فإن « محمدا » كان سيء الحظ كثيراً إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيراً بين يدى أعدائه وأرسل إلى « قرمونة » .

زادت هذه الانتصارات فى حماسة القاضى وحليفه الامير ، فلم يكتفيا بالاغارة على « بطليوس » وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا، فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفع كثيراً من بربر ولاية « سيدونا »

وبعد فترة من الزمن أبرم القاضى وحليفه صلحا أو سمه — إن شئت — هدنة مع « بنى الأفطس » وحينئذ أطلق « محمد » من الأسر برضى القاضى فى (مارس ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير « قرمونة » نبأ إطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج فى طريقه على « أشبيلية » ويبلغ القاضى شكره ، ولكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضى ، قال لأمير البربر :

« إنى أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به على ، فإذا كنت مدينا لغيرك بإطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى أشبيلية وفاء هذا الحق ، فإنى أفضل أن أبقى حيث أنا في سجنى » .

فاحترم الأمير شعوره وأرسله إلى « بطليوس » مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من وجب الإجلال والتكريم .

وبعد بضع سنين أي في سنة ١٠٣٤ انتقم « عبد الله » بطريقة قد تعتبر غير شريفة ، وثأر لنفسه من تلك الشدائد التى نالته ، وذلك بأن أباح للقاضى أن تمر بأرضه جنوده بقيادة ابنه « اسماعيل » وهى ذاهبة فى طريقها للإغارة على مملكة « ليون » ولما كان « إسماعيل » وجنوده في مضيق لايبعد كثيراً عن حدود « ليون » باغته جيش «بنى الافطس» فقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت إسماعيل من هـذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان مولياً وجهه شطر مدينة « لشبونة » الواقعة على حدود مملـكة أبيه ـ من الجهة الشمالية الغربية ـ تحمل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هـذه الآونة صار القاضى الخصم الألد لأمير « بطليوس »، وليس لدينا معلومات تفصيلية عن المعارك التى دارت بعـد ذلك بين أمير « بطليوس » وخصمه.

ومما لاريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات خطر عظيم لاسبانيا المسلمة ، ولم تترك فيها أثرا يضارع ماتركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلى .

قلنا إن القاضى اعترف بسيادة الخليفة الحمودى « يحيى بن على » ولـكن هـذا الاعتراف كان تعهدا غـير مجد ، وقد بقى كذلك مدة

طويلة ، فقد قام القاضى بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة ، وكان يحيى من الضعف بحيث لايستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه ، وقد تبدلت هذه الحال تدريجا إذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح الآن بحق زعيم عامة الحزب الإفريقى بعد أن كانت هذه الزعامة اسمية فيما مضى ، ولما كان معسكره العام فى « قرمونة » التى طرد منها « محمد بن عبد الله » أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية فى آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدق إلى القاضى بفكرة وطنية لها خطرها وقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع .

فقد رأى من الضرورى أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البلاد البربر الذين اتخذوا الأملاك التى سبق لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التى تجعل البلاد بمنجاة من التعرض لمثل ماحل بها من المصائب من قبل ، وكان القاضى يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوى كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الإفريقى ، وهو في الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التى يجب عليه أن يذللها لنيل تلك الغاية بخافية عليه .

فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ « قرطبة »

يجرحون في كرامتهم متى رأوه يحول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئاً من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب إلى نفسه .

على أن المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن إلى حد مّا أن يصل إلى الغاية التي يرمي إليها ، ويدرك المشروع الذي كان يعمل على تحقيقه . وسنرى ـ فيما بعد ـ على أي نحو يتم له ذلك .

٦ — هشام الثانى

أسلفنا أن الخليفة التعس « هشام الثانى » فر من القصر في عهد « سليمان الثانى » . وقلنا إن أكثر الظواهر تدلنا على أنه مات في آسيا مجهولا لا يعرفه أحد .

ومع هـذا فقد بقي الشعب غير مصدق أنه مات لشدة تعلقه بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء ، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الإشاعات التي كانت ترد إليهم من الخارج منبئة ببقائه على قيد الحيـاة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا ، وقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحـل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا يرافقونه كل ما معه ، وزعموا أنه استمر يومين لا يتذوق طعاماً ولا شراباً ، إلى أن رآه صانع فخار فرق له ورثى

لحاله ، ففرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا ، إذ قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما طعاما ، وبعد لأىٍّ ما استطاع «هشام» — على عجزه عن العمل — أن يكسب قوت يومه .

إلا أنه أنف هذه الحال فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة إلى فلسطين ، ووصل إلى « بيت المقدس » وهو فى أشد حالات الإملاق ، وإنه ليتنقل فى بعض طرق المدينة ، إذ وقف على دكان حصرى ، وأخذ ينظر إلى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصرى :

« هل تعرف هذه الصناعة ؟ »

فأجابه محزوناً :

« كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل إلى أن أعيش وأكسب ما أسد به الرمق . »

فقال الحصرى :

« إذن فابق معى لحاجتى إليك فى إحضار الخيزران ، ولك أجرك »

فقبل مسروراً ، وبقى عند الحصرى حتى حذق هذه الصناعة .

وما زال على هذه الحال بضع سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد إلى اسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ، ونزل « مالقة » ثم تحول عنها إلى « المرية » فوصل إليها سنة ١٠٣٥ فضطر الأمير «زهير» إلى إبعاده خارج حدود

مملكته ، فرحل إلى «قلعة رباح» حيث ألقى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجاً وقبولا من الشعب لا تستحق — على مايظهر — أن تنال شيئاً من الثقة ، والذي وقع حقيقة هو أنه في العهد الذي كان فيه «يحيى» يهدد «أشبيلية» و«قرطبة» كان في «قلعة رباح» رجل حصرى اسمه «خلف» يشبه الخليفة هشاما الثانى تمام الشبه، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم «ابن حيان» و «ابن حزم» المؤرخان مادار حول هشام «المزعوم من» الروايات والأراجيف وعدوه ضربا من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وإن كان من مصلحتهم أن يهتدوا إلى مكان هشام إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولم يتردد «خلف» حين طرق سمعه كثيراً أنه شبيه هشام في أن يدعى أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالى «قلعة رباح» لأن «خلفا» لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا في طاعته ، وثاروا على أميرهم «اسماعيل بن ذى النون» أمير «طليطلة» ، فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدة مقاومتهم ، وأخرج هشاما المزعوم من المدينة فهدأ ثائر الأهالى ، وعادوا إلى السكينة والخضوع .

دهاء القاضى

ولم ينته دور «خلف» عند هذا الحد ، بل رجع عودا على بدء حين علم قاضى « أشبيلية » بخبره ، وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل إذا هو أحضره إلى «أشبيلية» وكان الذى يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيراً أن يرتضى الناس أنه « هشام » ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضد البربر ، ويكون وهو رئيس الوزراء روح هذا الحزب وزعيمه . ولهذا بادر إلى دعوة الخليفة المزعوم إلى « أشبيلية » ووعده بتعضيده إذا نجح في اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى إلى « أشبيلية » قدمه القاضى إلى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهن تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعول القاضي على قرطبة ، وبعث الى شيوخ أشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاما « الثانى » عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة .

وقد كلل الله هذا المسعى بالنجاح ، واعترف بسيادة « هشام » « محمد بن عبد الله » أمير قرمونة المخلوع الذي لجأ الى اشبيلية « وعبد العزيز » أمير « بلنسية » و « مجاهد » أمير « دانية » وأمير « طرطوشة » .

وعلم عامة الشعب في قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لايزال على قيد الحياة . الا أن كبيرهم « الحزم بن جهور » كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجد هذه الحيلة الى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا الى مقاومة ارادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثانى من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربى الصقلبى يتسلح ضد يحيى ، كان هذا محاصرا أشبيلية ، مجدا فى تخريب مايتصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله — من بربر « قرمونة » الدين أكرههم على الانضواء تحت رايته — كان هواهم مع هشام الثانى ، خليفتهم السابق وكانت المخابرة بينهم و بينه سائرة .

وفى أكتوبر (سنة ١٠٣٥) ذهب فريق منهم خفية إلى أشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبد الله ، أن من السهل مباغتة « يحيى » لأنه لايكد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفيد منها ، وهنا وجه القاضي ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله

على رأس الجيش الأشبيلى ، وعندما أرخى الليل سدوله كمن « إسماعيل » مع أكثر الجند فى كمين ، وأرسل كوكبة لمناوشة «قرمونة» ليغرى يحيي بالخروج إلى ظاهرها ، وقد نجح فى خطته هذه ، اذ كان « يحيي » حين بلغه مجىء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئاً على سريره وصاح قائلا :

« يالها من فرصة سعيدة : هذا ابن عباد مقبلا لزيارتى ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت » .

وخرج في ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبيذ قد لعب برأسه ، فلم يتمهل ريثما يعبىء جنده وينظم خططه ، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شىء . وفوجىء الأشبيليون منه بهذا الهجوم الباغت ، فقابلوه بجلد وعنف ، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه « إسماعيل » .

ومن هذه اللحظة سعى « يحيي » إلى حتفه بنفسه ، فان إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره إلى التقهقر ، وقتل يحيي نفسه في المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبدالله دون ذلك ، وقال له :

«إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر «قرمونة» الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم إياه . »

فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد بن عبد الله إلى «قرمونة» على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه و بين الدخول لولا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ، وسار إلى قصر الإمارة، وسلم نساء الأمير يحيى الى بنيه ؛ واستولى على مافي القصر من كنوز ونفائس فى (نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) .

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سروراً عظيما فى أشبيلية وقرطبة : وعندما وصل الخبر إلى مسامع القاضى خر ساجداً شكراً لله ، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضي لايخشى شيئاً من جانب بنى حمود .

وقد نودى بادريس ـ أحد أشقاء يحيى ـ خليفة في مالقة ، وقد كان يعوزه الوقت الكافى الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه ومايقدمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم فى صفه ، ولهذا لم يعد في استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه «محمد» خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته ، هم بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلى عن الحكم ، وقفا حجر عثرة في طريقه ، فقد نجح فى إقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن

اسم هشام قد ألغى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئه بهشام إلى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة في وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

وعول — في بداية الأمر — على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلبى ، وهو الأمير الوحيد الذي أبى الاعتراف بهشام الثانى ، ذلك الأمير هو «زهير» أمير المرية ، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير ، وأقطعه عدة أملاك ، بدأ زهير يناصر الحموديين . ولما نودي بادريس خليفة بادر بالاعتراف به .

ولما صار الآن مهدداً من القاضى عقد محالفة مع «حَبُّوس» الغرناطي ثم زحف جيش أشبيلية ، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر .

ومن المحقق أن القاضى قد بالغ في الاعتداد بقوته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجىء الوقت الذى تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة — بدورها — أشبيلية .

وكثيراً ماخدمته المصادفات الحسنة التى شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

الفصل الثانى

في العصر ـ الذي نحن بصدد التحدث عنه ـ ظهر رجلان طبقت شهرتهما الآفاق ، وكلاهما كان يحمل لصاحبه حقداً قاتلا ، وكانا هما اللذان بيديهما تسيير دفةالأمور في «غرناطة» و«المرية». هذان الرجلان هما : المغربى ابن عباس ، واليهودى صمويل .

فالربان صمويل هاليفى ، وكان يدعى عبادة بن نغذله، ولد في قرطبة ودرس التلمود على الربان هانوخ ، الرئيس الروحى للجالية اليهودية ، ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربى وتثقف بأكثر العلوم التى كانت معروفة إلى ذلك العهد ، ثم كان ـ بعد انقطاعه عن الدرس ـ بدالا صغيراً ، وقضى في هذه التجارة مدة طويلة ، أولا فى قرطبة ، وثانيا في مالقة التى أقام بها بعد الفترة التى استولى فيها بربر سليمان على العاصمة ، ثم ساعفه الحظ وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع .

ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبى القاسم بن العريف وزير جيوش ملك غرناطة ، وكان على رجال القصر فى الغالب أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشئون ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجئوا إلى صمويل هذا ليحرر لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل التى

أثارت إعجاب الوزير إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي ، مما حمل الوزير عند عودته إلى مالقة أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه ، وخاطبه بقوله :

« ليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت ، وما أجدرك أن تكون كوكباً يسطع لألاؤه في بلاط الملك ، فإذا توفرت على ذلك رغبتك ، فإني متخذك لي ناموساً خاصاً . »

فتقبل منه هذه المنة شاكراً ، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة ، وازداد اعجابه به عندما أخذ يبادله الحديث في شئون الدولة ، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال ، بعيد النظر ، سديد الرأي ، حتى قال بعض المؤرخين اليهود :

« إن النصائح التي كان يسديها صمويل كانت بمثابة أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحي كلام الله ويستفسره . »

ولهذا كان الوزير يأخذ بها ، ويخصه بجميل الثناء ، ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه الذي مات فيه ، جاء الملك يعوده ، وقد داخله حزن عميق على وزيره وخادمه الأمين الذي سيفقده ولا يجد من يخلفه ، فانتهز هذه الفرصة وقال للملك :

« لم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني بل كانت وحياً أتلقاه من صمويل ذلك

اليهودى الذى آثرت أن يكون ناموسى الخاص ، فاقصر نظرك عليه واتخذه أبا لك ووزيراً ، أخذ الله بيدك ، وشد به أزرك »

وقد عمل حيوس الملك بهذه النصيحة ، وأحل صمويل بالقصر[1] محل وزيره الراحل ، وصار هذا اليهودى ناموس الملك ومستشاره .

وربما لا يحدثك التاريخ عن رجل يهودى حكم فى دولة إسلامية حكما مباشراً وصريحاً باسم وزير مستشار إلا في هذه المملكة الإسلامية .

على أن بعض اليهود قد تمتع ـ على الأرجح ـ بشىء من الاعتبار والحظوة لدى بعض ملوك المسلمين الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية، ولكن التسامح لم يبلغ بالاسلام إلى حد أن يتولى يهودى منصب رئيس الوزراء ، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى فلم يكن ليجوز فى « غرناطة » تلك المدينة التى كثر عدد اليهود المقيمين بها حتى أطلقوا عليها اسم مدينة اليهود[2] ، ولما كانت فى أيديهم معظم الثروة فقد كانوا يتدخلون غالباً في شئون الدولة .

وصفوة القول أن اليهود وجدوا هنا أرضاً أخرى غير الأرض الموعودة من الصحراء وصخرة حريب .

---

(١) المجلة الاسيوية السلسلة الرابعة من الجزء ١٦ ص ٢٠٣ ـــ ٢٠٥ مقال « م . مونك »
(٢) كرونيكادل مورو ورازيس س ٣٧ تاريخ الرازى

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر ، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة ، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول ، إذ من المحقق أنه لم يكن في استطاعته أن يسند هـذا المنصب الخطير لا إلى رجل من البربر ، ولا إلى آخر من العرب . وقد كانوا يؤثرون –في ذلك الحين– أن يكون الوزير أديباً قد بلغ في الأدب الغاية وملك ناصية البيان ، كي يستطيع أن يحرر الرسائل التي ترسل إلى الملوك بالنثر المبدع ، والأسلوب الرائع الممتع ، وقد كان ملك غرناطة يرغب في أن تتوفر هذه المواهب عنده ، ومثله في ذلك مثل صعلوك يعمل على أن يكون من العظماء ، ولذا كان نصف بربري يبذل كل ما في وسعه حتى لا يظهر بهذا المظهر ، وكان يتمنى –من أعماق نفسه– أن يكون ذا علم وأدب ، وكان يزعم –حتى لا ينسب إلى ضعة النسب– أن السلالة التي انحدر منها –وهي صنهاجة– لم تكن من عنصر البربر بل كانت من عنصر العرب [1] .

فلكل هـذه الاعتبارات كان لا بد له من وزير مضطلع بفنون الأدب لا نظير له عند جيرانه ، ولـكن أنى له أن يظفر بذلك ؟

إن البربر الذين عنده كانوا لا يحسنون إلا عملا واحداً هو القتال

(١) ابن حيان — ابن بسام ج ١ ص ١٢٢

والاستيلاء على المدن ونهب ما فيهـا من الأموال والذخائر وصرفها وتخريبها ، ويعجزون بعـد ذلك عن النطق الفصيح ، أو كتابة سطر صحيح بلغة القرآن ، والعرب الذين كانوا يخضعون لسلطانه كانوا لايحملون هذا النير على عاتقهم إلا وهم يرجفون غضباً و يضطربون حمية وخجلا ، ويرون خيانته عملا شريفاً ، فهو لا يستطيع أن يأمن جانبهم ، وقد ساعفته الظروف فرأى يهوديا مثل صموبل شهد له علمـاء العرب أنفسهم بالاستبحار فى العلوم وفقه أسرار لغة العرب ، وممـا يشهد له بالمهارة والحذق أنه مع حرصه على التمسك بدينه ، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين ، فلا بد ان يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثمينا كان ينفق منه كلما أراد الـكتابة ، ولهذا لم يشعر الملك ـ وقد رفعه إلى منصة رياسة الوزارة ـ بخجل ، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه ، وعلى الرغم من عدم تسامحهم وارتيابهم فى اليهود فقد أذعنوا اضطراراً واعترفوا بعبقرية صمويل ونبوغه ومزاياه ، وفي الحق أنه كان متحليا بمختلف العلوم ، زاخر العباب فيهـا ، فهو الرياضى المنطقى الفلـكى الذي يجيد ـ فوق ذلك ـ سبع لغات ، أضف إلى هذا أنه ـ بوجه عام ـ كان كثيراً ما يكرم الشعراء ورجال الادب ، والكثير

ولما عادا من المتنزه، بادر «باديس» إلى استدعاء أسيره وأخذ يعدد عليه أخطاءه، وما بدر منه من ألفاظ جافة مقذعة، وابن عباس مستسلم مصيخ بسمعه لما يوجهه إليه من جارح القول.

ولما فرغ الملك من كلامه، قال «ابن عباس»:

«أتوسل إليك - يا مولاى - بكل عزيز عليك أن ترحمني وتنقذني من آلامى.»

فقال له «باديس»:

«سأريحك من آلامك اليوم.»

ولمح «باديس» على أسارير أسيره الحزين الممتقع اللون، بصيصا وشعاعاً من الرجاء، فصمت لحظة يسيرة، ثم استأنف كلامه، عن أنيابه بابتسامة فيها كل معانى الانتقام والوحشية، وقال له:

«إنك لا محالة ذاهب الآن إلى حيث تزيد آلامك.»

* * *

وتراطن مع أخيه بلغة البربر التى لا يفهمها «ابن عباس». ومن كلام «باديس» الأخير وابتسامته الرهيبة، وشكله المروع الغاضب، لم يبق عند «ابن عباس» شك فى أن ساعته الأخيرة قد دنت، فجثا على ركبتيه وقال:

«استحلفك بالله أن تبقى على حياتى وتشفق على زوجتى، وترحم أولادي الصغار، ولك أن أقدم ثلاثين ألف دوكا بل ستين ألفا.»

وكان «باديس» مصغيا لكلامه، لا ينبس ببنت شفة، ثم عمد إلى رمح

قصير وطعنه به فى صدره ، وحذا حذوه أخوه « بلقين » وتبعه « على ابن القروى » ، وانهالوا عليه بالطعنات ، ولم تنقطع استصراخاته وتوسلاته، إلا بعد أن برد فى مصرعه عند الطعنة السابعة عشرة [1].

---

(١) جاء في البيان المغرب مايأتى :
وأما « زهير » الفتى المتقدم الذكر ، فكان قد امتدت أطناب مملكته من « المرية » إلى « شاطبة » ومايليها إلى « بياسة » وما وراءها إلى « الفج » من أول عمل « طليطلة »
قال « حيان بن خلف ».

« وكان سبب فساد « باديس بن حبوس » على جاره القديم الحلف «زهير» الفتى فتى « المنصور بن أبى عامر » موالاته لمكاشحه « محمد بن عبدالله الزناتى ».

ومضى على ذلك « حبوس » من عداوته ، وخلفها كلمة باقية فى عقبه ضرم « زهير » نارها بعد . فتمادى تمسكه بالمذكور ، فأرسل إليه « باديس » رسوله معاتبا مستدعياً تجديد المحالفة ، فسارع « زهير » مقبلا نحو « باديس » وضيع الحزم واغتر بالعجب ، ووثق بالكثرة ، وصار أشبه شئ بمجئ الأمير الضخم إلى العامل من عماله ، قد ترك رسوم الالتقاء بالنظراء ، وغير ذلك من وجوه الحزم ، وأعرض زهير عن ذلك كله ، وأقبل ضاربا سوطه حتى تجاوز الحد الذى جرت عادته بالوقوف عنده من عمل « باديس » دون إذنه ، وصير المضايق والأوعار خلف ظهره ولايفكر فيها ، واقتحم البلد حتى صار الى باب « غرناطة »

* * *

ولما وصل « زهير » الى « غرناطة » خرج اليه « باديس بن حبوس » فى جمعه ، وقد أنكر اقتحامه عليه ، وعده حصلا فى قبضته ، فبدأه بالجميل والتكريم وأوسع عليه وعلى رجله فى القرى والقضيم ، بما مكن اغترارهم وثبت طمأنينتهم ، فوقعت المناظرة بين « زهير » و « باديس » ومن حضرهما من رجال دولتهما ، فنشأ بينهما عارض خلاف لأول وهلة ، وحمل « زهير » على التشطط ، ووزيره

* * *

وسرعان ماذاع الخبر فى «غرناطة» بمقتل «ابن عباس»، ذلك الغنى المتكبر المتعجرف، وقد كان سرور الإفريقيين عظيما . وكان أعظم الناس سروراً، «اسماعيل» الذى لم يبق أمامه إلا عدو واحد خطير، وخصم لدود، هو «ابن

« أحمد بن عباس » يفرى الفرى فى تصريح ما يعرض به « زهير » فعزم « باديس » عند ذلك على القتال ووافقه قومه صنهاجة ، فأقام مراكبه ، ونصب كتائبه ، وقطع قنطرة لاحيد « لزهير » عنها ، والخائن « زهير » لايشعر ، وبات تتمخض له ليته عن راغية البكر ، وغاداه « باديس » صبيحتها عن تعبئة محكمة ، فلم يرعه الا رجة القوم راجعين اليه بخفق طبولهم فدهش « زهير » وأصحابه ، فيالك من أمر شتيت ، وهول مفاجئ ، قسم بال المرء بين نفسه وماله ووزع همه بين روحه ورحاله ، الا أن أميرهم « زهيرا » أحسن تدبير الثبات لو استتمه، وقام ينتصب للحرب ، فثبت فى قلب معسكره ، وقدم خليفته « هذيلا » الصقلبي فى وجوه أصحابه من الموالى العامريين الفحول ، وعشيرته الصقب وغيرهم لاستقبال « صنهاجة » فلما رأوه علموا أنهم حماته وشوكته ، وأنهم متى خضدوها لم يثبت لهم من وراءهم ، فختاف الفريقان واشتد بينهم القتال ملياً ، فلم يكن الا قليلا حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عدداً ليرى الله قدرته ، ويجدد فى قلوب عباده عبرته ، فنكص فى الصدمة قائدهم « هذيل » وانهزم أصحابه ، وسيق « هذيل » لوقته الى « باديس » أسيراً فعجل بضرب عنقه ، فما هو الا أن نظر «زهير» لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز الى فئة ، ولج به الفرار وانهزم أصحابه خلفه لايلوون على شئ ، وركبت «صنهاجة» ولفها من « زناتة» أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدق العصبية وايثار الافناء ، فلم يبقوا على أحد قدروا عليه ، فأساءوا الاعتداء ، وأبادوا أمة أخذوا فى شعاب وعرة ، وأجبل شامخة ، أجاءهم إليها السيف ، فكانت حتف من فر ، وتقطعوا على هذه السبيل وأودى أميرهم « زهير» وجهل مصرعه ، وكان سودانه غدروه أول وهلة ، وانقلبوا مع « صنهاجة » وكانوا يقاربون خمسمائة .

بقية » . وكان « لإسماعيل » هاتف خفي يعتاده في الحلم ، قد ألقى في روعه أن هذا العدو سيلقى حتفه و يلحق « بابن عباس » عاجلا . واليهود في هذا

وغنم رجال « باديس » من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والخيام وسائر أنواع الأموال مالا يحيط به الوصف ، فظفر « باديس » على قوم من وجوه رجال « زهير » فجعل على الفرسان والقواد بالقتل ، وشمل الإسار حملة الأقلام وفيهم وزيره الكبير « أحمد بن عباس » الجارخر هذه الثائرة ، فأمر بحبسه ، وشفاؤه الولوغ فى دمه ، وعف « باديس » عن دماء حملة الأقلام دونه إلا من أصيب منهم فى الحرب ، وأطلق « ابن حزم » و « الباجى » وغيرهما.

***

وكان « باديس » قد أرجأ قتل « ابن عباس » مع جماعة من الأسرى الى أن وجه اليه « أبو الحزم بن جهور » رسولا شافعا فى جماعتهم مؤكداً فى شأن « ابن عباس » فكان أبعدهم من الخلاص ، وآثر الشفاء فى قتله على عظيم ما كان يعطى في فديته . فانصرف يوما من بعض ركباته مع أخيه « بلقين » فلما مر على الدار التى كان فيها « ابن عباس » أمر بإخراجه إليه فأقبل يرسف فى قيوده حتى أقيم بين يديه ، فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه ، و « أحمد » يتلطف ويسأله راحته مما هو فيه ، فقال له : « اليوم تستريح من هذا الألم ، وتنتقل الى ماهو أشد منه . » فبان « لأحمد » منه وجه الموت ، فجعل يكثر الضراعة « لباديس » ويضعف له عدد المال ، فآثر غضبه وهز مزراقه فوكزه فيه ، وأمر بحز رأسه . فعلق ، وووري جسده خارج القصر ، فمضى « زهير » و « ابن عباس » على هذه السبيل .

***

وكان « ابن عباس » حسن الكتابة مليح الخط ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، مشاركا فى العلوم ، حاضر الجواب ، ذكى الخاطر ، جامعا للأدوات . وبلغنى أن « عبد العزيز بن أبى عامر » سعى على دمه لما حصل على المرية ، وخاف أن يتخلص فيكدرها عليه ، وكذلك أكد « ابن صمادح » صاحب المرية يومئذ فى قتله ، فقتله انصراف « ابن صمادح » عنه .

كالعرب، يتوهمون أن سراً من الأسرار، يلهمهم وهم في نومهم بنبوءات عن المستقبل . وعاده الحلم ذات ليلة ، فسمع فى نومه هاتفا يردد ثلاثة أبيات بالعبرية هذا معناها :

« لقد هلك « ابن عباس » وشيعته والملتفون حوله ، وهذا الوزير الآخر الذى كان يظاهره ويتآمر معه يوشك أن يقتل مثله ، ويوطأ كالجلبان ويداس ، فماذا كانت عاقبة ثرثرتهما وحمقهما واعتدادهما بقوتهما ؟

لقد دارت الدائرة على أحدهما ، وعما قليل يلحقه الآخر ، فلله الحمد والشكر » .

* * *

وبعد بضع سنين تحققت نبوءة « اسماعيل » — وسنضطر إلى ذكر مقتل هذا الوزير فيما بعد — وصح الآن أن الشعور بالخوف ، أو الحب ، يجعل في الشخص سراً غريباً يدرك به بعض الأمور الغيبية .

الفصل الثالث

في الوقت الذي باغت فيه «باديس» «زهيرا» وجنى عليه، كان قد أدى ـ مرغماً، وبدون قصد منه ـ خدمة جليلة للحليفين اللذين اعترفا «بهشام» المزعوم كخليفة . وقد ذكرنا أن «عبد العزيز[1]» أمير «بلنسية» ، استولى على إمارة «المرية» . ولم يكن في استطاعته في الواقع أن يمد حليفه ـ قاضي «أشبيلية» ـ لاضطراره للدفاع عن مملكته ضد إغارة مجاهد[2] الذي كان يرى ـ بعين الحسد ـ اتساع مملكة جاره وما كان «القاضي» ليخشى وقوع حرب بينه وبين «المرية» فاطمأن من هذه الناحية .

وبدأ يفكر في مهاجمة البربر مبتدئا «بمحمد»[3] أمير «قرمونة» لنزاع قام بينهما ، وكان في الوقت نفسه يتآمر سرا مع فريق من الغرناطيين ، ويبادلهم الرسائل ، ويعمل على إشعال نار الثورة بها .

* * *

وبدأ كثير من أهل «غرناطة» يظهرون نفوراً واستياء من «باديس» . ويرجع هذا إلى ما قطعه على نفسه من عهود ووعد به من أماني معسولة ، في بدء توليه الحكم ، وعلى أثر ذلك صار يبدو قاسيا غليظ القلب شيئاً

(١) هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر المنصور المتوفى سنة ٤٥٢ هـ

(٢) هو مجاهد العامري صاحب داينة والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة)

(٣) «هو محمد بن عبد الله بن برزال» بويع بقرمونة سنة ٤٠٤ هـ وتوفى سنه ٤٣٤ هـ

فشيئا ، و يظهر بمظهر الخائن اللئيم السفاك، وعكف على الشراب ، فعم الاستياء منه ، وأخذ الناس يلومون، ويتألمون، ويشكو بعضهم إلى بعض، ثم أخذوا يتمتمون خفية ويتناجون، ثم صرح الشر فعادوا يتآمرون .

* * *

وكان زعيم هذه المؤامرة وروحها، رجل أفاقي يقال له «أبو الفتوح» .
ومن حديث هذا الرجل أنه ولد بعيدا عن أسبانيا من أسرة عربية كانت في « جرجان »

وقد تلقى الأدب والفلسفة والفلك على أشهر أعلامها ببغداد ، فكان عالما مستبحرا ، وأديبا شاعرا ، وفوق ذلك كان فارسا كميا ، وشجاعا باسلا ، يمتطي الجواد الأصيل ، وينتضي السيف الصقيل .

هبط « أبو الفتوح » أرض « أسبانيا » سنة ١٠١٥ ليجنى ثروة على الراجح . وبعد مدة اتصل بجناب « مجاهد دانية » ، وكان هذا الأمير عالما لغويا جرت بينهما مباحثات في الأدب ، واشتغلا معاً بشرح « الجمل » في النحو ، ثم قاتل في صف أمير «سردينيا»

وكثيرا ما كان يعالج المسائل الفلسفية العويصة ويحاول استكناه المستقبل بواسطة علم النجوم وسير الكواكب . ثم رحل إلى « سرقسطة» مقر « المنذر »، فرحب به هذا الأمير أولا ، ثم اتخذه صديقا ، وعهد إليه بتأديب ابنه . ولكن يؤخذ مما رواه المؤرخ العربي الذى ننقل عنه هاهنا ، أن العهد قد تغير، وتغير معه الأشخاص ، إذ أبلغه « المنذر » يوما ، أنه في غنى عنه ، وأن عليه أن يبرح « سرقسطة » .

فرحل «أبو الفتوح» إلى حيث تطيب له الإقامه في «غرناطة» ، وجلس للتدريس ، فكان يلقي محاضرات عن الشعر القديم ، وبخاصة ديوان الحماسة ، وكان إلى جانب هذا العمل العلمي، يقوم بعمل آخر ، هو التنبؤ بالمستقبل ، وقد خلق أعداء كثيرين « لباديس » ، حين تنبأ على أحكام النجوم ، بأن « يسر » ابن عمه يطمع فى الملك ، وأن « باديس » سيفقد عرشه ، ويتبوءه ابن عمه مكانه ثلاثين عاما .

***

وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وفق إلى تدبير مؤامرة تكتشفها « باديس » قبل حلول الموعد المحدد لتنفيذها ، وتمكن « أبو الفتوح » ، و« ياسر » ، وأركان المؤامرة ، من الفرار إلى خارج المملكة ، حذرا من انتقام « باديس » . ولجئوا إلى قاضي «أشبيلية» ، الذى كان ـ لا ريب ـ شريكهم في هذه المؤامرة . ومحال أن نعرف إلى أي حد كان نصيبه فيها .

وفي هذه الفترة ، هاجم القاضي بجيشه الذى حوت العادة بأن يقوده ابنه «اسمعيل» ، خصمه « محمد » أمير « قرمونة » . فانتصر انتصاراً باهراً واضطرت مدينتا «اشبونة» و«استيجة» إلى التسليم ، وحوصرت «قرمونة» نفسها .

ولما اشتد الضيق «بمحمد» أمير « قرمونة » ، طلب المدد والعون من « إدريس » أمير « مالقة » ، ومن « باديس » . كذلك . فلبيا طلبه . ولما كان « إدريس » مريضا ، أرسل جنوده ـ بقيادة وزيره « ابن بقية » ـ

وقاد « باديس » جيشه بنفسه وتلاحق الجيشان ، وانضما إلى بعضهما .

وكان « إسماعيل » واثقاً كل الثقة من بسالة جنده ، و وفرة عددهم ، فوطن نفسه على منازلة خصومه . ولكن « باديس» ، و « ابن بقية »[١]

---

(١) قال ابن الأثير : «لما قتل يحي بن علي رجع أبو جعفر أحمد بن أبي موسى المعروف بابن بقية ونجا الخادم الصقلبي ، وهما مديرا دولة العلويين ، فأتيا مالقة ، وهي دار مملكتهم فخاطبا أخاه إدريس بن علي ، وكان له سبتة وطنجة ، وطلباه فأتى إلى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحى المقتول مكانه بسبتة ، فأجابهما إلى ذلك فبايعاه ، وسار حسن بن يحيى ونجا إلى سبتة وطنجة ، وتلقب إدريس بالمتأيد بالله ، فبقى كذلك الى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وأربعمائة ، فسير القاضي « أبو القاسم بن عباد » ولده إسماعيل فى عسكر ليتغلب على تلك البلاد ، فأخذ « قرمونة » وأخذ أيضاً « أشبونة » و « استيجة » فأرسل صاحبها إلى إدريس وإلى « باديس بن حبوس » صاحب صنهاجة ، فأتاه صاحب صنهاجة بنفسه ، وأمده إدريس بعسكر يقوده ابن بقية مدير دولته ، فلم يجسروا على إسماعيل بن عباد ، فعادوا عنه فسار اسماعيل مجداً ليأخذ على صنهاجة الطريق ، فأدركهم وقد فارقهم عسكر إدريس قبل ذلك بساعة ، فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقاتلوا اسماعيل بن عباد ، فلم يلبث أصحابه أن انهزموا وأسلموه فقتل وحمل رأسه إلى « إدريس » ، وكان « إدريس » قد يقن بالهلاك وانتقل عن « مالقة » إلى جبل يحتمى به وهو مريض فلما أتاه الرسول عاش بعده يومين ومات . وترك من الولد يحيى ومحمداً وحسناً ، وكان يحيى بن على المقتول قد حبس ابن عمه محمداً والحسن ابنى القاسم بن حمود بالجزيرة ، فلما مات إدريس أخرجهما الموكل بهما ودعا الناس إليهما فبايعهما السودان خاصة قبل الناس لميل أبيهما إليهم ، فملك محمد الجزيرة ولم يتسم بالخلافة ، وأما الحسن بن القاسم فإنه تنسك وترك الدنيا وحج . وكان ابن

حين حسبا أن خصمهما يفوقهما ، أو يدانيهما عدداً ، أبيا أن يشتبكا معه في القتال ، وآثرا أن ينسحبا ، ويتركا أمير « قرمونة » برهة ، فعاد أولهما أدراجه إلى « مالقة » .

ووصل الآخر بجنوده إلى « غرناطة » ، واقتفى « إسماعيل » في الحال أثر الغرناطيين . وكان من حسن حظ « باديس » ، أنه بعد أن فارقه « ابن بقية » بنحو ساعة ، أرسل إليه رسولا على جناح السرعة يستنجده

بقية قد أقام يحيى بن إدريس بعد موت والده بمالقة ، فسار إليها « نجا الصقلبي » من « سبتة » هو والحسن بن يحيى . فهرب ابن بقية ودخلها الحسن ونجا ، فاستمالا ابن بقية حتى حضر فقتله الحسن ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس ، وبايعه الناس بالخلافة ، ولقب بالمستنصر بالله ، ورجع نجا إلى سبتة وترك مع الحسن المستنصر نائباً له يعرف بالشطيفي ، فبقي حسن كذلك نحواً من سنتين ، ثم مات سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ، فقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته أسفاً على أخيها يحيى . فلما مات المستنصر اعتقل الشطيفي إدريس ابن يحيى ، وسار « نجا » من « سبتة » إلى « مالقة » وعزم على محو أمر العلويين ، وأن يضبط البلاد لنفسه ، وأظهر البربر على ذلك فعظم عندهم فقتلوه وقتلوا الشطيفي وأخرجوا إدريس بن يحيى وبايعوه بالخلافة وتسمى « بالعالى » ، وكان كثير الصدقة يتصدق كل جمعة بخمسمائة دينار ، ورد كل مطرود عن وطنه وأعاد عليهم أملاكهم . وكان متأدباً حسن اللقاء له شعر جيد ، إلا أنه كان يصحب الأرذال ولا يحجب نساءه عنهم ، وكل من طلب منهم حصناً من بلاده أعطاه . فأخذت منه صنهاجة عدة حصون وطلبوا وزيره ومدبر أمره صاحب أبيه « موسى بن عفان » ليقتلوه فسلمه إليهم فقتلوه ، وكان قد اعتقل ابني عمه محمداً والحسن ابني إدريس بن علي في حصن « ايرش » ، فلما

و إلا سحق جيشه فى لمحة بجنود «أشبيلية» فطار إليه « ابن بقية» ووقف الجيشان على مقربة من « أستيجة » ، على تمام الأهبة والاستعداد للقاء عدوهما ، بثبات ورباطة جأش .

وقد وهم الأشبيليون ، إذ حسبوا أنهم إنما يتعقبون جيشا منهزما ، فإذا بهم أمام جيش كامل العدة والعدد ، فأفقدتهم تلك المفاجأة قوتهم المعنوية .

رأى ثقته بأبرش اضطراب آراءه خائف عليه ، وبايع بن عمه محمد بن إدريس بن على . وثار باديس بن يحيى من عنده من السودان وطلبوا محمداً فجاء إليهم وسلم إليه إدريس الامر ، وبايع له سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، فاعتقله محمد وتلقب بالمهدى وولى أخاه الحسن عهده ، ولقبه السامى ، فظهرت من المهدى شجاعة وجرأةفهابهالبربر وخافوه،فراسلوا الموكل بإدريس بن يحيى فأجابهم إلى إخراجه وأخرجه وبايع له وخطب له « بسبتة » و « طنجة » بالخلافة . وبقي الى أن توفى سنة ست وأربعين . ثم إن المهدى رأى من أخيه السامى ما أنكره فنفاه عنه فسار إلى العدوة إلى جبال غمارة وأهلها ينقادون للعلويين ويعظمونهم فبايعوه. ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة واجتمعوا اليه وبايعوه بالخلافة وتسمى بالمهدى أيضاً فصار الامر فى غاية الاخلوقةوالفضيحة ، أربعة كلهم يسمىأمير المؤمنين فى رقعة من الارض مقدارها ثلاثون فرسخاً ، فرجعت البرابر عنه ، وعاد إلى الجزيرة فمات بعد أيام . فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة ، وبقى محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين،وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى عند بنى يفرن « بتا كرنا » فلما توفى محمد بن إدريس بن على قصد إدريس بن يحيى « مالقة » فملكها ثم انتقلت إلى « صنهاجة » :

وقد نقلنا هذاالفصل هنا لاتصاله اتصالا شديداً بما نحن فيه .

ووقع فى صفوفهم الاضطراب عند الصدمة الأولى ، وعبثا حاول « إسماعيل » تعبئة الجيش للقتال ، وبرز أمام الصفوف فكان أول الذاهبين ضحية المعركة ، فلم يسع الأشبيليين إلا الفرار طلباً للنجاة .

وملك « باديس » ناصية الحال بعد هذا الانتصار البسيط المفاجىء ، وبينما هو فى معسكره قرب « أستيجة » عرته دهشة إذ وجد « أبا الفتوح » قد انحنى أمامه مترامياً على أقدامه . وكان الذى حدا هذا الرجل إلى تلك المحاولة الخطرة . أنه حين عجل بمغادرة « غرناطة » ـ خوفا على نفسه من « باديس » ـ ترك للقضاء أمر زوجه وولده الصغير وبنتيه . وكان قد وصل إلى علمه أن « باديس » أرسل إلى « قوادم » الزنجى ، فألقى القبض على زوجه وأولاده بوساطة خواصه المقربين إليه . وأودعهم السجن . وكان معروفا بأنه شديد الشغف بزوجه الغادة الأندلسية الفتية ، كثير الحنو على ابنه الصغير وبنتيه . بحيث لا تطيب له الحياة دونهم .

***

وقد خشى أن ينتقم « باديس » منهم فى شخصه . فجاء يلتمس الصفح عن زلته . وهو يعلم ما ركب فى طبع عدوه من حب الانتقام . وما جبل عليه من الظلم والجبروت . جاء على أمل أن يرق له . ويعطفه عليه ما عطفه على عمه والد الزعيم الفار الذى كان رأس شركائه فى المؤامرة .

وحين جثا « أبو الفتوح » أمام « باديس » قال له أبو الفتوح :

« مولاى ، حنانيك ورحمة بعبدك الجانى أمامك ، وأنا أحقق لك ماتقطع معه أنى برىء مما عزى إلى ».

فكاد « باديس » يتميز غيظا وحنقا ، وصرخ فى وجهه وعيناه يتطاير منهما الشرر :

« كيف استطعت ياهذا - مع شناعة جرمك - أن تَمْثل أمامى؟ لقد بذرتَ بذور الشقاق بين أفراد أسرتى ، ثم جئتني الآن تزعم أنك برىء مما جنته يداك ! أتحسب أنه من السهل عليك أن تخدعنى ؟ »

فقال له :

« مولاي ، أقسم عليك إلا مارحمتني . ولا تنس أنك غمرتني بإحسانك وشملتنى بحسن رعايتك ، وهذه البلاد التى أنا ربيب نعمتها من العسر الشاق على أن أفارقها . وفي الوقت الذى أبعد فيه عنها أكون تعساً شقياً . ولا أكذب مولاى الحديث فإنى ما فررت حين فررت مع ابن عمك ، إلا لما تأكد بيننا من صلات يعرفها مولاى ، وأخشى أن يحل بى العقاب كشريك له في الجرم ، وها أنذا بين يدى مولاى أعترف بالفرار وأكرر أن الذى ألجأنى إليه محض الصداقة ، وأؤكد أنى برىء ، وأطمع في عفو مولاى وصفحه ، وأنتظر أن يعاملنى كملك عظيم ومولى كريم لاتحمل نفسه الكبيرة حقداً على صغير مثلى ، فارحم لهفتى ، ورد إلىَّ أسرتى ، وعاملنى بما أنت أهله . »

فقال له :

« سأعاملك ـ إن شاء الله ـ كما تحب ، وبما أنت خليق به ، فارجع إلى أهلك بغرناطة ، وسأنظر في شأنك عند عودتى إليها . »

* **

واطمأن « أبو الفتوح » إلى هذا الكلام الذى لم يدرك مراميه لاول وهلة ، وسار إلى « غرناطة » يحرسه فارسان . ولما كان بظاهر المدينة أرسل « قوادم » الزنجى ـ تنفيذاً لأمر مولاه ـ بعض غلمانه ، فألقوا القبض عليه ، وحلقوا رأسه ولحيته وأركبوه جملا ، وأردفوه زنجياً جلداً استمر يصفعه على التتابع ، والجمل يطوف به أحياء المدينة ويجوس به خلال ديارها حتى أفضوا به إلى السجن حيث أودعوه فى غرفة من غرفه ضيقة ابث فيها هو وجندى من البربر أسر فى معركة « أستيجة » وكان أحد شركائه في المؤامرة .

***

وعاد « باديس » بعد أيام إلى « غرناطة » ولم يكن قد بت فى أمر « أبى الفتوح » بشىء ، ولم يستطع أن يصنع به كما صنع بابن عباس لأن أخاه « بلقين » حال دون ذلك ، ولم يعرف السبب الذي جعله يهتم بشأن هذا الفيلسوف إلى هذا الحد ، إذ عمد إلى إظهار براءته . ودافع عنه بكل قوة حتى خيف أن يفضى ذلك إلى الاستياء . ولهذا تردد « باديس » فى الفصل فى أمر « أبى الفتوح » إلى أن حدث أن سكر مرة « بلقين » كما يقع ذلك كثيراً مع أخيه « باديس » فأمر أخوه بلقين وهو فى غفوة الشراب ـ بإحضار « أبى الفتوح » وزميله المرافق له فى السجن ،

وحين وقع عليه نظره أشبعه سباً شنيعاً وايلاماً وتقريعاً ، وقال له :

« وهل صدقتك كواذب الطوالع — أيها المنجم الخائن الكاذب —
وما هى الفائدة التى عادت عليك الآن ؟

ألم تعد أميرك ذلك السافل المغرور الذي خدعته ، ومنيته الأمانى الكواذب المعسولة أنى سأكون تحت سلطانه ؟ وأنه سيظل فى الحكم ثلاثين عاما ، فلماذا لم تر نحس طالعك حين بدا لك سعد طالع أميرك ؛ حتى كان يتسنى لك أن تتفادى ماحل بك من هذه المصائب الأليمة ؟
إن حياتك الآن أيها الأفاك الأثيم رهن يمينى . »

***

فلم ينبس « أبو الفتوح » بكلمة لأنه ماغامر بحياته إلا طمعاً في لقاء زوجته المعبودة ، وطفله وبنتيه المحبوبتين ، ولأن عاطفته الملتهبة نحو أهله هى التى أكرهته على المغامرة بحياته والاستشفاع والتوسل إلى « باديس » واختراع الحيل والأكاذيب . أما الآن وقد صار على يقين من أن ذلك الطاغية الجبار لامحالة قاتله ، فقد استعاد إليه حواسه ، وتلقى زئير « باديس » وزمجرته بهدوء ورباطة جأش .

واستعاد إلى نفسه عزتها وكرامتها ، وظهر طبعه المتين ، وخلقه الرصين بالمظهر الحقيقى ، فأطرق ملياً ، وشاعت على شفتيه ابتسامة مطمئنة ساخرة ، وصمت صمت من يشعر بكرامة نفسه وعزتها . وقد زاد هذا

الموقف الشريف الهادئ من استعار نار الغضب عند « باديس » فأرغى وأزبد ، وكاد يتميز من الغيظ ، فأسرع إلى سيفه فاستله من غمده ، وأغمده في صدر ضحيته ، فتلقى الضربة دون أن يبدى حراكا أو يظهر أنيناً مما جعل « باديس » يصيح صيحة المتعجب من هذا الرجل ، وهو يلفظ النفس الأخير ، ويستقبل الموت بصمت عميق ، ورباطة جأش ، ونادى الجلاد أن اقطع رأسه ، وارفعه على رمح عبرة لغيره ، وادفن جثته إلى جانب « ابن عباس » كي يرقد عدوّاي كلاهما في في مرقدها الأخير جنبا لجنب إلى أن تقوم الساعة.

***

والتفت إلى الجندى الأسير بعد أن فرغ من ضحيته الأولى ، وقال له :

« والآن جاء دورك فاقترب أيها الجندى ، فجزع البربرى ، واضطرب اضطراباً شديداً ، وجعل يصيح ويستشفع ، ويستغيث ، وجثا على ركبتيه يستغفر « باديس » بكل ما في استطاعته ليبقى على حياته ، ولكن « باديس » قال له :

« هل ذهب منك الحياء أيها الشقى ؟ ألم تر إلى ذلك المنجم الحكيم ، كيف تلقى الموت بكل ثبات فمات كريما عزيزا ، لم تبدر منه كلمة تشف عن جبن ، فكيف وأنت جندى قديم معدود في عداد الجند

البواسل تصل إلى هذا الحد من الجبن ؟ إنك إذن لاتستحق رحمة ولا هوادة .

وضرب عنقه فى (٢٠ اكتوبر سنة ١٠٣٩)

* * *

ثم وريت جثة « أبى الفتوح » التراب كما أمر « باديس » إلى جانب « ابن عباس » وحزن لمقتله جماعة العلماء والأدباء النابهين فى « غرناطة » وصاروا كلما مروا بقبر هذين الرجلين العظيمين يتهامسون :

« لله قبر يضم رجلين حكيمين أبيا أن يقيما على الضيم والذل ، فماتا كريمين رحمهما الله رحمة واسعة . والبقاء لله وحده »

الفصل الرابع

أخذ طاغية صنهاجه ، وجبار غرناطة يقوى نفوذه شيئا فشيئا إلى أن أصبح زعيم حزبه السياسى على رأس البربر (١) ولم يكن يعترف

---

(١) فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائه بعد الفتنة المبيرة بقرطبة واستحكام العداء بين البربر من جهة والعرب والأندلسيين الأصليين وهم الصقالبة من جهة أخرى ، انحاز أمراء الأندلس وملوك البربر وصاروا حزبين : حزب زعيمهم سليمان بن هود الجذامى صاحب الثغر الأعلى ، وكان معه مقاتل الصقلبى صاحب طرطوشة ، وعبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، ومن تحتهما من الولاة أصحاب الأعمال فى الجهات الوسطى ، وكان ابن معن صاحب المرية ، وسعيد بن رفيل صاحب شقورة وغيرهما من رؤساء هذا الجانب منضمين إلى محمد بن جهور صاحب قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً — وهم الأندلسيون الأصليون — على نمط واحد ورأى واحد يمثلون حزب السكان الأصليين المناوئ لحزب البربر ، وكان هؤلاء الثغريون متظاهرين على زعيم البرابرة «باديس ابن حبوس الصنهاجى» صاحب «غرناطة» وعلى حزبه من البربر ، وعلى «ادريس بن يحيى» صاحب «مالقه» ومن يدعو إليه ، وكانوا يدعون لهشام . وكان باديس ومن ظاهره من أمراء البربر يدعون لادريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى إمامهم بمالقة

* * *

وحزب آخر من ملوك الأندلس المسارعين فى الانحياز والفرقة كمجاهد العامرى صاحب دانية . وكابن الأفطس صاحب بطليوس ، ومن يتصل بعمله من الرؤساء فى غربى الأندلس ، ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، وإسحاق بن محمد البرزالى صاحب قرمونة ومن تبعه من صغار الرؤساء . كل هؤلاء على قرار واحد

للخلافة الحمودية بمالقة إلا بمجرد السيادة الاسمية ، وقد بلغ الحموديون الغاية في الضعف حتى جعلوا لوزرائهم السلطان عليهم ، وكان بعضهم يعمد إلى إهلاك بعض، إما بتجريد السلاح أو دس السم . وهم عوضاً عن أن يوجهوا نظرهم إلى أتباعهم من أمراء البربر الأقوياء فيشدوا بهم أزرهم ، كانوا يركنون إلى الدعة ، ويرون السعادة كل السعادة في أن يظفروا بالحكم في مالقة ، وطنجة ، وسبتة ، وإن فقدوا النفوذ في البلاد التي تخطب باسمهم على المنابر .

***

وكان ثمة خلاف كبير بين بلاطي غرناطة ومالقة، ففي «غرناطة» كان البربر وعلى رأسهم «باديس» ووزيره «إسماعيل» يعملون لصالحهم وهم على وفاق تام في الخطط ووجهات النظر ، وفي «مالقة» كان الأمر على النقيض من ذلك ، لوجود الصقالبة الذين تتنافر مصالحهم مع مصالح البربر ، هذا إلى ماوقع للصقالبة أنفسهم من التحاسد والتطاحن ، واستعانة بعضهم على بعض بأعدائهم من النصارى ، وهذه العوامل بعينها هي التي كانت سبباً في سقوط الدولة الأموية .

ونمط واحد ، يلتفون حول عباد المعتضد صاحب اشبيلية ، و يدعون بدعوته للحصرى المشبه بهشام المنصوب خليفة بأشبيلية . وكان كل حزب من الحزبين يتظاهر على ضده أتم مظاهره ، ويتعاون فيما بينه على مدافعة عدوه ، والاستعداد للحوادث المفاجئة هذه هي الجماعات والفرق التي كانت تنضم الى كل من الحزبين : الحزب البربرى ، والحزب العربي الصقلبي .

وقد حدث أن الخليفة الحمودى «إدريس الاول» كان مريضا فى الوقت الذى جرد فيه جيوشه على جند إشبيلية ، وقد أسلم الروح بعد أن وصل إليه الخبر بمقتل اسماعيل فى معركة «أستيجة» بيومين، فاختلف الوزير البربرى مع الوزير الصقلبى على تعيين الخليفة ، فالأول يريد أن يتبوأ عرش الخلافة «يحيي بن إدريس» البكر، لتكون السلطة فى يده وليقوم هو بالأمر ، والوزير الصقلبي يعارضه فى ذلك ولا يقره عليه . ولما كان هذا وزير الممتلكات الافريقية قام بالبيعة لحسن بن يحيي ابن عم يحيي وأعد العدة ليجوز البحر به إلى «مالقه» . وقد أذعن لخطة الوزير الصقلبي وزير البربر لتردده وقلة ثباته ، وكان من جراء التردد والتوانى فى أخذ الحيطة أن أهمل التدبير اللازم للدفاع فى الوقت المناسب ، فرأي بغتة الأسطول الإفريقي وقد ألقى مراسيه فى مياه «مالقة»، فعجل بالفرار مع الخليفة الذى كان يريد أخذ البيعة له .

* **

ولما استقر «حسن» بعاصمة ملكه أرسل وزيره إلى وزير البربر يمنحه العفو، ويرغبه فى العودة ، فوثق بكلامه ، وعاد ليلقى حتفه ، وقد تحققت النبوءة التى كان اسماعيل اليهودى رآها فى منامه، وبعد ذلك قتل المدبر لدولة «حَسَنٍ» أيضاً وهو (نجاء) الذى ارتكب الجريمة كما ذهب إلى ذلك

بعض المؤرخين ، كما أن (حسنا) كان جديرا بأن يقتص منه ، فقد قتل مسموما بيد زوجه شقيقة يحيى المسكين ، ومن ذلك الحين أراد (نجاء) أن يزيد فى نفوذه ، فرأى أنه ليكون كملك مستأثر بالحكم يجب أن تكون السلطة فى يده وحده ، وأن تكون سيادة الخليفة اسمية ، فعمد إلى قتل ابن حسن ، وهو فى ريعان الشباب ، وزج بشقيق «إدريس» فى غياهب السجن ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك عرض نفسه على البربر كخليفة ، وأغراهم بالوعود البراقة ليجتذبهم إلى جانبه ، ولكن البربر كانوا ينطوون على ألم ممض ، وغيظ كامن فى الصدور ، من جراء جرأته البالغة ، وطمعه فى منصب الخلافة طمعا يمس بالدين ، فإنه كان يظهر للسلالة الهاشمية احتراما مزيفا يوقع فى الريبة والشك. وعلى أثر ذلك فكر البربر فى الانتقاض عليه والاقتصاص منه ، وأخذوا يتربصون به الدوائر ويتحينون له الفرص ، ولكى يخفوا ما انطووا عليه من البغضة وإضمار الشر ، تظاهروا بإجابته إلى غرضه ، وصارحوه بأنهم طوع أمره ، وأقسموا له اليمين ، وبايعوه على الطاعة والنصرة . ورغب (نجاء) حينئذ فى انتزاع الجزيرة من (محمد) الخليفة الحمودى الذى كان يحكمها ، وجرد عليها جيشه والتحم الفريقان ، ولكن حدث فى المعارك الأولى التى دارت رحاها مع العدو أن لاحظ الوزير الصقلبى أن البربر يقاتلون بتراخ ، وأنه ليس فى الإمكان التعويل عليهم ، فرأى من الحكمة أن يصدر أمره للجنود

بالارتداد ، واعتزم أن ينفى عند عودته إلى العاصمة البربر الذين تحوم حولهم الشكوك والريب ، وأن يجذب اليه العنصر الصقلبى بقوة المال ، وأن يلف حوله من الصقالبة أكبر عدد ممكن . ولكن أعداءه الألداء من البربر عرفوا خطته ، وتبينوا مايرمى إليه ، وانتهزوا فرصة مروره بالجيش وسط مضيق محصور ، فانقضوا عليه وقتلوه على غرة (٥ فبراير سنة ١٠٤٣) [1]

***

وعلى أثر مقتل ذلك الغاصب لم يستطع البربر أن يخفوا صيحات الفرح والسرور التى كانت تتصعد من أعماق صدورهم . ووقع الاضطراب الشديد بين الجنود ، فأركن الصقالبة إلى الفرار مخافة أن يصيبهم مثل ماأصاب زعيمهم المقتول ، وأسرع فارسان من القتلة إلى « مالقة » ينهبان الأرض على جواديهما ، ولمابلغا المدينة أخذا يصيحان بأعلى صوتهما :

«بشراكم : بشراكم . لقد قتل المتوثب الغاصب .»

ثم أدركا صاحب شرطة«نجاء» فأردياه قتيلا،وعمدا إلى «إدريس» شقيق حسن فأخرجاه من السجن ، وأقاماه خليفة ، ومن ذلك الحين طويت صحيفة من تاريخ الصقالبة فى « مالقة » ، على أن السكينة التى

---

(١) هذا التاريخ موجود فى ابن بسام « ج ١ ص ٢٢٤ »

استتبت فيها ، والطمأنينة التى لابستها زمنا مّا لم تدم طويلا .

لم يكن «إدريس الثانى» فى الحقيقة قوى الدهاء كبير العقل، ولكنه كان وديع النفس ، كريم الخلق ، طيب القلب ، خيراً تقياً ، يصرف جميع أوقاته فى عمل البر وفعل الخير ، ولو أن الأمر كان بيده وحده لما بقى فى بلاده رجل واحد يئن من الفقر ويشكو الحاجة ، وقد مكن المنفيين والمبعدين — مهما كانت جنسياتهم وأحزابهم — من العودة إلى أوطانهم ، ورد إليهم ما أخذ من أملاكهم ، وما كان يصيخ بسمعه إلى الوشايات والسعايات . وكان جوادا سمحا ينفق على الفقراء والمعوزين كل يوم خمسمائة دوكا ، وكان ـ لرقة طبعه وسذاجة قلبه ـ يعطف على عامة الشعب، ويميل إلى التحدث إليهم، ولا يحجب جواريه عنهم ، مما تنبو عنه تقاليد المُلك ورسوم الخلافة .

* * *

ولما كان (الحموديون) من سلالة الرسول (ص) فقد كان عامة الشعب يرفعونهم إلى درجة التقديس ، ويرونهم فى أعينهم كأنصاف آلهة . ولكى يزيدوا من عقيدة الشعب رسوخا ، ويكسبوا محبتهم ، ويشعروا قلوبهم المهابة والاحترام لهم، كانوا يظهرون أمامهم فى الأوقات القليلة النادرة ، وقد حاطوا أنفسهم بالأسرار .

وكان إدريس ـ على ميله إلى البساطة والتحرر من التقاليد المرعية ـ

يُضْطَرُّ إلى أن يأخذ بالقواعد التى سنها سلفه من الخلفاء ، ومن ذلك أنه كان يختفى عن عيون محدثيه فلا يكلمه إنسان إلا من وراء حجاب . ولكونه مثال البساطة المجسمة كان ينسى هذا التقليد ، و يغفل هذه السنة التى درج عليها سلفه،فقدحدث يوما أن شاعراً من« إشبونة»كان ينشده قصيدة يمتدح فيها كرمه ، ويشيد بطيب عنصره ، وشرف أرومته ، وكرم محتده ، وقد جاء فيها بلهجة أهل الجهات الغربية من جزيرة الأندلس قوله :

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحي بن علىّ بن حمودٍ أمير المؤمنين[1]

---

(١) لما تولى « إدريس بن يحي العلوى » احتجب عن الناس على عادة العباسيين فى الشرق ولبث كذلك،حتى أنشده « عبد الرحمن الأشبونى » قصيدته التى يقول فى أولها :

« ألبرق لائح من « أندرين » هملت عيناك بالماء المعين ؟
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى لاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين وبقلبي زفرات وأنين
وأناجى — فى الدجى — عاذلي « ويك ، لا أسمع قول العاذلين»
خوفتنى من سقام وضنى إن هذين لدين العاشقين »

فلما بلغ قوله :

« انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين »

أمر إدريس صاحبه برفع الحجاب . وقد حكمت الدولة العلوية الأندلس سبع

يابنى أحمد ياخير الورى لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحى عليه فاحتبى فى الدجى فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى وجميع الناس من ماء مهين
انظرونا نقتبس من نوركم انه من نور رب العالمين

وكان الخليفة يستمع إلى مادحه من وراء ستار ، وكانت رسوم الخلافة لاتسمح بقبول رجاء هذا الشاعر ، إلا أن الخليفة فعل مالم تجر به العادة ، وقال لحاجبه :

«ارفع الستار . »

فكان هذا الشاعر أسعد حظا من عشيقة « جيوبتير » التى ذهبت ضحية ميلها إلى رؤيته ، حيث رأى ماينبعث عن ذلك المحيا من النور الذى ـ وإن لم يكن سناه يذهب بالأبصار ويبهر الأنظار ـ فهو على الأقل يطبع فى ذهن من يجتليه وينظر إليه أجمل صورة من صور السماحة والإحسان وطيب القلب، وربما كان هذا أحمد أثراً فى نفسه مما لو عاين من صورته الحسية مشرقاً من مشارق الأنوار ، وشاهد تلك الصفات

سنوات فقط وكانت عاصمها « سبتة » وتنتمى إلى « على بن أبى طالب » وعدد ملوكها ثلاثة . وعاد الأمر بعدها إلى بنى أمية مرة أخرى ثم سقطت دولة بنى أمية وخلفها ملوك الطوائف .

التى ذكرها فى شعره . ومن المحقق أن الخليفة أجازه بجائزة سنية وانصرف شاكراً مسروراً .

***

ومما يؤسف له نظراً لمركز الخلافة وأمن الدولة أن«إدريس» كان يضم إلى سماحة النفس وطيب القلب ، وصفا آخر هو التناهى فى الضعف والمواتاة والاستسلام ، ففى استطاعته أن يوافق ويسلم بكل مايراد ويطلب منه كائنا ما كان ، فلو أن أميراً من الأمراء الذين يستظلون بحكمه ـ كباديس أو غيره ـ طلب إليه أن ينزل له عن قصر الخلافة أو يهبه أى أمر آخر لفعل ، وقد حدث أن « باديس » بعث إليه ملحاً أن يرسل وزيره ويمكنه من التنكيل به لضغينة فى نفسه فصرح «إدريس» لوزيره الذى يحقد عليه «باديس»أنه كاتبه فى شأنه وطلب أن يسلمه إليه وأنه لابد فاعل حيث لايستطيع أن يرفض طلبه، فأذعن الوزير لحكمه ولم يشفع له عند « إدريس » أنه الخادم الأمين القديم لأسرته،وقال : «لك يامولاى أن تفعل مايريده هذا الطاغية،وعلى أن أستسلم لما يأتى به القضاء ، ومايخبؤه لى القدر ، وسترى أنى ملاق حتفى غداً وسأقابله باستسلام ورباطة جأش وقدم ثابتة »

وقضى الأمر ، ووصل وزير « إدريس » إلى « غَرناطة » حضرة مملكة باديس فأمر به فى الحال فضربت عنقه ، وكان

هذا الضعف الظاهر من « إدريس » مما أحفظ عليه البربر وأوغر صدورهم ، كما أغضبهم من قبل لينه المفرط ، وعطفه الذى كان يبديه للشعب بنزعاته الاشتراكية . بهذا تحرجت الحالة وانطوت قلوب البربر على بغض هذا الخليفة الضعيف المستسلم وكراهته ، ولما كان أولئك الزنوج يطغيهم الضعف ويغريهم اللين ، ولا يردعهم إلا إعمال السيف فى رقابهم ، وإنضاج جلودهم بالسياط ، وتعليق المشانق لإزهاق أرواح مجرميهم ، لم يزدهم ذلك إلا استخفافاً بالخليفة وازدراء به وجرأة عليه ، ذلك الخليفة الذى لم يصدر قط حكم على أحد بالقتل فى زمنه ، فلا جرم إذا كان الاستياء عاما شاملا ، ولا غرابة فى أن يحدث رئيس حصن « إيرش » ثورة فى داخله ، ويطلق صاحب شرطته سراح ابنى عم «إدريس» وينادى بحمد البكر منهما خليفة،ولا فى أن يثور الزنوج الذين يؤلفون حرس قصر الخلافة بمالقه ، ويهيبوا بحمد أن يكون بينهم ، على أن السواد الأعظم من أهل مالقة لم يتخلوا عن خليفتهم فى ساعة الخطر المحدق والبلاء الداهم ، إذ كانت قلوبهم تفيض حبا وعطفا على خليفتهم الخيّر المحسن ، فسارعوا إلى نجدته ، وطلبوا أن تخرج لهم الأسلحة من دار السلاح ، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا ولو أنهم كانوا متقلدى السلاح فى ذلك الوقت لم يبق من الزنوج الثائرين أحد فى القصر ، وقد أبى إدريس أن يمكنهم من السلاح حقنا للدماء

و إطفاء للنائرة وشكر لهم هـذه العاطفة ، وخاطبهم بقوله :

« عودوا إلى دوركم فإنى لا أرغب فى أن يسفك دم من أجلى . »

وبهـذا لم تقم أية عقبة فى سبيل إقامة محمد خليفة مكان إدريس الذى حل محله فى حصن إيرش ، وبهـذا تبادل كل منهما مكان الآخر (١٠٤٦ — ١٠٤٧)

ولم يكن الخليفة الجديد على شاكلة سلفه ، بل نزع لأمه ، وهى حسناء باسلة ، يطيب لها العيش فى الخلاء حيث تشاهد عن كثب الاستعـداد للقتال ، و إدارة المعارك الدموية ، وضرب الحصار على الحصون المنيعة ، وحيث تنثر على الجند من درر كلامها ، وصرر نقودها مايلهبهم حماسة وشجاعة ونجدة ، وقد بلغ محمد فى البسالة والإقدام شأوا بعيداً ، وكان مع هـذا قاسياً غليظ القلب سفاكا للدماء ، و إذا كانت القوة قد أعوزت إدريس فإن محمدا (على رأى محدثى الثورة) كان له من البأس والقوة أوفر نصيب ، وقد كان مثله فى ذلك مثل الضفدعة التى طلبت من «جيو بيتر» أن يقيمها ملكة على مملكة الضفادع ، وعالم الضفادع هذا كما أسماه (لافونتين) هو جماعة البربر والعبيد ، أولئك الذين لم يلبثوا إلا قليلا حـتى حنقوا على الخليفة الرهيب ، وحملوا له الإحن فى صدورهم ، وندموا على سلفه الوادع المسالم الذى كان وجوده كلا وجود .

وسرعان مادبرت مؤامرة ، وشرع مدبروها يتفاوضون مع رئيس حصن « إيرش » الذى سارع إلى الانضمام إليهم بسهولة فأخرجوا إدريس الثانى من السجن ، ونادوا به خليفة.

* * *

وفى هذه الآونة لم يحجم «إدريس» عن إثارة حرب أهلية ؛ لأن ماعاناه فى سجنه ذهب بما كان فى نفسه من نزعات شريفة ، واتفق أن محمداً – وقد ألهبته أمه حمية وحماسة – قاتل خصومه ببسالة وشدة حتى ظفر بهم وألجأهم إلى وضع السلاح ، ومع هذا لم يسلموا إدريس لخصمه ، بل أرسلوه لإفريقية ، وتولى الأمر هناك اثنان من البربر ، وهما : صاحب شرطة (سبتة [1]) ، وصاحب شرطة (طنجه) فقابلاه بجفاوة وإكرام بالغين ، وأخذا له فى البيعة وخطبا باسمه على المنابر ، على أن ذينك الرجلين استأثرا دونه بالسلطة الحقيقية ، وكانا لحرصهما على الاستئثار بالسلطة والنفوذ يراقبانه عن كثب ، ويحولان دون

(١) بلدة مشهورة من قواعد بلاد البربر واقعة على طرف بحر الزقاق بين برها وبين جزيرة الأندلس أقرب مسافة فى البحر ، وهى داخلة فيه كدخول كف على زند . ينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم «ابن مرانة السبتى» كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة ، وكان « المعتمد » يقول : « اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضى » . وتقع طنجة فى الجنوب منها على شاطئ المحيط الغربى .

ظهوره للجمهور ، واقترابه من الشعب ، وقد تمكن بعض مضمرى العداوة لهما من أمراء البربر أن يقولوا للخليفة : ان هذين المملوكين اعتقلاك فى القصر وحالا دون أن تتولى الحكم بنفسك ، فخولنا السلطة ونحن نخلصك منهما، ولكن إدريس ـ لوداعته ـ رفض اقتراحهم، وأفضى بما دار بينه وبينهم من الحديث إلى وزيريه ، فصدر أمرهما فى الحال بإبعاد أولئك الأمراء .

وخشى الرجلان القائمان بأفريقية أن يصغى إدريس لما يدس إليه مرة ثانية من الوشايات والدسائس فأوعزا إليه أن يرحل إلى الأندلس فجاز البحر اليها ، واستقر عند صاحب « رُنْدَة[1] » على أنهما لم يزالا يعترفان به كخليفة ويقران الخطبة باسمه على المنابر

وفى هذه الأثناء طلب المتذمرون فى مالقة من باديس أن ينضم لمساعدتهم ، فقام وأعلن الحرب باديء ذى بدء على (محمد) ثم أبرم معه صلحا ، ثم بايعوا أمير الجزيرة الخضراء ، واسمه (محمد) أيضًا ، ونادوا به خليفة ، وكان الخلفاء بالأندلس الى هذا العهد أربعة ، وهم : الخليفة المزعوم المشبه بهشام فى اشبيلية ، ومحمد فى مالقة ، ومحمد صاحب الجزيرة ، ثم ادريس الثانى المستقر فى (« رُنْدَة »

(١) هى معقل حصين فى الجهة الغربية من الأندلس بين « إشبيلية » و « مالقة » .

ولم يكن لإثنين منهما فى الحقيقة شئ من النفوذ والسلطان ، أما الآخران فكانا أميرين صغيرين لاخطر لهما ، ولا يستحقان أن يحملا لقب الخلافة ، ولا أن يتسمى كل واحد منهما بأمير المؤمنين

أما أمير الجزيرة فقد فشل فى هذه المحاولة ، وانفض من حوله الداعون له باسم الخلافة ، فعجل بالعودة الى بلاده ، ومات بعد أيام قلائل أسى وخجلا (١٠٤٨ — ١٠٤٩)

وبعد أربع أو خمس سنوات توفى «محمد» الخليفة القائم بمالقة، وتطلع « إدريس الثالث » أحد أبناء أخيه إلى منصب الخلافة ، ولكنه لم ينجح هذه المرة ، وأقيم «إدريس الثانى» خليفة ، وشاءت الأقدار أن تسالمه فبقى فى هدوء وطمأنينة إلى أن قضى نحبه سنة (١٠٥٥)

وأراد حمودى آخر أن يخلفه فى الحكم فناوأه «باديس» وقضى على آماله .

ولما كان «باديس» صاحب غرناطة هو الرئيس الحقيقى للبربر ، فقد كره أن يرى أمامه خليفة تستظل بلاده بحكمه ، ومن ذلك الحين عقد النية على أن يقضى على الحموديين ، وأن يدمج مالَقَة [١] وأعمالها ضمن

---

(١) هى مدينة بالأندلس من أعمال « رية » واقعة على ساحل بحر الزقاق ، وهو المعروف قديماً ببحر المجاز ، والمعروف الآن بمضيق جبل طارق . وتقع قبالتها من العدوة الأخرى ببلاد المغرب مدينة « سبتة » .

ولاياته ، وقد أمضى عزيمته هذه ، وأنفذ مشروعه دون أن يصادف عوائق كبيرة

إلا أن العرب لم يكونوا ليذعنوا لسلطانه إلا على كره منهم لذلك ، ولما كان قد كسب إلى جانبه أمثال الوزير أبي عبد الله الجذامى لم يحفل بالباقين ، أما البربر فكانوا مقتنعين بضعف أمرائهم، وبأن الضرورة تقضى عليهم بأن ينضموا إلى إخوانهم من بربر غرناطة ايتقووا بهم ، ويستطيعوا أن يواجهوا الحزب العربى الذى يزداد كل يوم قوة وتوسعا فى الجانب الغربى الجنوبى ، لهذا كله ناصروا باديس وأيدوا خططه ومشروعاته ولم يعارضوها ، وأصبح باديس يفضل عون البربر والتفافهم حوله ملكا على غرناطة ومالقة وما يتبعهما من أعمال(١) ، وتمكن من نفى

---

(١) نحن هنا بمسيس الحاجة إلى اختصار طرف من أخبار الدولة الحسنية الحمودية يعرف بها حالهم ونسبهم ، ويتسق بها تسلسلهم وتعاقب ولاتهم :

فأول ملوك بنى هاشم بالأندلس على بن حمود بن ميمون بن حمود بن على بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، خرج من سبته إلى مالقة للاخذ بثار هشام الخليفة الأموى فانحاز إليه خيران الصقلبي ، وزاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن وإخوته وبنو عمه من صنهاجة ، ومن انضم إلى هؤلاء من جماعة الناس ، فحارب بهم سليمان قاتل هشام وهزمه ودخل القصر بقرطبة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وبقى خليفة إلى أن قتله صقالبته بحمام قصره سنة (٤٠٨) وولى الخلافة بعده بقرطبة أخوه القاسم بن حمود ، ولى مرتين : المرة الأولى سنة (٤١٢) وبقى بها إلى أن فر وخلعه ابن

الحموديين والقضاء عليهم – وهم وإن كانوا قد لعبوا دورا آخر فى افريقية إلا أن دورهم الذى مثلوه فى الأندلس كان قد انتهى .

أخيه يحي بن على بن حمود ، والثانية بعد ابن أخيه يحي ، وتوفى محبوسا عند ابن أخيه إدريس بن على بن حمود ، وبعد هؤلاء انقرضت دولة بنى حمود بقرطبة

ولما خرج يحيى بن حمود من قرطبة فى خلافته الأولى استوطن (مالقة) أما عمه القاسم فخرج منها إلى أشبيلية فأوصد أهلها أبوابها فى وجهه ، فاستقر بشريش، فزحف إليه ابن أخيه يحيى هذا ، وأسره وأسر معه بنيه وسجنهم فى مالقة ، وبذلك صارت شريش ومالقة ، والمرية ، وسبتة فى طاعته ، وخطبوا له بالخلافة ، وبقى عمه القاسم سجينا عنده إلى أن قتله خنقا ، أما يحيى بن على فبقى خليفة إلى أن قتل بقرمونة سنة (٤٢٧) ولما وصل خبر مقتله إلى أخيه إدريس بن على بن حمود دخل مالقة ودعا لنفسه ، فبايعه حبوس بن ماكسن وقبيلته صنهاجة ، وتوفى إدريس هذا صاحب « سبته » و « مالقه » سنة (٤٣١) فبويع أخوه حسن بن على بسبتة — ولما توفى قام بعده ولده يحيى بن حسن بن على ، ثم قام عليه ابن عمه حسن بن يحيى بن على فخلعه وقتله بسبتة ثم توفى حسن بن يحيى هذا بمالقة مسموما ، وترك ولداً صغيراً بسبتة ، فقام به قائده (أبو الفوزنجاء) فجاز البحر الى الجزيرة الخضراء ، ولما كان فى بعض الطريق قتله أخوال يحي بن حسن ومواليه ، ونهض قوم منهم الى مالقة فقتلوا الوزير أبا جعفر بن موسى ، وأخرجوا إدريس بن يحي بن على بن حمود من سجنه ، فبايعه أمراء البربر ، وخطبوا له باسم الخلافة وذلك سنة (٤٣٤) ثم قدم عليه بمالقة ابن عمه محمد بن ادريس بن على بن محمود ، وخلعه سنة (٤٣٨) وبويع له بالخلافة ، وكان سفاكا للدماء فوجه اليه باديس بن حبوس بكأس عراق مسموم فمات فى سنة (٤٤٤) فولى ولده محمد ، فخلعه البربر وأقاموا محمد بن القاسم بن محمود — ومات محمد بن القاسم ، فبايعوا ابنه القاسم ثم تغلب ابن عباد صاحب اشبيلية على الجزيرة الخضراء ، وأخرج منها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود ، وبخروجه انقرضت ذريتهم من الأندلس ، ودالت دولة الحموديين بها ، وكانت مدتهم ٥٨ سنة

الفصل الخامس

لـكيلا تقطع تسلسل الحوادث فى هـذه العجالة اليسيرة عن تاريخ «مالقة» اضطررنا لأن نلم بالحوادث إلمامة يسيرة، ولما كنا سنلقى نظرة على التقدم الذى أحدثه الحزب العربى فى غضون هذه المدة ، فمن واجبنا أن نعود إلى بعض حوادث السنين الماضية

لما توفى أبوالقاسم محمد قاضى إشبيلية فى أواخر ينايرسنة ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، ولقب حينئذ بالحاجب أى الوزير الأول لهشام الثانى ، واشتهر بعـد ذلك فى التاريخ باسم المعتضد ، ولو أن هذا الاسم لم يطلق عليه الا بعد فترة من الزمن، فإنا سنطلقه عليه الآن تفاديا مما عساه أن يقع من اللبس عند تغييره

إن هـذا الزعيم الجديد للحزب العربى فى الجنوب الغربى من الجزيرة ، قد حقق بشخصيته القوية الفتية لهيئة من الهيئات الحزبية القوية مالم تحققه الشيخوخة اللدنة الضعيفة ، فقـد كان فى كل الشؤون المنافس الجدير لخصمه «باديس» زعيم الشعبة البربرية المعارضة .

كان هـذا الزعيم الجديد كمنافسه كثير الشكوك حقوداً غادراً لئيما ظلوماً جباراً قاسيا سفاكا للدماء ، وكان مدمنا للخمر مثله ، إلا أنه قد بزَّه فى الخبث والدعارة، وكان ثائر الطبيعة جامح الشهوة، يواصل اللذات

ولا ينقطع عن الشهوات ، حتى أنه لم يجتمع فى قصر ملك من الملوك ما اجتمع فى قصره من الحظيات والسرارى . يقال إنه دخل قصره — على التتابع — ثمانمائة من الشواب والصبايا الحسان .

و بالرغم من التوافق بين هذين الملكين فى كثير من النزعات الشريرة والشهوية ، فإن أخلاقهما وميولهما وعاداتهما لم تكن متوافقة فى نواحٍ كثيرة .

فأمير البربر كان من البربر أو أقرب إلى خشونة البربر منه إلى شئ آخر ، ساخرا من آداب اللياقة ، بعيدا عن الحصافة والثقافة ، لايعنى بأساليب الحضارة ، ولا يترك لها عادات البداوة ، ولم يكن الشعراء لتطأ أقدامهم أبهاء الحمراء ليمتدحوا بالشعر العربى ملكا لايعرف غير رطانة البربر .

أما المعتضد فقد كان على النقيض من ذلك ، قد أخذ بطرف مناسب من الثقافة والتعليم الحسن ، ولم يكن — فى الحقيقة — قد توسع فى العلوم حتى يكون جديراً فى زعمه أن يوضع فى مصاف العلماء و يستحق لقب عالم ، ولكنه أوتى من المواهب ، ودقة الشعور ، ولطف الإحساس ، وسلامة الذوق ، وحدة الذكاء ، وقوة الذاكرة ، ماجعله يعلم مالا يعلمه رجل عادى.

وشعره الذى نظمه قصائد ومقطعات له قيمته إذا أريد الوقوف على

كنه أخلاقه ، بغض النظر عن قيمته اللغوية والأدبية ، على أن هذا الشعر قد أكسبه بين مواطنيه مكانة شاعر مجيد[١] وكان محبا للأدب

---

(١) المعتضد وأخباره وأشعاره

نتقل هنا — بتصرف يسير — طرفا من أخبار المعتضد عن كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ، ثم نتبع ذلك بنبذة من قصائده ومقطوعاته نقلا عما أثبتناه من شعر الملكين (المعتضد والمعتمد) فى شرح ديوان ابن زيدون (ص ٢٧٠) تتميما للفائدة ، وإثباتاً لماله مساس بالفصول (٥ ، ٦ ، ٧) من كلام «دوزى» حتى يكون القارئ على بينة مما يمر به فيها من الحوادث التاريخية ، والعبارات التحليلية التى يحلل بها «دوزى» نفسية ملكين عظيمين من ملوك الطوائف هما «المعتضد» ومنافسه «باديس» وذلك مانراه ضروريا ولازما لاتصاله بما نحن فيه اتصالا وثيقاً .

المعتضد

هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولى أمور « إشبيلية » وأعمالها بعد وفاة أبيه القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل سنة (٤٣٩) هـ وجرى على سنن أبيــه أولا من جعل الحــكم شورى بينــه وبين مجلس منتخب من أعوان ووزراء وشركاء لايقطع أمراً دونهم ، ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم ، ثم بدا له أن يستبد بالملــكة وحده ، وكان شهما صارماً حديدالقلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ، فلم يزل يعمل على إبعاد شركائه فى الحــكم واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ، إلى أن تم له ماأراده من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله ، ومن حيله ودهائه فى

شغوفا بالفنون أريحيا جوادا يغمر الشعراء بالعطاء الكثير، على المديح القليل، له ولع شديد بتشييد القصور الفخمة، وكانت أساليبه فى

السياسة أنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله، وكان الذى حمله على تدبير هذه الحيلة، مارآه من اضطراب أهل «إشبيلية» وخاف قيام العامة عليه، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة كالمستظهر، والمستكفى، والمعتد، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بنى أمية من يقيمونه، فادعى ماادعاه من ذلك، وذكر أن هشاماً عنده بقصره. وشهد له خواص من حشمه، وصور نفسه بصورة الحاجب لهشام، والمنفذ لأمورم وأمر بالدعاءله على المنابر، فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته، ونعاه إلى رعيته فى سنة (٤٥٥) واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيا زعم، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس، ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك، وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور، وكان يقول: فى مثل هذا البستان فليتنزه المتنزهون!

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحدعصره شهامة وصرامة وشجاعةقلب، وحدة نفس، كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس، وكان قد استوى فى مخافته القريب والبعيد، لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر أولاده المرشح لولايةعهده صبراً، وكان سبب ذلك أن ولده المذكور، واسمه إسماعيل، كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته، وتمنى وفاته، فيتغاضى المعتضد، ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذى فيه أبوه فى عبداء وأراذل معه، ورام الفتك بأبيه، فانتبه البوابون

الظلم مقرونة بشئ من المهارة، ينهج في ذلك منهج خليفة بغداد الذي انتحل لنفسه لقبه ، واختط في أحكامه خطته ، بينما كان « باديس » لا يعرف من أمر هذا الخليفة شيئا بل ربما كان يجهل العصر الذي كان فيه .

والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأخذ بعضهم فأقر ، وأخبر بالكائنة على وجهها ، وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك ، وجعل لمن قتل أباه المعتضد جعلا سنيا . فالله أعلم . فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا ، واستصفى أمواله ، وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه حينئذ

وبلغني أنه قتل رجلا أعمى بمكة ، كان يدعو عليه بها ، وكان هذا الرجل من بادية إشبيلية ، وكان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقي ماله حتى افتقر ، ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقاً فيه دنانير مطلية بالسم ، وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ، وسلم عليه عنا ، فاتفق أن سافر الرجل ومعه الحق ، فحين وصل مكة لقي الاعمى ودفع إليه الحق وقال هذا من عند المعتضد ، فأنكر ذلك الأعمى . وقال : كيف يظلمني باشبيلية ، ويتصدق على بالحجاز ، فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول شئ فعله أن فتح الحق ، وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ، فاعجب لرجل بقاصية المغرب ، يعتني بقتل رجل بالحجاز ، وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرمنه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها في الأسحار مقدراً أنه قد أمن غائلته إذ صار في مملكة غيره ، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله

وكلا الملكين كان مولعا بشرب الخمر كما عرفت إلا أن باديس —لخشونته وجفاء طبعه— كانت تتمثل فى مجلس شرابه الوحشية والجفاء ، وكان لبربريته الجافية لايمنعه الخجل أن يسف فى شرابه إسفافا معيبا

وجاءه برأسه . وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين المجاورين له ، وأشدهم عليه البربر : صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحى إشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة ، ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استزلهم ، ففرق كلمتهم ، وشتت منتظم أمرهم ، وتفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أمورها ، كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ، بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عينا له بقرمونة كتابا فى بعض أمره أن استدعى رجلا من بادية إشبيليه شديد البله كثير الغفلة وقال له : اخلع ثيابك ، وألبسه جبة جعل فى جيبها كتابا وخاط عليه . وقال له : اخرج إلى قرمونة فاذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بهاالبلد ، وقف حيث يقف أصحاب الحطب ، ولاتبعها إلالمن يشتريها منك بخمسة دراهم ، وكان قدقرر هذا كله مع صاحبه الذى بقرمونة فخرج البدوي كما أمره المعتضد فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ، ودخل بها البلد ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل الناس يتزون عليه ، ويسومون منه حزمته . فاذا قال لاأبيعها إلابخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه ، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل ، والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول : هذا آبنوس ، ويقول الآخر : لابل هو عود هندى ، وماأشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد . فقال له : بكم تبيع حزمتك هذه . فقال: بخمسة دراهم . فقال: قد اشتريتها ، فاحملها إلى البيت ، فقام يحملها، والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ، ودفع إليه الخمسة الدراهم ، فلما

أما المعتضد وهو ذلك الرجل المثقف المهذب ، والإنسان الرقيق الحاشية ، والملك العظيم الشأن، فما كان يقدم على هذا الأمر إلا بشئ

أخذها وهم بالانصراف ، قال له : أين تريد فى هــذا الوقت ، وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندى ، فاذا أصبحت رجعت إلى منزلك ، فأجابه فأدخله الى بيته وقــدم له طعاما وسأله كأنه لايعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية إشبيلية قال : ياأخى ماالذى جاء بك إلى هذا الموضع ؟ وقد علمت نــكد البربر وشؤمهم ، وهوان الدماء عليهم . فقال : حملتنى على هذا الحاجــة ، ولم يظهر له أن المعتضد أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليــه . قال له : تجرد من ثوبك هــذا فهو أهنأ لنومك ، وأروح لجسمك ، فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها ، واستخرج الـكتاب فقرأه ، وكتب جوابه وجعله فى جيب الجبة ، وخاط عليه كما كان فلما أصبح الرجل لبس جبته ، ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الامارة ، واستأذن فأدخل على المعتضد . فقال له : اخلع هذه الجبة وكساه ثيابا حسانا ، فرح بها البدوى وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء ؟ وأخذ المعتضد الـكتاب من جيب الجبــة فقرأه ، وتمم ماأراد من أمره ، وله فى تدبير ملـكه ، وإحكام أمره آراء عجيبة ، وحيل غريبة ، لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها ، ويخرج عن حد التلخيص بسطها

ولما قتل ابنه إسماعيل كما تقدم ، وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده الى ابنه أبى القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقبــه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة أبى القاسم هذا فى حياة أبيه وبعد وفاته .

وتوفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة (٤٦٤)

من الرقة والدعة واللطف ، وكان لما يمتاز به من الذوق ولطف الاحساس وقوة التمييز ، لايخلو مجلس شرابه من شروط اللياقة ، وجمال

أشعاره

قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد يصف شغفه بذكر المدامة وحبه لما يهوى النديم ، ومناوأته للعدو المناوئ ، وتقسيمه زمنه شطرين : شطر لتدبير الملك ، وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر .

لعمرك إنى — بالمدامة — قوال ۞ وإنى — لما يهوى الندامى — لفعال
قسمت زمانى بين كد وراحة ۞ فللرأى أسحار ، وللطيب آصال
فأمسى على اللذات واللهو عاكفا ۞ وأضحى بساحات الرياسة أختال
ولست على الادمان أغفل بغيتى ۞ من المجد ؛ إنى فى المعالى لمحتال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة ۞ أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً من الناس منطق ۞ بروق بدا منى مقال وأفعال

وقال يتغزل :

رعى الله من يصلى فؤادى بحبه ۞ سعيراً ، وعينى منه فى جنة الخلد
غزالية العينين شمسية السنا ۞ كثيبية الردفين غصنية القد
شكوت اليها حبها بمدامعى ۞ وأعلمتها ماقد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها — وهو سالم — ۞ فأعدى وذو الشوق المبرح قديعدى
فجادت — وما كادت — على بخدها ۞ وقد ينبع الماء النمير من الصلد
فقلت لها : هاتى ثناياك اننى ۞ أفضل نوار الأقاحى على الورد
وميلى على جسمى بجسمك فانثنت ۞ نعيد الذى أملت منها كما تبدى
عناقا ولثما أرويا الشوق بيننا ۞ فرادى ومثنى كالشرار من الزند

الذوق ، وحسن التنسيق ، وكان يتعاطى الخمر بطريقة غير معتدلة ، وكان هو وندماؤه ينتشون فى امتداح هذه النقيصة الخمريات البديعة

فياساعة ماكان أقصر وقتها ... لدى تقضت غيرمذمومة العهد

وقال يتمدح بالكرم والسخاء ومضاء العزم:

«رعى الله حالينا حديثاً وماضياً ... وان كنت قدجردت عزمى ماضياً

فما لليالى لاتزال ترومنى ... ويرمين منى صائب السهم قاضياً

وقدعلمت أن الخطوب تطيعنى ... ومازلت من لبس الدنيات عاريا

آجدد فى الدنيا ثيابا جديدة ... يجدد منها الجود ماكان باليا

فما مر لى بخل بخاطر مهجتى ... ولا مر بخل الناس قط ببالیا

ألاحبذا فى المجد اتلاف طارف ... وبذلى عند الحمد نفسى ومالیا »

وقال حين دخل على ابنه المعتمد مالقة

« أرية ! أنت فائدة الزمان ... فقد فقت الممالك فى معان

وقد رمناك من بلد بعيد ... فأدناك الاله بلا توان

بذلنا جهدنا عزما وحزما ... ووطنا الكماة على الطعان

وأجهدنا العزائم والمساعى ... وأعملنا الحسام مع السنان

ليهنىء أهل مالقة انتصارى ... واعزازى لهم بعد الهوان

سينقذهم وينميهم جميعا ... رضاع الخير ان درت لبانى

وأرقيهم ذرا درج المعالى ... كما أجنيهم ثمر الأمانى

وأضعاف الذى يسدى لسانى ... اليهم مايجن لهم جنانى

ألم أعتقهم من ذل كفر ... جرى فى ضيمهم ملء العنان

وتوراة محرفة أعزت ... فطالت ذلة السبع المثانى

التى تكون آية فى لطف الشعور ، وجمال الذوق ودقة التعبير ، وقد ساعدته قوته الجسمانية على مواصلة أعمال الدولة والقيام، بأعباء الملك مع إدمانه الشراب، وانكبابه على الشهوات واللذات ، وقد كان من آيات نشاطه للعمل ، وانصرافه لمهام الدولة ، أن يكف عن شهواته فى الأوقات التى يتطلبها العمل ، فيعنى بمهام دولته كملك ، ويبذل فى ذلك جهد الطاقة ليوفر من أوقات العمل وقتا للهو والراحة واستجمام القوى يعود فيه إلى شرابه. ويلهو فيه بلذاته.

* * *

ومن الغريب أن هذا القاسى الجبار — مع ما كان يلقيه فى قلوب حرمه وجواريه الحسان من الفزع والرعب بنظراته المفزعة المروعة — كان

الى أن ثار بى عزم يمانى   فأدرك سؤله العضب اليمانى
وأنضيت الصوارم خاطبات   فكان قضاؤها سحر البيان
فعاد البر معمور المغانى   وآب الفسق مهدوم المبانى
وقام امام جامعهم يصلى   وشنفت المسامع بالأذان »

هذا مااخترناه من شعر المعتضد ، وهو وان لم يكسبه — كما يقول دوزى — بين معاصريه مكانة شاعر مجيد، لخلوة من الديباجة والطلاوة، وبعده عن المتانة والجزالة، وتقصيره عن بلوغ المرتبة الأدبية التى تسمو به الى مستوى الشعر الفحل — فان فيه من الشواهد التى ينتفع بها المؤرخ مالايصح معها اغفاله ، ولاينبغى اهماله، لذلك ترى « دوزى » يستشف من خلال أبيات المعتضد ، ويستخرج من تضاعيف قصائده ومقطعاته الكثير من صفاته وعاداته وأخلاقه، ويتعرف وجوه الفرق بينه وبين مناوئه وعدوه « باديس» عند الموازنة بينهما كملكين متجاورين عاشا فى حروب ومنازعات.

ينظم فيمن يقع فى حبالتهن من أولئك الغيد الحسان أشعاراً تجمع الى الرقة والسلاسة اللذة والمتعة

فبين «باديس» إذن وبين «المعتضد» من البون الشاسع فى الفساد مايفصل بين الفاسد المتبربر الخشن، والفاسد المتحضر الظريف، ولكن مما يجب الاعتراف به هنا أن البربرى كان أقل من زميله فساداً وخبث نفس ، فقد كان «باديس» فى جرائمه وشناعاته على جانب من النزاهة والصراحة، بينا عينه المتفرسة الباحثة تتحسس الأفكار الخفية فى نفس غيره وتتبحثها لتكشف عن مكنوناتها، دون أن يظهر ذلك فى معارف وجهه ، أو نبرات صوته .

* * *

ولم يمت ملك «غرناطة» فى فراشه بل طاح فى ساحة القتال ، أما ملك «أشبيلية» فقد كان ــ على خوضه غمار كثير من المعارك والحروب ــ دونه شجاعة وبسالة لأنه لم يتول بنفسه قيادة الجيش فى هذه الحروب سوى مرة أو مرتين فى حياته ، وكان من دأبه أن يضع الخطط الحربية للمعارك . ويدع تنفيذها لقواده وهو منزو فى خبائه بعيداً عن خطوط القتال ، كما روى ذلك بعض مؤرخى العرب.

وكانت حيل «باديس» في النكاية بأعدائه جافة سقيمة[١]، مما يجعل

(١) يقول الفتح بن خاقان ، في كتابه قلائد العقيان ، ضمن فصل عرض فيه لذكر باديس والمعتضد مايلي بنصه وفصه :

ولما ثل عرش الخلافة وخوى نجمها ، ووهي ركن الإمامة وطمس رسمها وصار الملك دعوى ، وعادت العافية بلوى ، استنسر البغاث ، وصحت الأضغاث ، واستأسد الظبي في كناسه ، وثار كل أحد في ناسه ، وخلت المنابر من رقاتها ، وفقدت الجمع مقيمي أوقاتها ، وكان باديس بن حبوس بغرناطة عاثيا في فريقه ، عادلا عن سنن العدل وطريقه ، يجترئ على الله غير مراقب ، ويجرى الى ماشاء غير ملتفت للعواقب ، قدحجب سنانه لسانه ، وسبقت اساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولا شرب الماء إلا من قليب دم ، أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابتكر ، وما زال متقدا في مناحيه ، مفتقدا لنواحيه ، لايرام بريث ولاعجل ، ولا يبيت له جار الا على وجل ، الى ان وكل أمره الى أحد اليهود واستكفاه ، وجرى في ميدان لهوه حتى استوفاه ، وأمره أضيع من مصباح الصباح ، وهمه في غبوق واصطباح ، وبلاده مراد للفاتك ، وستره في يد الهاتك . فسقط الخبر على المعتضد بالله ملقح الحرب ، ومنتج الطعن والضرب ، الذى صاد الطير تحت أجنحة العقبان ، وأخذ الفريسة من فم الثعبان ، فسدد الى مالقة سهمه وسنانه ، ورد اليها طرفه وبنانه ، وصمم اليها تصميم سابور الى الحضر ، وعزم عليها عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على النضر ، ووجه اليها جيشه المتزاحم الأفواج، المتلاطم الأمواج، وعليه سيفه المستل ، وحتفه المحتل، ابنه «المعتمد» سهام الأعادى ، وحمام الأسد العادى ، فلما أطل عليها أعطته صفقتها ، وأمطته صهوتها ، الا قصبتها فانها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة لم يرضوا سفاحها ، ولا أمضوا نكاحها ، وفي أثناء امتناعهم ، وخلال مجادلتهم ودفاعهم ، طيروا الى باديس من

ذلك خبراً أصحاه من نشوته ، ولحاه عن صبوته ، فأخرج من حينه كتيبته التى كانت ترمى بالزبد ، ولا تنثنى عن القنا القصد ، وعليها ابن النابة قائد جنده ، وموري زنده ، وقد كان أشار على المعتمد برابره بتنفيس الممتنعين ولووه عن مساورتهم ، وتنوه عن مراوحتهم ومباكرتهم ، ومنعوه من نزالهم ، وأطمعوه فى استنزالهم ، وانما كان ذلك أبقى على الأقارب ، وأتقى على أولئك المغارب . فعدل عن انتهاز فرصتهم ، وابراء غصتهم ، الى الاستراحة من تعبه ، والاناخة على لهوه ولعبه ، وتفرق أصحابه فى ارتياد الفتيات ، وطراد اللذات ، فما أمسى إلا وقد غشيه ليلها ، وسال عليه سيلها ، وأصحابه بين صريع رحيق ، ومنادى من مكان سحيق ، فخاب سعيه ، وبال رأيه ، ونجا برأس طمرة ولجام ، وأوى الى أحد المعاقل أعرى من الحسام ، فحقد المعتضد عليه بتنفيسه لأهل القصبة ، واصاخته الى تلك العصبة ، وضربه بالعصى ، ونكله تنكيل القصى ، فكتب اليه :

«مولاى أشكو اليك داء — أصبح قلبى به جريحا
سخطك قد زادنى سقاما — فابعث إلى الرضا مسيحا »

فعفا عنه وصفح ، وعبق له عرف رضاه ونفح ، وقد كان قبل كتب إليه — حين أمره بالمقام بالموضع الذى نجا اليه مسجوناً — يسليه ، ويعرض له بالبربر ويستعطفه مما حصل فيه :

«سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر — ماذا يعيد عليك البث والحذر
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر — فلا مرد لما يأتى به القدر
وان تكن خيبة فى الدهر واحدة — فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
يافارسا تحذر الأبطال صولته — صن حد عبدك فهو الصارم الذكر
قد أخلفتنى صروف أنت تعلمها — وغال مورد آمالى بها كدر

يعس المخدوع منها فى لينها مايمس من ظهر الحية الرقطاء تحت أنيابها السم ناقع ، ولهذا كان يندر فشلها ، و يصعب إحباطها ، وجانب الدهاء وسعة الحيلة من الجوانب القوية فى المعتضد ، و يروون فى هذا الصدد حكاية يجدر بنا إيرادها ، وذلك أنه حدث فى الموقعة التى أوقعها المعتضد ضد بربر «قرمونة» أنه كان يتبادل مع رجل من عرب هذه المدينة رسائل سرية يقفه فيها على حركات وخطط البربر ، ولكيلا تضبط هذه الرسائل ، ولا يرتاب فيها أحد ، كان مضطرا لأن يتخذ كثيراً من الحيطة والحذر .

فالنفس جازعة ، والعين دامعة — والصوت منخفض ، والطرف منكسر
قد حلت لونا ومابالجسم من سقم — وشبت رأساً ولم يبلغنى الكبر
لم يأت عبدك ذنبا يستحق به — عتبا وهاهو قد ناداك يعتذر
ماالذنب الا على قوم ذوى دغل — وفي لهم عدلك المألوف اذ غدروا
قوم نصيحتهم غش ، وحبهم — بغض ، ونفعهم ان صرفوا ضرر
يميز البغض فى الألفاظ ان نطقوا — ويعرف الحقد فى الألحاظ ان نظروا »

***

الى آخر ماذكره فى هذا الفصل عن المعتمد وولديه المأمون والراضى ونزول المرابطين بقرطبة وزوال دولة آل عباد ، ورائية المعتمد هذه لأبيه المعتضد قد رواها الفتح ناقصة كما ترى ، وهى بتمامها مثبتة فى شعر الملكين من شرحنا ديوان ابن زيدون

ولكى يصل إلى غرضه من تبادل الرسائل مع جاسوسه ، كان قد اتفق معه على خطة معينة ، وبناء على تلك الخطة أشخص إلى قصره رجلا ساذجا طيب القلب من بدو « إشبيلية » ولما مثل بين يديه قال له : «اخلع رداءك هذا الخلق، والبس هذه الجبة الثمينة الجميلة التى أتركها لك هدية إذا قمت بتنفيذ ما آمرك به .» فارتدى الرجل الجبة وهو يفيض بشرا وسرورا ، ولم يدر أن فى بطانة جيبها قد خيطت رسالة من المعتضد إلى عينه بقرمونه ، وأظهر الرجل استعداده لأن يؤدى بدقة وأمانة كل الأوامر التى يكلفه بعملها ، فاستحسن المعتضد منه ذلك وقال : « أصخ بسمعك إذن لما آمرك به : عليك أن ترحل من الآن إلى قرمونة ، فإذا حللت بسيطها وكنت بظاهرها ، فلا تدخلها إلا بعد أن تجمع من الحطب حزمة تدخل بها المدينة وتعرضها فى السوق مع باعة الحطب ، ولكن عليك ألا تبيعها إلا لمن ينقدك فى ثمنها خمسة دراهم.» ومع جهل الرجل سرهذه الأوامر الغريبة بادر إلى الطاعة ، وغادر إشبيلية . ولما كان على مقربة من قرمونة أخذ يحتطب ، ولم يكن ذلك من عادته ، وقد يجمع المحتطب المتعود مقدارا كبيرا يستطيع جمعه ، إلا ان هناك فرقا بين حزمة صغيرة وأخرى كبيرة .

دخل الرجل المدينة يحمل مما جمعه من فروع الأشجار تلك الحزمة

الصغيرة ليبيعها فى السوق . فوقف على حزمتــه تلك أحد المــارة وسأله :

كم ثمن هذه الحزمة ؟

فأجابه البدوى : ثمنها خمسة دراهم كاملة غير منقوصة ، فإن شئت دفعت الثمن وأخذتها ، وإن شئت تركتها فأغرب الرجل فى الضحك وقال له :

«عجبا ، لعلك لاتشك فى آن حزمتك هذه من خشب الآبنوس »

وجاء آخر . فقال : «لا — بل هى من العود الهندى الذكى الرائحة»

وهكذا أخذ كل من وقف على سلعته الحقيرة وعرف مايطلبه ثمنا لها يمزح معه هازئا به ساخراً منه .

وبقى على حاله تلك فى السوق إلى أن مال ميزان النهار ، وآذنت الشمس بالمغيب ، فدنا منه حينئذ عين المعتضد يتظاهر بشراء حزمــة الحطب،واتفق معه على أن ينقده ثمنها إذا قبل أن يتبعه‌بها إلى منزله ، يحملها على كاهله ، فتبعه الرجل إلى منزله حتى وضعها هناك ، ولما أخذ الدراهم الخمسة ، قام يتأهب للعودة ، فقال له صاحب الدار :

لقد أمسيت فإلى أين تذهب الساعة ؟

فأجابه : إنى رجل غريب ، ولست من أهل المدينة . ولابد لى من العودة إلى اشبيلية ، فقال له

وهل ترى ذلك ممكنا الليـلة ، وهل تأمن عادية اللصوص في الطريق ؟ ؟ انزل هنا على الرحب والسعة ، وسأقدم لك طعام العشاء . ويمكنك أن تبكر بالسفر غـدوة إلى حيث تريد . فقبل منه الرجـل مااقترحه عليه ، وقابل تلك الحفاوة البالغة بالشكر والثناء ، وأنساه كرم الضيافة ، وطيب الأكل مالقيه بالنهار من سفه وسخرية ، وبعـد أن تناول طعام العشاء ، وفرغ من تلك الأكلة الشهية . أخـذ يسمر مع مصيفه إلى هزيع من الليل ، حيث دار بينهما هذا الحوار .

– الآن – أيها الضيف الـكريم – خبرني . من آى البلاد قدمت ، وما موطنك ؟ ؟

– قدمت من بسيط اشبيلية حيث المزارع . وحيث موطني الذى أقيم فيه هناك

– إنى أرى أنك – أيها الأخ – شجاع مقـدام جرئ لأنك استطعت أن تخاطر بنفسك وتصل إلى هنا ، وأنا أعلم مبلغ ماوصل إليه البربر من القسوة والوحشية ، هم بلا شك يسرعون الى قتلك ، ويرون ذلك أمرا سهلا ولابد أن يكون هناك من الأسباب القوية ماحملك على المجىء هنا ، والتعرض لأخطار الطريق

– ليس هناك من الأسباب القوية ماحفزنى على المجىء . ولست أظن أن أحـدا من الناس بالغا من القسوة مابلغ يتعرض لرجل أعزل

مثلى فى الطريق أو يصيبه بأذى .

وما زالا يتحدثان الى أن أثقل الكرى جفن الضيف ، فأخذه المضيف الى حيث المكان الذى أعده لنومه ، وهمّ الفلاح أن ينام دون أن يخلع جبته ، فقال له القرمونى :

يحسن أن تخلع جبتك كى تنام مطمئنا ، وتستيقظ مستريحا ، لآن هذه الليلة دافئة حسنة الطقس كما ترى .

فعمل الفلاح بإشارته ، وسرعان مااستغرق فى نوم عميق ، ولما أيقن أنه لايشعر بحركته تناول جبته وحل بطانتها ، وفيها رسالة المعتضد فأخذها وقرأها ، وكتب جواب الرسالة سريعا ، ووضعه فى نفس المكان وخاطه كما كان .

واستيقظ الفلاح فى صبيحة تلك الليلة مبكراً . وبعد أن ودع مضيفه وشكر له كرمه وحسن ضيافته عاد أدراجه راحلا الى اشبيلية ، ولما ألقى بها عصا التسيار استأذن على المعتضد ومثل بين يديه ، وقص عليه نبأ رحلته فغمره بلطفه ، وجميل رعايته ، وقال انى من عملك هذا لمسرور ، وأرى أنك تستحق عليه جائزة سنية ، وأمر أن يلقى ماعليه من وعثاء السفر ، وأن يخلع جبته هذه ، ويكسى عوضها حلة كاملة ، فأحس من أعماق نفسه بسرور وارتياح ، وأخذ الثياب الجديدة وترك جبته التى هى محور الرواية وخرج من القصر منزهوا يروى ماوقع له مع الملك

لأهله وجيرانه ومعارفه ، ويذكر لهم مااختصه به الملك من عطف وصلة وما أجازه به من كسوة ملكية من كسى التشريف التى لاتمنح الالرجال الدولة وذوى الشأن وأرباب المناصب ولم يقف على سبب هذا العطف الملكى ، ولم يدر أنه استخدم من حيث لايشعر جاسوساً وبريداً من برد الحرب يحمل الى بلاد الأعداء رسالة فيها أنباء خطيرة كانت تودى بحياته لو أن البربر عثروا عليها، ولكنه لم تحم حوله أية ريبة .

كان المعتضد عظيم الدهاء واسع الحيلة ، فى كل مايدخل فى باب الحيل والخدع السياسية وفى متناول يده الأشراك والفخاخ التى ينصبها لاقتناص من يريد الإيقاع به ، والويل لمن يثير كامن غضبه ، ولو أن إنساناً أحفظه ومضى سريعاً ليختفى فى الجانب الشرقى من المعمور لأدركه انتقام هذا الملك ، ويقال إنه استصفى أموال رجل مكفوف البصر ، وأخذ معظمها ، ونفد مابقى منها فى يد الرجل فخرج إلى مكة حاجا يتكفف الناس،وهناك فى الحرم أخذ يدعو على ذلك الملك الظالم ويسبه ويلعنه حيث أفضى به ظلمه إلى ذل المسألة وذل الاغتراب . فاتصل بالمعتضد خبره وأنه يدعو عليه ويشهّر به ، فاستدعى رجلا اشبيليا من رعيته كان قد أزمع الرحلة الى مكة لأداء فريضة الحج ، وأحضر علبة فيها دنانير مسمومة ، وقال له : «إذا وصلت إلى مكة ورأيت

الإشبيلى الضرير ، فصله بهـذه العطية واقرئه منى السلام وحذار أن تفتحها .» فصدع الرجل بالأمر ، ولما وصل إلى مكة تفقد الضرير حتى عرفه ، وأعطاه العلبة ، وقال : « هذه هدية المعتضد إليك . » فسمع وسوسة مابداخلها من الدنانير فطار لبه ، وقال :

« ياعجبا ! كيف يفقرنى المعتضد باشبيلية أمس ، ويغنينى بالحجاز اليوم ؟ »

فأجابه الرجل : « لعله تذكر ماتحيفك به من الظلم ، فضميره الآن يخزه ويؤنبه ، وعلى كل حال فإنما أنا رسول ومبلغ وقد قمت بما عهد به إلى خير قيام ، ومن حقك وحسن حظك أن تقبل هذه الهدية الثمينة التى لم تكن تحلم بها ، والتى فيها غناك وسعادتك . »

* * *

فاقتنع الضرير وبالغ فى شكره ، وحمّله شكره وولاءه للملك إذا هو عاد إلى إشبيلية ، ثم أخـذ العلبة ووضعها بين ذراعه وخاصرته ، وخف مسرعا إلى كوخه يهرول بقدر ماتسمح به حالة مكفوف ضرير ، ودخل كوخه ذلك الحقير وهو بين مصدق ومكذب ، وأحكم إرتاج الباب ، وفتح العلبة وأفرغ منها كومة ذهب من دنانير ، ولا تسل عن ذلك الأعمى وقد طفح قلبه بشراً وسروراً ، حين وجد الفرصة السعيدة تواتيه بالثروة والغنى فجأة ، بعـد أن عاكسه الدهر ، وعانى من الفقر الأمرين ، أخذ يقلب بين يديه تلك الدنانير البراقة ، ولو أن عينيه لم

تكونا مقفلتين بحكم العمى لشعر بتمام اللذة ، على أن حاستى اللمس والسمع قد عوضتا عليه مافاته من تلك المتعة واللذة ، فقد كان يقبض تلك الدنانير بأصابعه ويملأ بها راحتيه ، ويتحسسها بأنامله ، ويتسمع رنينها بأذنه ، ويلهو بعدها المرة بعد المرة ، وقد غمرته اللذة ، وعمه السرور ، وذهبت به الأمانى والأحلام كل مذهب ، إلى أن فعل السم به فعله ، وسرى فى جسمه سريان الحمى فى المحموم ، ولم يرخ الليل سدوله على هذا المسكين الذى أوقعه القضاء فى حبالة المعتضد حتى أمسى بفعل السم جثة هامدة .

* * *

إذن فباديس والمعتضد كلاهما قاس شديد البأس ، وإن كانت قسوتهما ترى بألوان مختلفة ، فباديس فى ثورة غضبه يقتل بيده ضحاياه ، والمعتضد فى أحوال نادرة يتعدى على وظيفة جلاده ، وتحت تأثير غضبه وحنقه الشديدين اللذين بز فيهما صاحبه يسمح ليديه الاستقراطيتين على كره منه أن تتلطخا بالدم ، أما باديس فلم يكن يتطلب لشفاء نفسه أزيد من انغماس يده فى دم عدوه ، ومن دأبه بعد ذلك أن يعلق رأس القتيل على رمح ليطاف به فى المدينة ، وبهذا تبرد غلته . وأمير اشبيلية على عكسه فإن غضبه من عدوه لايشفيه مجرد القتل ، فهو يتتبعه إلى مابعد الموت ، وما كان يتوقف لحظة عن إثارة أشلاء

قتلاه و إخراجها من عيابها وصناديقها المقفلة إرضاء لنزعاته الوحشية .

وكان يضع ـ أسوة بالخليفة المهدى [١] ـ جماجم أعدائه على نصب من الخشب إلى جانب الأزهار بحديقة فى قصره ، ويعلق فى أذن كل جمجمة بطاقة يكتب عليها اسم صاحبها ، وكانت تلك الحديقة المثمرة برءوس القتلى ، تبعث فى نفسه السرور والانشراح كلما رآها أمامه ، وكثيرا ما كان يصرح بذلك فى أقواله ، على أنه لم يكن بين تلك الرءوس التى هى قرة عينيه رءوس من فتك بهم من أعدائه الأمراء ، لأنه كان يحفظ رءوس أولئك فى صناديق مقفله قد أودعها فى مكان بعيد من القصر .

وتقول : « إن مما يبعث على الدهشة أن ذلك المارد الوحشى القاسى كان يعتبر نفسه الأمير الخير بين الأمراء ، ويرى أنه مثل «طيطوس» الذى كون تكوينا خاصا ليكون على يديه سعادة الجنس البشرى ، وكان مما يقوله فى شعره هذه العبارات :

إن إرادة مولاى القدير لو اقتضت أن يمتد سلطانى على جميع الأحزاب المختلفة من العرب والبربر والصقالبة لخيمت السعادة على ربوع الأندلس ، و إن مما يقوى عندى الأمل فى سعادة الناس وعزهم

---

(١) هكذا يشبهه دوزى على حين يروى صاحب كتاب المعجب أن المعتضد كان الناس يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس (ارجع الى هامش صفحة ٩٨)

وطمأنينتهم ، أنى لا أزال أسلك معهم سبيل الجادة ، وأنى لم أنحرف قط عن الصراط السوى ، وما عاملت أحدا من رعاياى إلا بما يوجبه على كرم عنصرى وشرف نفسى وعلو همتى ، من رعاية العدل وحب الإنصاف ، ولست أنفك أدفع عنهم شر المعتدين ، وغائلة المفسدين ، وأزيل أسباب المصائب التى تنزل بساحتهم ، وتنصب فوق رءوسهم .

الفصل السادس

بعد أن قضى «المعتضد» على حياة «حبيب» وزير أبيه ومشاوره في الحكم ، وأصبح منفرداً وحده لامنازع له ولا مشاور ، وجه عسكره إلى البربر ، وبدأ بجيرانه بربر « قرمونة » وكانت تعتاده هواجس نفسية ، ويجسم عنده الوهم أنه إذا لم يكن على قدم الاستعداد والأهبة لمباغتة أعدائه والقضاء عليهم ، فإنهم – بلاشك – قد عقدوا النية ، ووطنوا أنفسهم على الإيقاع به ، وانتزاع المملكة منه ومن عقبه ، وكان بعض المنجمين قدتنبأ بأن جيلا من الناس سيولد خارج مملكته يكون على يده انتزاعها من أيدى بنى عباد ، وهذه الظنون التى كانت تذهب به كل مذهب مابرحت تجعله يحاول أن يوقع بالبربر كلما أمكنته الفرصة ليبيد خضراءهم ، ويستأصل جرثومتهم ، وقد استمرت هذه الوقائع والحروب مدة طويلة قتل خلالها « محمد » أمير قرمونة ، حيث خدع واجتذب إلى كمين وقع فيه (١٠٤٢ – ١٠٤٣) وكان من نتائجها اتساع المملكة فى الجهة الغربية

وفى سنة (١٠٤٤) قهر ابن طيفور[1] واستولى على «مرتوله[2]»

---

(١) هو أمير « مرتولة » حليف « محمد بن الأفطس » وقد هزما معا فى حرب « أشبيلية حوالى عام ١٠٣٠ م .

(٢) هى مدينة على نهر الوادى اليانع انتزعها المعتضد من ابن طيفور عام ١٠٤٤ م.

ثم هاجم بعده ابن يحيى أمير « لبلة » ولم يكن هذا الأخير من البربر بل كان عربيا ، ومادام المعتضد يريد أن تتسع رقعة مملكته ، فليس يقفه عن قصده أى شئ ، ولما ضيق الخناق على ابن يحيى(١) استنجد بالمظفر صاحب « بطليوس » فتقدم لمعونته فصده المعتضد فلجأ إلى بربر «غرناطة» وأنشأ يؤلف ضدالمعتضد حلفًا قويًا انضم إليه « باديس» و« محمد » أمير « مالقة » و « محمد » امير الجزيرة الخضراء ، وحدث على أثر ذلك أن أبا الوليد بن جهور الذى خلف أباه كرئيس لجمهورية قرطبة سنة (١٠٤٣) بذل كل مافى وسعه للتوفيق والصلح بين الفريقين فلم يفلح ، وذهب سعيه عبثاً ، ولم يستمع لرسله الذين أرسلهم لإصلاح ذات البين أحد .

وأعد الحلفاء من البربر خطة الزحف على إشبيلية ريثما يجمعون شتات جيوشهم ويتصل بعضهم ببعض ، وعرف «المعتضد» ذلك فانتهز فرصة وجود « المظفر » فى منطقة نفوذه بعيداً عن حلفائه بحيث لايستطيع الدفاع عن نفسه وبلاده ، فعمد —أول الأمر— إلى تخريب كورة « بَطَلْيوس » ثم سار مخالفًا عادته على رأس جيشه،وزحف على «لبلة» وهجم أعداءه فى مضيق على مقربة من أبواب المدينة، ورد فريقًا منهم

(١) هو أمير « نيبلا » وهو عربى الجنس وقد حاربه المعتضد رغبة فى الاستيلاء على مدينته فستعان ابن يحيى بالبربر فنصروه وردوا « المعتضد » عما أراد .

إلى « الأحمر » ، ولكن المظفر وفق لجمع رجاله ، وحمل بهم حملة صادقة اضطرت المعتضد أن يتقهقر نحو إشبيلية وتمكن المظفر حينئذ أن ينضم إلى حلفائه .

ولكن بينما هو يوقع التخريب فى البلاد التابعة لإشبيلية خرج ابن يحيى من حلف هؤلاء ، وانضم إلى المعتضد ودخل فى حلفه — على كره منه — وقد عاقبه المظفر بالاستيلاء على أمواله التى كانت مودعة عنده ، وأعمل السلب والنهب فى كورة «لَبْلَة[١]» فاستصرخ ابن يحيى بالمعتضد إشفاقاً على بلاده من التخريب والتدمير ، فعمد هذا إلى إرسال جنوده لمقاتلة جند بطليوس ، فاستدرجوهم إلى كمين وتمت الهزيمة على عسكر بطليوس ، فاضطروا إلى التقهقر ، ولم يقتنع بهذا الانتصار بل عمد إلى تخريب جهات « يابره » بواسطة ابنه إسماعيل ، ولكن أمير « بَطَلْيوْس » أمر أن يتقلد السلاح كل من يستطيع القتال من الرعية ، وبذلك تمكن من صد هجمات جيوش إشبيلية ، ولما اتصلت به الإمدادات من « إسحق » أمير « قرمونة » سير رجاله لمنازلة العدو ، وعبثاً حاول بربر « قرمونة » أن يقنعوه بالعدول عن عزمه الذى صمم عليه بدافع الغرور والجهل بقوة عدوه ، ومما قالوه له :

« إنك — بلا شك — لاتقدر جيش إشبيلية قدره ، وتجهل وفرة

---

(١) لبلة : مدينة فى جنوب الأندلس تقع بين نهرى الوادى الكبير والوادى اليانع .

عدده ، ونحن أعرف منك بذلك ، فقد وصلت إلينا أنباؤه فضلا عن أننا رأيناه رأى العين ، و وقفنا على مافيه من عدد وعدة . » ولكن تحمس المظفر وحدة طبعه،أبيا عليه أن يعمل بمشورة ناصحيه، أو يصدق لهم قولا ، ومضى فى سبيله بدافع الجرأة التى كلفته ثمناً باهظاً ، فقد حلت به الهزيمة وتقهقر تاركاً ثلاثة آلاف قتيل على أقل تقدير ، وكان من بين من قتل فى هذه المعركة ابن أمير «قرمونة» الذى كان يتولى قيادة جيش أبيه ، وقد حملت رأسه إلى المعتضد ، فوضعها فى صندوق مع رأس جد هذا الأمير الشاب.

* * *

بعد هذه المعركة المشئومة ظهرت « بَطَلْيَوْس » مدة طويلة فى مظهر مزعج ، ومنظر مخيف، تستوحش منه النفس ، و ينقبض له الصدر ، إذ دامت حوانيتها مقفلة ، وأسواقها مقفرة ، بعد أن قتل فى هذه المعركة المستأصلة صفوة أهلها ، ومما زاد الحالة سوءاً و بلاء أن الإشبيليين إبان المعركة أتلفوا المزارع ودمروا الحصاد ، فأناخت المجاعة بكلكلها على أنحاء المملكة ، ولم يستطع « المظفر » عمل شئ بإزاء هذه الكارثة المجتاحة . وتخلى عنه حلفاؤه بعد أن حاول عبثاً أن يستعين بهم على تخفيف هذه النازلة التى حلت ببلاده ، وظل ساكناً ببطليوس يحرق الأرّم، وتتأكل نفسه غيظاً وندماً.

ومع ماهو واقع فيه من سوء الحالة وتحرجها لم يشأ أن ينزل عن عزة

نفسه و إبائها، ويقبل صلحاً شريفا بواسطة ابن جهور ، بينا عدوه الظافر قد أظهر تمام الاستعداد لقبول هذا الصلح .

ولم يكتف بهذا بل تظاهر أنه غير مكترث لما أصابه من خسارة ، ولحق ببلاده من أزمة ومجاعة ، وبدافع هذا التظاهر الـكاذب أرسل إلى « قرطبة » فى طلب قينات – وكن فى ذلك الحين نادرات – و بعد عناء البحث اشتريت له اثنتان لم تـكونا على جانب من الحسن والبراعة فى الغناء . ودهش الناس لركون « المظفر » إلى اللهو والخلاعة ، وهو المعروف بالجد والوقار ، والبعد عن العبث وسماع القينات ، ولم يدرك القوم كيف أنه يركن إلى اللهو فى هذا الوقت الذى تظهر فيه بلاده بمظهر الخراب والاضمحلال ، ولـكنهم أدركوا السر فى هذا السلوك الغامض حين علموا أن المظفر يريد أن يظهر لخصمه أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يبيع أشياء مملوكة له ، كذلك يستطيع –وهو مرتاح الخاطر– أن يشترى مغنيات يلهو بهن .

و بالرغم من هـــذا كله فقد واصل ابن جهور جهوده للتوفيق بين الخصمين و إبرام صلح شريف عاجل بينهما، وفى شهر يولية سنة ١٠٥١ كللت جهوده بالنجاح ، وتم بوساطته – بعد مفاوضات طويلة – عقد صلح بين المظفر والمعتضد .

وحينئذ وجه المعتضد جميع قواته إلى « ابن يحيى » أمير « لبلة »

الذى انفصل عن حلفائه وعاد وحيداً دونهم ، ولم تكن هــذه الحملة حربًا . بل كانت بمثابة نزهة حربية ، ولم يحاول « ابن يحيى » — لضعفه عن المقاومة — أن يدافع حتى عن نفسه، بل تحول إلى «قرطبة» ، وعول على أن يقضى بها سائر أيام حياته ، وقد عطف عليه «المعتضد» وأرسل ثلة من فرسانه كحرس له فى الطريق .

وأدرك الأمير الذى كان باسطاً حكمه على « ولبه » وعلى جزيرة « سالطس[1] » الصغيرة ، وهو أبو عبيد عبــدالعزيز البكرى صاحب كتاب المسالك والممالك أنه قد حان وقته، وجاء دوره ، ومع هذا فقد كان يؤمل أن ينقذ من الغرق ما يمكن إنقاذه ، فكتب يهنئ المعتضد بانتصاره الجديد ، ويطلب إليه أن يدخل فى حلفه ، ويكون تبعًا له ، وأن يتنازل له عن «ولبة» فى مقابل أن يترك له «سالطس» ويشرح العلاقات الودية التى كانت بين أسرته وبين أسرة آل عباد ، فقبــل المعتضد ما تقدم به إليه ، وتظاهر بأنه يريد مقابلته ، والإفضاء إليه بحديث هام فسافر إلى « ولبة » ولــكن عبد العزيز رأى من الحــكمة وصواب الرأى ألا يكون فى انتظاره وأن يتحول عنها إلى « سالطس » وجاء المعتضد فوضع يده على «ولبة» وقفل عائداً إلى إشبيلية ، وترك هنالك ثقة من رجاله يحول دون أن يبرح عبدالعزيز جزيرته ، أو ينتقل أحد إليه

(١) سالطس : جزيرة صغيرة .

ولما عرف عبد العزيز ماوصلت اليه حاله ، لاذ بالحكمة ، وشرع يفاوض عامل المعتضد على « ولبة » يطلب السماح له بالسفر إلى « قرطبة » ، وباع سفنه وذخائره الحربية للأمير الأشبيلى مقابل عشرة آلاف دوكا .

وقد أراد المعتضد أن يخونه ويستدرجه إبان سفره ليوقعه فى الشرك كى يستولى على أمواله .

ولكن عبد العزيز فطن إلى قصده ، وتمكن بواسطة حراس طلبهم من أمير « قرمونة » أن يصل إلى « قرطبة » دون أن يصيبه فى طريقه مكروه .

ثم هاجم « المعتضد » بعد ذلك ولاية « شلب » الصغيرة ، حيث كان يلى الحكم فيها العرب من «بنى مزين» وهم الذين كان أجدادهم يملكون الجهات الممتدة فى هذا الإقليم ، وقد تولوا فى عهد الأمويين المراكز المهمة ، واستمات أمير « شلب » فى الدفاع عن نفسه بكل إقدام وشجاعة ، وقد صحت عزيمته على ألا يسلم أو يموت ، ولكن جيش إشبيلية الذى كان يقوده محمد « المعتمد » قيادة اسمية فقط لبلوغه الثالثة عشرة من عمره بالغ فى تضييق الحصار على « شلب » إلى أن استولى عليها عنوة . وكان ابن مزين اعتزم أن يفتك بأكبر رأس فى الجيش ، إلا أن المعتضد بعد أن تمكن منه وهب له حياته واكتفى بنفيه . وبعد أن تم الأمر بالاستيلاء على « شلب » أصدر أمره

بالزحف على «شَنْتَمَرِيَّة» القريبة من الرأس الذى يسمى إلى اليوم بهذا الاسم ، وهى كورة كان الخليفة « سليمان » أعطاها لسعيد بن هارون ، وكان مجهول النسب لايعرف أكان من العرب أم من البربر ، والرجال المجهول أصلهم فى العادة يكونون من الإسبانيين، سكان البلاد الأصليين. بقيت هذه الجهة مع سعيد هذا إلى أن انتقل سليمان إلى جوار ربه ، فاستقل بها ، ثم خلفه عليها بعد وفاته ابنه « محمد » ، وحين دهمه عسكر إشبيلية لم تكن منه إلا مقاومة قصيرة المدى، ولما تم للمعتضد أخذ هذه الكورة ، ضمها إلى « شلب » وأراد أن يلى الحكم فيها ابنه « محمد » (١٠٥٢)

وبهذه الانتصارات السريعة اتسعت إمارة إشبيلية فى الجهة الغربية من جزيرة الأندلس ، أما الجهة الجنوبية فلم تكن قد اتسعت بعد ؛ لأن أمراء الجنوب من البربر كانوا — فى ذلك الحين — مسالمين للمعتضد فى الغالب ، معترفين بسيادته أو مقرين بخلافة هشام الثانى .

* * *

لم يقنع المعتضد بما أصاب من فتوحات اتسعت بها رقعة مملكته ، وعد ما تم له من ذلك قليلا بالنسبة لما يطمح إليه ، فسرت إلى نفسه فكرة قتل أولئك الأمراء ، والاستيلاء على ولاياتهم ، ولكى يكون نجاح أعماله السرية محققا رأى أن يسلك سبيل الاعتدال والحذر حتى لايطوّح بنفسه فى محاولة جريئة ، فذهب بعد غزوة « شلب » مع

اثنين من الخدم لزيارة أميرين من أتباعه ، وهما « ابن نوح » أمير بنى مرين و « ابن أبى قرة » أمير « رنده » دون أن يعلنهما أنه آت لزيارتهما ، وإن مما يبعث على الدهشة أن يلقى المعتضد بنفسه بين مخالب هؤلاء ، ويضع نفسه بدون تبصر تحت رحمتهم وهو يعلم مايكنه له أولئك البربر من عداوة وحقد . والواقع أن المعتضد –فى مثل هذه المواقف– لاتنقصه الجرأة والإقدام، وهو على الرغم من خيانته ومخاتلته للجميع،واثق من حسن نيات وتقدير الغير له،فقد قوبل عند بنى مرين بكل حفاوة وتجلة ، وأعرب له ابن نوح عن فرط سروره وغبطته بما هيأت له الظروف السعيدة من هذه الزيارة التى جاءت على غير انتظار ، وأولم له وليمة فاخرة ، و بالغ فى إكرام وفادته ، وحقق له من جديد أنه سيكون له التابع الوفى المخلص على الدوام ، ولكن المعتضد لم يقدم على هذه الزيارة لسماع التحايا ، وألفاظ التكريم والحب والولاء ، بل كان يرمى إلى غرض آخر ، وهو جس النبض ليعرف هل يستطيع أن يكسب إلى جانبه بعض أفراد من ذوى النفوذ والجاه ؟ إذ قد لاحظ أن العرب يميلون من أعماق صدورهم إلى التخلص من نير البربر ، وأنه لايستطيع التعويل عليهم عند سنوح الفرصة .

وبفضل ما كان يحمله خادماه من الهدايا والتحف والأحجار الكريمة استطاع أن يرشو كثيرين من رجال البربر ، دون أن

يداخل ابن نوح أدنى ريب فى دسائسه .

و بعد أن سر المعتضد كثيراً من نتائج هذه الزيارة ، استأنف سفره إلى « رُندة » فقوبل فيها بمثل ماقوبل به هناك من الإجلال والترحيب، ونجحت حيله السرية ، وأعماله الخفية فيها كثيراً ، لأن العرب هنا كانوا أكثر تذمراً من زملائهم بنى مرين ، وأشد رغبة فى التحرر من حكم البربر .

والظاهر أن بنى قره كانوا أصلب عوداً وأكثر جرأة من بنى نوح ، فقد دبروا للمعتضد مؤامرة رهيبة يكون انفجارها بمجرد الإشارة ، ومن الاتفاق الغريب أن تسلم حياته وهى معرضة للخطر فى سبيل إنفاذ مشروعه الخطر الجرئ ،فقد حدث مرة أن تناول معهم الطعام،وأخذوا يحتسون النبيذ وأحس هو - خلال ذلك - بميله إلى الراحة والرقاد . فقال للأمير : «انى أشعر بتعب،وأحس بحاجة إلى النوم ، فخذوا أنتم فى حديثكم ، وامضوا فى شرابكم ، ريثما أستريح برهة ، وآخذ حظا قليلا من النوم ، ثم أعود فآخذ مجلسى معكم حول المائدة ، فأجيب إلى طلبه وأعدت له وسائل الراحة ، و بعد لحظة كان فيها متناوما مظهراً أنه فى سبات عميق ، طلب بعض رجال البربر من الجالسين أن يصغوا لحظة إلى حديث خطير يريد أن يفضى به اليهم ، فصمت الجميع ، وقال الرجل بصوت خافت: «يظهر أن عندنا كبشاً سميناً قد مد صفحته للسكين

المشحوذة ، وقد واتانا حظ سعيد كنا بعيدين عن إدراكه ، ولو أننا بذلنا فى سبيل هذه الفرصة مافى الأندلس من ذهب لم يجد ذلك شيئاً، بينما ذلك الطاغية قد حضر بنفسه وأمكنكم من مقاتله ، أنتم تعلمون جميعاً أن ذلك الرجل هو الشيطان بعينه ، فإذا ماقضينا على حياته ، لم ينازعنا أحد السلطة فى هذه البلاد »

* * *

ولاذ الجميع بالصمت ، وأخذوا يتبادلون الإشارة باللحظ ، ولا خفاء أن فكرة قتل ذلك الشيطان الذى يمقتونه ويزدرونه ، ويعرفون طرقه الملتوية المتعرجة ، تقابل بسرور وابتسام من أولئك الرجال الذين مرنوا على القسوة،وشبوا –منذ نعومة أظفارهم– على القتل وسفك الدماء، لذلك لم تبد على وجوههم علامات الدهشة ، ولم تلح عليها أمارات الاستنكار والاشمئزاز ، وكان من بين هؤلاء جميعاً رجل واحد معتدل المزاج والتفكير قد غلا فى رأسه الدم لهذه الفكرة الخاطئة ، والخيانة الدنيئة ، ذلك الرجل هو « معاذ بن أبى قرة » أحد أقارب أمير « رندة » فقد تطاير من عينه الشرر، وأظهر امتعاضاًواشمئزازاً واحتقارا لفكرتهم هذه المنافية للمروءة وكرم الضيافة ، ورد عليهم فى تؤدة وثبات بصوت متهدج يغض منه ويخفضه قليلا قائلا: «إياكم أيها القوم أن ترتكبوا هذه الفعلة الشنعاء ، إن هذا الأمير بزيارته لنا ومجيئه

عندنا ، قد وثق بنا وأمن جانبنا واعتمد على إخلاصنا ووفائنا له . ومسلكه هذا يدل على أنه يقطع بأنا غير أهل لأن نخونه ، أو نخفر ذمته ، ولدينا من الشرف وطيب العنصر مايدعونا لأن نحقق ظنه فينا ، وثقته بنا . وبماذا تتحدث عنا القبائل غداً إذا علموا أننا وطئنا بأقدامنا قداسة حقوق الضيافة ، فقتلنا ضيفنا ؟ ففكروا أيها القوم مليًّا ، وثوبوا إلى رشدكم ، ولعنة الله على من يهم بارتكاب هذه الجريمة »

* * *

وقد ترك هذا الكلام فى نفوس البربر أثراً عميقاً . وحرك ماردده عليهم من واجب الضيافة –فى قلوبهم– وترا حساسا ، يندر أن يتنبه عند أمثال أولئك الطغام من شعوب إفريقية

وقد مثلوا هذا الفصل ، والمعتضد فى يقظة تامة – وإن كان متناوما – وقد سمع كل مادار بينهم من الحديث ، ولما حمد الأثر الذى أحدثه كلام «معاذ» فى نفوس الآخرين ، واطمأن إلى النتيجة، تظاهر بأنه بدأ يستيقظ، ومضى سريعاً إلى السماط. فوقف الجميع وعانقوه وقبلوه قبلا مقرونة بالاحترام وإظهار المودة والعطف . وكانت حركاتهم تدل على أن ضمائرهم لم تكن مرتاحة لما هموا به ، وأنهم ينطوون على سر مهانتهم من تلك اللحظة التى فكروا فيها بالغدر بضيفهم . ثم تكلم المعتضد فقال :

«يجب -أيها الأصدقاء- أن أتعجل العودة إلى «إشبيلية» ولا يفوتني أن أشكر لكم حفاوتكم ، وأذكر لكم مبلغ سروري بحسن مقابلتكم لي وترحيبكم بي . وكان يجمل بي أن أقدم لكم بعض هدايا نفيسة تكون عنوانًا على اعترافي بفضلكم وتقديري لكرمكم ، ولكني آسف جد الأسف لأن الهدايا -التي كان يحملها خادماي- قد نفِدت أو كادت ، ولا بأس من إحضار دواة وقرطاس ، وليمل على كل منكم اسمه ، وما تميل إليه نفسه من كسى تشريف أو صرر نقود أو جوار أو عبيد أو غير ذلك -مما يدخل في باب التحف وسني الهدايا- وليرسل إليَّ عند استقراري بعاصمة مملكتي ليأخذ ما يخصه من نفيس تلك الهدايا».

ولما استقر بحضرة ملكه جاءته رسلهم تترى ، وعادوا محملين بصنوف الهدايا الثمينة ، والحلل الفاخرة ، وبذلك توثقت الروابط المتينة ، والعلائق الحسنة بين المعتضد والبربر ، وتنوسيت الأحقاد والإحن القديمة ، وحل محلها الوداد والوئام والصفاء والسلام .

* * *

ومضت على ذلك ستة أشهر دعا « المعتضد » بعد انقضائها أمير « رندة » و «ابن مرين» إلى مأدبة فاخرة أدبها لهما ، زعم أنها اعتراف منه بجميل إكرامهما وحسن استقبالهما له ، وكذلك دعا من البربر ابن خزرون ، وأميري « أركش » و « شريش » ، فبادر الأمراء ثلاثتهم

إلى إجابة الدعوة ، ووصلوا إلى إشبيلية (١٠٥٣) فاستقبلهم المعتضد بحفاوة بالغة ، وأعد لهم أسباب النعيم والراحة . وبعد أن ألقوا عنهم وعثاء السفر، دعاهم وأكابر أتباعهم إلى الاستحمام بحمامه ، وانتحل سبباً لابقاء «معاذ» الشاب معه،وكانوا نحو ستين من البربر دخلوا الحمام الذى أعد لاستحمامهم ، وبعد أن تجردوا من ملابسهم فى الباب الأول ، تطرقوا إلى باب الحمام نفسه وهو مماثل لما يوجد الآن من نظائره فى البلاد الإسلامية ، مغطاة أرضه وجدرانه بالرخام الملون ، مكسوّة قبابه بأنصاف كرات جوفاء من زجاج غير صقيل لإرسال الضوء إلى أسفل ، فى وسطه نافورة تمج الماء إلى أعلى ، وفى جوانبه مغاطس مملوءة بالماء الساخن ، وصنابير بارزة فى الجدران ، بعضها يصب منه ماء بارد ، وبعضها متصل بمرجل الحمام يصب منه ماء ساخن قد وصل إلى درجة الغليان .

وبينما المستحمون يلتذون بهذا النعيم الذى هيأ لهم أسبابه المعتضد إذ شعروا بحركة خفيفة غير عادية ظنوها حركة بَنّائين أو وقادين منصرفين إلى عملهم ، فلم يعيروها اهتمامهم ـ لأول وهلة ـ ثم صارت الحرارة بعد برهة قليلة تتزايد إلى أن شعروا بالدوار وأحسوا بالضيق ، فتلمسوا الباب يفتحونه ، فوجدوه محكم الإرتاج وكأنما بنى عليهم من خلف ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى ماتوا جميعاً نتيجة الاختناق .

ومكث « معاذ » طويلا يترقب عودة الأمراء والصحب ثم انتهى به الأمر إلى القلق والضجر ، ثم تجاسر فسأل «المعتضد» عن السبب الذى من أجله تأخروا هكذا مدة طويلة ، فأفضى اليه المعتضد بالسبب وصرح له – وقد اربد وجهه ، وشاع فيه الغضب – بقوله : «لاخوف عليك ، أما أولئك الخونة من أهلك وعشيرتك فقد استأهلوا العقاب ، واستحقوا ماحل بهم من هلاكهم خنقا فى الحمام لتآمرهم على قتلى حين كنت بضيافتهم . وثق أننى كنت متناوما إبان تآمرهم على قتلى ، وقد سمعت كل مادار بينهم من الحديث فى هـذا الموضوع الخطير ، كما استحسنت كلامك فى هذا الصدد ، ولست أنسى ماحييت ما أنا مدين لك به من هذا الجميل الذى طوقتنى به ، وأنت مخير الآن بين البقاء هنا حيث أقاسمك جميع ما أملك – إن شئت – وبين العودة إلى وطنك ، وإذا اخترت العودة ورغبت فى الإقامة برندة ، فلك منى أن أغمرك بسنىّ الجوائز ونفيس الهدايا .»

فقال معاذ بصوت يشف عن حزن عميق: «وكيف العودة –يامولاى– إلى الوطن ؛ وكل ما فيه يمثل لى ذكرى من فقدتهم؟» فقال المعتضد : «عليك إذن أن تقيم بإشبيلية آمنًا لاتخاف شيئًا.» وكلف بعض رجال حاشيته أن يعمل على إعداد قصر لإقامة « معاذ » وأمر له بألف قطعة من الذهب نقدا، وعشرة من صافنات الجياد ، وثلاثين جارية، ومايقرب

من هذا العدد من العبيد ، ثم توجه إليه بقوله : «وسأمنحك فوق هذا عشرة آلاف دوكا مرتبًا سنويًا.»

* * *

وبقى معاذ بإشبيلية ، وهو محل عناية المعتضد وعطفه ، فكان يبعث إليه كل يوم بهدايا غالية نفيسة بالغة فى الإبداع ، يندر أن توجد إلا فى خزائن الملوك ، وكان فى غالب الأحيان التى يجتمع فيها بوزرائه ومشيريه للاستشارة فى أعمال الدولة . يجعل لهذا الذى أنقذ حياته المكان الأول فى الشورى والرأى.

* * *

وبعد أن انتهى المعتضد من تمثيل هذا الدور ووضع رءوس القتلى فى صندوق بين رءوس ضحاياه التى كان يتمتع بإلقاء نظرات السرور عليها ، أرسل جيشًا للاستيلاء على «بنى مرين» و«أركش» و«شريش» وجهات أخرى . وقد نجح الجيش فى مهمته من غير أن يعانى صعوبة بفضل مساعدة أهل تلك الجهات من العرب ، والخونة الذين اشتراهم المعتضد بالمال . إلا أن الاستيلاء على «رُندة» حيث خلف « أبو النصر » أباه فيها لم يكن من السهل ، فقد كلف جيش المعتضد جهداً وعناء أكثر من غيرها ، لأنها كانت قائمة على ربوة جبل شاهق تحيط بها وهاد

وطرق وعرة تجعل الوصول إليها صعبًا .

ولكن حدث أن العرب ثاروا على البربر وتحمسوا لقتالهم وأعملوا فيهم سيوفهم. وحاول « أبو النصر » نفسه الفرار ـ طلبا للنجاة ـ فتردى فى هوة عميقة، إذ بينما كان يتسلق السور زلت به قدمه فهلك .

* * *

وقد أحدث الاستيلاء على «رندة» وحدها فى نفس المعتضد سروراً عظيما ، فبادر إلى تحصينها ، وجعلها أقوى منعة مما كانت عليه . ولما تم له ما أراد من تحصينها ، وذهب بنفسه لمعاينتها تملكته نشوة سرور وارتياح جعلته ينظم فيها شعراً مضمونه:

« أنت الآن قد بلغت فى التحصين الغاية ، ولا شك أنك قد صرت أثمن درة فى تاج المملكة ، وقد استولى عليك جنودى البواسل بأسنة الرماح ، وظبا السيوف . »

الفصل السابع

فى الوقت الذى كان فيه « المعتضد » ثملا بنشوة انتصاراته ، عاكفا على شهواته ولذاته ، كان « باديس » حليف هموم وأحزان ، حتى لقد بلغ به الحزن أن شق ثيابه — حين اتصلت به أنباء النكبة التى حلت بالبربر — وأخذ يصيح صيحات الغضب ، ويزمجر زمجرة الرعد . وقد استولى عليه الهياج والقلق والاضطراب ، وتملكه شعور أسود جعل الدنيا تظلم فى عينيه،وقد وقر فى نفسه أن عامة العرب برندة تحركوا للثورة بدافع الجنسية والوطن ، وقاموا قومة رجل واحد للقضاء على منافسيهم من البربر .

* * *

ومن الذى يستطيع أن يدخل فى روعه أن أتباعه من العرب لم يدخلوا فى حلف مع بنى عباد ، وأنهم لم يأتمروا به وبعرشه ؟ لقد شغلت هذه الفكرة باله ، وكانت لاتفارقه ليل نهار ، ويقال إنه كانت تعتاده نوبة ذهول،ثم يهيج به هائج الغضب، إلى حد أنه كان يصيح صياحا شديداً ، ويقسم ليبيدَنّ كل عربى أقلته الغبراء . وأحيانا كانت تضطرم نفسه هلعاً ، وتذوب جزعا ، وتفيض بالوساوس والأحلام والشكوك

والأوهام، ثم يعود إلى حالته الأولى من السكون المبهم الغامض الأليم وكأنما انقضت عليه صاعقة .

* * *

على أثرهذه الحالة النفسية العصبية أخذ يفكر فى تدبير خطة مروعة رهيبة ، وذلك أنه كان يدور بخلده أنه مادام العرب مقيمين معه فى داخل المملكة ومنبثين فى الولايات التابعة له، فلن يتأتى له أن يطمئن على سلامة ملكه لحظة واحدة ، فعول – فى قليل من الحنكة السياسية وعدم التبصر فى العواقب – على إبادة خضرائهم ، واستئصال شأفتهم من المملكة . وعقد النية على أن ينفذ هذا الرأى الخطير عند اجتماعهم بالمسجد للصلاة من يوم الجمعة المقبل،وكان لايبرم أمراً دون أن يستشير وزيره « إسماعيل اليهودى » ، فلما صرح له بعزمه ، وأفضى إليه بسره ، وأعلمه أنه مصمم على تنفيذ خطته ـ رضى أم أبى ـ أظهر له الوزير له شناعة هذه الخطة ، ووخامة عاقبتها ، وعمل جهده على أن يعدل الأمير عنها، وأشار عليه أن يتمهل فى الأمر ريثما تنضج الفكرة، وأن ينظر فيما عساه أن ينجم عن هذا الرأى الفطير من النتائج ، وكان مما قاله له :

« لنسلم أن كل شئ سيتم على ماتريد وتهوى ، ولنفرض أنك ستدرك غرضك بالقضاء على جميع العرب ـ بقطع النظر عما ينجم عن هذا

العمل من الخطر. فهل يفوتك أن العرب فى خارج المملكة لايسكتون عن مصاب إخوانهم وما يحل بزملائهم ؟ وهل يدور بخلدك أنهم يلبثون ساكنين فى أماكنهم ، وأنهم لايتحركون لنجدة أبناء جنسهم ؟ كلا ، إنى أؤكد لك أنهم يسارعون اليك بدافع الغضب الشديد ، والعصبية القومية ، ويتدافعون إلى بلادك تدافع الأمواج الهائجة المضطربة ، ولا يلقون السلاح أو يعلو السيف رأسك .

* * *

ومع مشاكلة هذا الكلام للصواب ، ومطابقته للواقع ، فإنه لم يؤثر فى نفس « باديس » ولم يصرفه عن رأيه ، وأخذ على «إسماعيل» عهداً بأن يكون مادار بينهما من الحديث سراً مكتما ، وأصدر أمره بأخذ الأهبة والاستعداد لما يجب عمله يوم الجمعة .

وقضى الأمر ، وكان جميع الجند بأسلحتهم المختلفة أمام المسجد يوم الجمعة على هيئة عرض عام للجيش، ولم يقف «إسماعيل» حيال هذا الأمر موقف الخمول ، بل كان قد دس نسوة إلى زعماء العرب عملن على تفريقهم ، ونصحن لهم بعدم الاجتماع للصلاة يوم الجمعة . وأن يختفوا عن الأنظار فى هذا اليوم فلا يبدو لهم أثر . فعملوا بنصيحتهن وأخذوا حذرهم . ولم يحضر المسجد فى ذلك اليوم سوى نفر يسير من العرب ممن لاخطر لهم مع عامة الشعب ، وتحقق « باديس » فشل

خطته فكاد يتميز من الغيظ وأرسل فى طلب اسماعيل ، وأخذ يلومه على إذاعة السر الذى أفضى به إليه ، فقال : «إن امتناع العرب من الحضور لصلاة الجمعة لم يكن لسر مذاع ، وتفسير هذا الامتناع من جانبهم ظاهر ، فإن القوم رأوا أنك حشدت جندك بلا سبب موجب فى وقت لم يكن فيه بينك وبين جيرانك حرب ، فلم يشكوا فى أنك إنما تقصدهم بالسوء ، فعوضا من أن تغضب وتندم يجب أن تحمد الله تعالى على هذه العاقبة الحميدة ، فلو أن العرب وقفوا على ما كنت تبيته لهم – من الشر والوقيعة – لثاروا واضطرب بسببهم حبل الأمن . أفلا يسرك أنك تراهم الآن ساكنين هادئين ؟ فتروَّ فى الأمر قليلا ، وسيجئ الوقت الذى تحمد فيه رأيى الذى أطلعنك عليه .

* * *

وربما كان «باديس» وقد غاب عنه وجه الصواب غير مقتنع بصحة ماذهب اليه وزيره، ولكنه حين جاء أحد شيوخ البربر وأيد «إسماعيل» فى الرأى اقتنع أخيراً ، واعترف فى النهاية بأنه كان مخطئا ، ولم يعد يفكر فى ملاشاة العنصر العربى من رعاياه ، إلا أنه حين رأى فلول البربر الآتين من «بنى مَرين» و «أركش» و «تسريش» و «رندة» قد لجأوا إلى « غرناطة » وجاءوا يلتمسون لهم فيها مأوى ، اعتزم أن ينتقم من عدوه، ويغزو بجيشه والمهاجرين ولايات إشبيلية.»

* * *

وليس عندنا تفصيلات عن هذه الموقعة الحربية ، ولكن الدلائل تدل على أنها كانت حربا دموية لأن البربر كانوا موتورين يلتهبون حماسة للانتقام لأبناء جنسهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العرب كانت كراهتهم لبربر « غرناطة » أكثر من كراهتهم لسائر البربر ، إذ كانوا يعدونهم من الرافضة أعداء الدين، لسكوتهم على أن يكون بين وزراء المملكة رجل يهودى. ويقول بعض شعراء إشبيلية الذين كانوا يشيدون بانتصارات المعتضد مامعناه :

« لقد أعملت سيفك فى رقاب شعب من البربر ينتحلون اسم الإسلام ، ولا يؤمنون بغير اليهودية . »

لهذا كانت الحرب مع الغرناطيين تعد فى نظر العرب حرباً دينية مما حملهم على مقاتلتهم بمنتهى الشدة حتى اضطروهم إلى التقهقر والارتداد إلى حيث يقيم أبناء جلدتهم . وقد ساءت حال أولئك المهاجرين البائسين إذ لم يسمح لهم المعتضد بالعودة إلى دورهم وبلادهم حين رأى «باديس» أن يجلوا عن «غرناطة» إلى مساكنهم الأصلية التى لامندوحة لهم عن العودة إليها ، فاضطروا إلى أن يجوزوا بحر الزقاق إلى « سبتة » ، ولم يشأ « سقوت » أمير هذه الجهة أن يكون لهم فيها بقاء . وهكذا كانوا يطردون —حيثما حلوا،وأينما ارتحلوا— فى وقت تفشت فيه المجاعة بافريقية مما أدى إلى هلاكهم جميعاً .

وبعدهذه النكبة التيحلت بالبربر وجه المعتضد جنده ضد «القاسم ابن حمود» أمير الجزيرة ، وكان أضعف أمراء البربر فلم يسعه إلا أن يدخل فى طاعة المعتضد ويطلب منه العفو فأجاز له أن يتحول إلى قرطبة فرحل إليها وأقام بها (١٠٨٥)

* * *

ولما تم للمعتضد هذا الانتصار الباهر رأى أن الوقت قد حان لإتمام الدور التمثيلى الذى لعبه حتى الآن أسوة بأبيه من قبل ، فطوعت له نفسه أن يعلن أن «هشاما الثانى» المزعوم والذى قد مات وعلم الناس قاطبة بوفاته لايزال على قيد الحياة .

على أنه لم تكن ثمة أسباب تدعو والده إلى إثارة مسألة الخلافة بانتحال هذا الاسم، فإن الناس جميعًا قد اقتنعوا –فى ذلك الحين– باستحالة الرجوع إلى الماضى ، والعودة إلى نظام الجماعة . وقد دلت التجارب على أن الخلافة قد سقطت بحيث لم يبق أمل فى أن تقوم لها فيما بعد قائمة ، وعلى هذا فقد أصبح فى قلعة « رباح » شخص لاخطر له ، ولا يترتب على وجوده أية فائدة .

ويجوز أن هذا الرجل الذى اختفى من سنين عديدة ولم يره أحد –لا من عامة الشعب، ولا من حاشية القصر –قد مات، أو أن المعتضد قد تضايق منه فأمر بقتله – كما تحقق ذلك بعض الأخبار – وليس فى وسعنا

أن نجزم بشئ فى هذا الصدد لأن أمير «إشبيلية» يعرف كيف يحيط أعماله بالأسرار الغامضة . وقد حدث أنه فى سنة ١٠٥٩ جمع رجال الدولة ونعى لهم هشاما الذى مات من فالج أصابه ، ولكنه أمر ألا يذاع خبر الوفاة مادام فى حروب مع جيرانه ، أما الآن وهو فى حالة سلم مع البلاد المجاورة ، فقد أمر بدفن رفات أسير « قلعة رباح » باحتفال مشى فيه رجال الدولة ، ومشى هو فى الجنازة باعتباره الحاجب أى الوزير الأول،مترجلا و بدون طيلسان . وأرسل الْبُرُد بنعى هذا الخليفة إلى حلفائه فى شرق الأندلس ، وطلب إليهم اختيار خليفة جديد ليبايعوه ، ولم يفكر أحد فى ذلك بطبيعة الحال ، فزعم أن الخليفة الراحل عهد إليه أن يكون أميراً على كل بلاد الأندلس من بعده . ومن المحقق أنه كان يعمل على إدراك هذا الغرض ، وأن جميع جهوده كانت موجهة إليه ، وقد توجهت نفسه الآن للاستيلاء على قرطبة عاصمة المملكة القديمة ، ولم يدر ما كان يَخْبُؤُهُ له القدر من فشل وخذلان ، وذلك أن جنوده أغاروا عدة إغارات على بعض الجهات التابعة لقرطبة ، وانضم إلى ذلك أنه أمر ابنه (اسماعيل) قائد جيشه أن يستولى على مدينة الزهراء التى دمر نصفها البربر ، فقابل أمره بشئ من الاستياء والامتعاض والتبرم والاعتراض . وكان قد بدأ منذ زمن يظهر الكراهة والاشمئزاز من أبيه ، ويشكو قسوته وظلمه ، ويرميه بأنه

كان يقحم به على الأهوال والأخطار ، ويعرضه لمواقع الهلكة ، إذ كان يأبى فى المعارك الكبيرة ، وحصار المعاقل المنيعة ، أن يمده بالعدد الكافى من الجند . وفوق هـذا فقد حرك فى نفسه عوامل الاستياء والبغض رجل أفّاقّ يدعى «أبا عبد الله البرْزيلى» كان قد رحل من «مالقة» عند ما استولى عليها «باديس» ، وكان يطمع أن يكون حاجبا لأى أمير . فأثار فى نفس «إسماعيل» فكرة الثورة على أبيه ، وأوعز إليه أن يؤسس لنفسه مملكة مستقلة فى جهة أخرى كالجزيرة الخضراء ، وقد أتيحت للرجل أسباب النجاح إذ أظهر « إسماعيل » فى الوقت الذى أمر فيه بالزحف على قرطبة منتهى مايكون من الامتعاض والهياج لأنه طلب من أبيه أن يمده بالعدد الذى يلزمه من الجند فأبى ، وعبثا حاول «إسماعيل» أن يقنعه بأن مامعه من الجند لا يكفى للزحف على ولاية كقرطبة ، وبأن « باديس » لابد آت لمساعدة أهلها كما فعل ذلك سابقًا ، وأنه إذا جاء لمعاونتهم مادام محالفًا لهم ، فإنه حينئذ يضع نفسه بين نارين ، ويكون مضطراً لمنازلة عدوين ، فلم يصغ المعتضد إليه ، بل كان فى أشد حالات الغضب على ابنه ، ودعاه بالجبان ، وهدده بالقتل ، وكان على وشك أن يبرز ذلك من حيز القول إلى حيز الفعل وأفضى إليه بقوله :

« اذا لم تطع قولى ، وأظهرت الخلاف على ، فإنى مضطر لامحالة أن آمر بضرب عنقك.»

* * *

فجرحت هذه الكلمات «إسماعيل» فى صميم نفسه ، وهاج به هائج الغضب ، ودفعه حرج الموقف إلى المضى فى الخطة الرهيبة التى رسمها لنفسه ، ولكنه جاء إلى «البرزيلى» ليشير عليه بما يمكن عمله ، فكان من السهل على هذا أن يقول له :

« إنه قد حانت الساعة لتنفيذ الخطة التى أدليت بها اليك »

و بعد مضى يومين من سفر «إسماعيل» على رأس الجيش من «إشبيلية» بلغ رؤساء الجند أن قد ورد عليه نبأ من أبيه يأمره فيه بالعودة لمقابلته ليفضى إليه بأمر هام .

وقفل راجعًا مع «البرزيلى» وثلاثين فارسا من فرسان الحرس إلى «إشبيلية» ، ولم يكن «المعتضد» فى هذا الوقت بقصر الإمارة الحصين بل كان قد تحول إلى «قصر الزاهر» الواقع على الضفة المقابلة من النهر ، وآنس «إسماعيل» قلة الحامية والحراس ، فاستولى عليه ليلا ، وحمل مافيه من كنوز و نفائس على ظهور البغال ، ولكى يحول دون أن يعبر أحد النهر إلى « قصر الزاهر » لابلاغ أبيه الحادث أمر بإغراق الزوارق الراسية تجاه الحصن ، وتمكن من أخذ والدته ونساء القصر ،

ومضى لايلْوى على شئ فى طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وعلى الرغم من مبالغته فى التكتم ، وشدة الحذر والخوف من أن يصل نبأ هــذا الحادث إلى أسماع أبيه ، تسرب الخبر إلى أبيه من أحد فرسان ولده لأنه لم يرضه هــذا العمل ، فاقتحم نهر الوادى الـكبير سباحة وأبلغه الحادث فى الحال .

فأنفذ «المعتضد» فى أثره كتائب من الفرسان، وأرسل رسله إلى حكام حصونه فى الوقت المناسب فأوصدوا أبواب القصور التى فى طريقه فى وجهه ، وخشى «إسماعيل» من تألب أصحاب القصور عليه ، فلجأ الى واحد منهم اسمه «حصادى» وهو صاحب حصن قائم على ربوة جبل عند حدود قسم « شذونة » وطلب إليه أن يكون فى جواره وحمايته ، فقبل أن يجيره ، ولـكن شرط عليه أن لاتبرح خيـله سفح الجبل ، وخرج إليه فى جماعة من جنوده ، ونصح له بعدم الخلاف على والده ، وعرض عليه أن يكون وسيطًا فى الصلح بينهما ، ولـكونه قد فشل فى محاولته هذه فشلا تاما ، رأى أن ينزل عند رأيه ويعمل بمشورته ، وحينئذ أذن له أن يدخل معه الحصن ، وعامله بمايليق بمكانته ، وأرسل إلى « المعتضد » كتابًا يذكر فيه أن « إسماعيل » ثاب إلى رشده ، وندم على فعلته تلك ، وتوسل إليه أن يقبل وساطته ويصفح عنه ، فأرسل إليه يقول : «إنه قد صفح عنه.» «فعاد إسماعيل» إلى إشبيلية

ورد والده إليه جميع أملاكه . ولكنه شدد عليه الرقابة ، وأمر بضرب رقاب «أبى عبد الله» ومن معه ، وعلم إسماعيل بذلك فسقط فى يده . وأدرك مبلغ خيانة والده وغدره ، ووجد أنه قد وقع فى الشرك الذى نصبه له من الصفح المزعوم، فأعمل الحيلة فى الخلاص . وكسب بقوة المال الحراس وطائفة من العبيد، وجمعهم -ذات ليلة- على الشراب ليبعث فيهم الحماس والجرأة ، وقلدهم السلاح وتسوّر بهم ناحية من القصر رأى الوصول إليها هينا ، وكان يقدر أن يصادف والده فى هذه الساعة نائما . وقد صمم فى هذه المرة أن يقضى عليه القضاء الأخير . ولكن سرعان ماظهر «المعتضد» فجأة على رأس حاميته ، وما هى إلا أن عاينه المتآمرون حتى لاذوا بالفرار ، ولكن جنود الحامية تعقبوهم إلى أن جاءوا بهم معتقلين وكان الغضب قد وصل بالمعتضد إلى أقصى حد . فأخذ ابنه إلى مكان بعيد من القصر ، وأرداه بيده قتيلا بحيث لم يشهد مصرعه أحد ، وهاج به هائج الغضب فأخذ يقتل وينكل بشركائه وأصدقائه وخدمه ، وحتى بنساء قصره . وكم أمر ببتر أيد وأرجل وجدع أنوف ، وقطع رءوس ، وقتل فى السر وقتل فى العلن . وبعد أن شفى غيظه ، وسكنت ثورة غضبه . تملكه حزن عميق وتنبه فى قرارة نفسه ، تأنيب شديد ، ووخز فى الضمير أليم ، وما كان يشفع لهذا

التأنيب وذلك الألم النفسانى الدائم ، أن ابنه القتيل كان آثماً على الحقيقة جديراً بما حل به من العقوبة ، فقد ثار عليه ، وحاول قتله فى محاولتين فشلتا معاً ، وسرق ذخائره وأعلاقه وكنوزه حتى لقد سرق مع ذلك نساءه ، وكان لايفتر لحظة عن التصريح بهذه الشناعات والجرائم التى ارتكبها ابنه ، ولا عن التحدث بأنه كان يحبه حباً حقيقياً ، فإنه مع جبروته وقسوته كان يحب أسرته وبخاصة ابنه الذى كان يرى فيه العاقل الرشيد السديد الرأى فى المجلس ، والقائد المدافع عن حوزة المملكة فى ميادين القتال ، والعون الوحيد له فى شيخوخته ، والمتمم لعمله إذا وافاه الأجل المحتوم ، وهاهو قد حطم بيده تلك الآمال ، وقضى بنفسه على كل تلك الأمانى

وحكى بعض وزراء إشبيلية قال :

« فى اليوم الثالث لهذه الكائنة المحزنة ، والفجيعة الدامية ، دخلت أنا وزملائى على المعتضد فى مجلسه ، وكان وجهه مربدا تعلوه كآبة الحزن ، فى منظر موحش فظيع ، فعرتنا دهشة ، وارتعنا هلعاً وفزعاً ، وتقدمنا فحييناه ، وهو يجمجم بكلام لم نتبينه ، فنظر الينا نظر استثبات وتفحص ، وجعل يصعد فينا بنظره ويصوب ، ثم قال فى زمجرة كزمجرة الأسد » :

« مابالكم لاتنطقون أيها الأشقياء ؟ إنه ليسركم فى الباطن ما أنا فيه

الان من محنة وبلاء ، فاذهبوا بعيداً عنى واخرجوا من هذا المكان . »

وربما استحال ذلك النشاط الوحشى ، وتحولت تلك الإرادة الحديدية الآن إلى ذلة وضعف وفتور وانكسار لأول وهلة ، وأصبح ذلك القلب المقدود من الصخر . والذى كان يلوح أنه بمنجاة أن يطعن فى الصميم لصلابته وقسوته ، قد أصيب بجرح دام يندمل على الزمن شيئًا فشيئًا ، ولكن بعد أن يترك أثراً عميقًا ، وفى هذه الفترة تركت جمهورية قرطبة فى راحة وطمأنينة ، وقد سرتها هذه الطمأنينة المفاجئة على قدر دهشتها بها ، وكذلك لم يعد الآن يفكر فى خططه الحربية ومشاريعه الواسعة ، ثم عادت تلك الأطماع تتحرك فى نفسه بصفة غير محسوسة ، ثم تنبهت عوامل الجشع والطمع فى نفسه ، فأخذ يعد الأهبة للاستيلاء على « مالقة [١] »

---

(١) فى كتاب الذخيرة لابن بسام فصول هى أمس ما يكون بما كتبه دوزى عن المعتضد ، وسنذكر منها فيما يلى ماهو كالأصل لما كتبه «دوزى» عنه مع اختصار وحذف حسبما يقتضيه المقام فنقول :

المعتضد بالله عباد ابن ذى الوزارتين القاضى أبى القاسم محمد بن عباد ، أفضى إليه الأمر بعد أبيه سنة (٤٣٣) هـ وتسمى بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد : قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمور وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو رابض ، نار والناس حرب ، وكل شيء عليه إلب ، فكفى أقرانه ، وهم غير

٭ ٭ ٭

وكان نير « باديس » قد أثقل كواهل العرب فى « مالقــة » منذ سنين ، وأخذوا يلعنون أيامه ، ويئنون من جبريته وظلمه ، وصاروا

غير واحد ، وضبط شانه ، بين قائم وقاعد ،حتى طالت يده ، واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده ، افتتح أمره بقتل وزير أبيه « حبيب » طعنة فى ثغرة الأيام ملك بها كفه ، وجبارا من جبابرة شردبه من خلفه ، استمر يفرى ويخرق ، وأخــذ يجمع ويفرق ، وهو فى كل ناحية ميدان ، وعلى كل رابيــة خوان ، حربه سم لايبطئ ، وسهم لايخطئ . وسلمه شر غير مأمون

وذكره ابن حيان فقال :

وعشى يوم الأربعاء لستخلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين طرق «قرطبة» نعى المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعــة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية ، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية أحمد ما كان فى اعتلائه ، وأرقى ما كان إلى سمائه ، وأطمع ما كان فى الاحتواء على الجزيرة ، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها ، فتوفاه الله على فراشه من علة ذبحة قصيرة الأمد ، وحية الإيجاز . . . .

وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضى يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ، وقضى نحبه يوم السبت من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين ، ودفن عشية يوم الأحد بعده ، تغمد الله خطاياه ، فاقد حمل عليه ــ على مر الأيام فى فرط القسوة ، وتجاوز الحدود فى المثلة ، والأخذ بالظنة ، والإخفار بالذمة ــ حكايات شنيعة ، لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليــل يقوم عليها ، فالقول ينساغ فى ذكرها ، ومهما برىء من معيبها ، فلم يبرأ من شدة القسوة ، وسوء الاتهام على

يعقدون الآمال فى الخلاص من هذا الحكم الغاشم على أمير إشبيلية ، وهم وإن كانوا على يقين من أنه مثله فى الظلم ، إلا أنهم كانوا يؤثرونه

الطاعة ، سجايا من جبلة لم يحاسن فيها ذوى رحم واشجة

وكان تقيل سيرة أحمد بن أبى أحمد بن المتوكل أحد أشداء العباسيين ، الذى ضم نشر المملكة بالمشرق وسطا بالمتنزين عليها ، وبفقده انهدمت الدولة ، فحمل عباد سمته المعتضدية ، وطالع بفضل نظره أخباره السياسية ، التى أضحت عند أهل النظر مثاله هادية ، إذ الاحتواء على أمد الرياسة فى صلابة العصى ، وصناعة السطى ، فجاء منها بمهولات تذعر من سمع بها ، فضلا عمن عاينها ، نسبوا لى هذا الأمير الشهم امثالها من غير دلالة ، وقد انطوى علم الله عليها ، وتفرر إرصاده لامكافأة بها ، ولم يقصر «عباد» فى دولته التى مهدها فوق أطراف الأسنة ، وصير أكثر شغله فيها شب الحروب ، وكياد الملوك ، وإهراج البلاد ، وإحراز التلاد ، من توفر حظه الأوفى من الأمور الملوكية ، والعدد السلطانية ، والآلات الرياسية ، فابتنى القصور ، واعتمر العمارات المغلة ، واكتسى الملابس الفاخرة ، وغالى فى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الروقة ، واتخذ الرجل الذادة ، تنقاهم من كل فرقة ، فساس طبقاتهم مابين إدرار الأعطية ، وضمان الزيادة على صدق العمال ، والوفاء بالوعيد على النكال من العدو ، سياسة أعيت على أنداده من ملوك الاندلس ، فخرج منهم رجالا مساعير حروب أباد بهم أقرانه ، من نادر أخباره المتناهية فى غرابة أن نال بغيته من أهل تلك الامم العاتية ، وهو غائب عن مشاهدتها ، مترفه عن مكابدتها ، مدبر فوق أريكته ، منفذ خدعها من جوف قصره ، ما إن مشى إلى عدو أومغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين ، ثم لزم عرسه يدبر داخلها أموره ، جرد نهاره فى الابرام والتدبير ، وأخلص ليله لمعلى السرور ، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح ، ويحيا عليها بقبض الارواح ، التى لأنابيبها من أعدائه بباب قصره حديقة تضع كل وقت ثمراً من رءوسهم مبداة

على باديس لأنه من جنسهم ، ولهـذا اتفقوا مع المعتضد ، ودبروا مؤامرة كان باديس بتهاونه أول مساعد على تحقيقها ، لإدمانه على

إليه . مقرطة الآذان برقاع الاسماء المنوهة بحاملها . ترتاح نفسه لمعاينتها . والخلق يذعرون من التماحها ، وهو واصل نعيم ليله بإجالة كيده ، ومبتدع نشاط لهوه بقوة أيده . له في كل شأن شوين . وعلى كل قلب سمع وعين . ما إن سبر أحد من دهاة رجاله غوره . ولا أدرك قعره . ولا أمن مكره . لم يزل ذلك دأبه . منذ ابتدائه إلى انتهائه

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهتدى . مفرق الجماعة بقرطبة . ومبتعث تلك الفتنة المبيرة، قد سبق «عبادا» إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرءوس أعدائه أمام أكثر له «واضح» الخصى العامرى من إرسال رءوس الخارجين عليه لأول وقعة. وأصلح بهم باب مدينة سالم . فغرس منها فوق الخشب العلية لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة ، طويلة الخطة ، جمة عدد الصفوف المسطورة . شغلا للنظارة

وذكرتها شعراؤه ، مثل قول صاعد بن الحسين من قصيدة أولها :

«جلاء العين مبهجة النفوس   حدائق أطلعت ثمر الرءوس
هناك الله — مهدى المساعى —   جنى الهامات من تلك الغروس
فلم أر قبلها وحشا جميلا   كربه روائه أنس الأنيس
فماذا يملأ الاسماع منها   اذا ماثت بأبناء الطروس»

وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة الماثلة قلوب البشر ذعرا مباهاة بخزانة بلوى . أكرم لديه من خزانة جوهره، مكنونة (فى) جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبـد الله البرزلى ، شهاب الفتنة ، ورءوس الحجاب، ابن خزرون بن نوح وغيرهم، الذين قرن رءوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حمود ، سابقهم الى تلك الرفعة ! خص رءوسهم بالصون بعد إذالة جسومهم

الشراب ، و إغفاله شؤون دولته إلا فى أوقات قليلة نادرة

وفى اليوم المضروب موعداً لتنفيذ المؤامرة شبت فى العاصمة ثورة ،

المزقة ، وبالغ فى تطييبها ، وتنظيفها للثواء لا للكرامة ، وأودعها المصاون الحافظة لها ، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتبارا (انتهى كلام ابن حيان)

ثم قال ابن بسام قال ابن حيان : وكان عباد أوتى أيضا من جمال الصورة . وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان . وثقوب الذهن ؛ وحضور الخاطر ؛ وصدق الحس ، مافاق به على نظرائه ، ونظر مع ذلك فى الآداب قبل ميل الهوى به إلى السلطان أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنــه على قطعة وافرة علقها من غــير تعهد لها ، ولا إمعان فى غمارها ولا إكثار من مطالعتها . ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجتها على ذلك ماشاء من تحبير الــكلام ، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدته فيها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة . واكتتبها الأدباء للبراعة ، جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب . وأخبار ابن عباد فى جميع أفعاله ، وضروب أنحائه علانيــاته وخافياته غريبة بعيدة ، وكان على تجرده فى أحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن ، وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحــد من نظرائه . قيل إنه خلف من صنوفهن السريات خاصة نحوا من سبعين جرية إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائله بنت مجاهد العامرى أخت على ابن مجاهد أمير دانية، ففشا نسل «عباد» لتوسعه فى النكاح وقوته عليه ، ذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عسرين ، ومن الاناث مثلهم (انتهى كلامه)

حروب عباد مع المظفر وغيره من أمراء العرب

قال ىں حيان : وأول ماظهر من تفاسد « عباد » و « المظفر » ، أن ابن يحى صاحب « لبلة » عند هجوم عباد عليــه استجار بالمظفر ابن الأفطس فأجره . وانزعج له ، ووصل يده . وعطل ثغره . وجمع جيشه . وأقبل إلى « لبلة » ناصرا

شترك فى إضرامها خمسة وعشرون حصناً ، وتلاحقت فى نفس الوقت جيوش إشبيلية بقيادة « المعتمد » بن المعتضد . فاجتازت الحدود

لابن يحيى، مضيعا لما خلفه ، يوقد نار فتنة كان فى غنى عنها، حتى نزل بنفسه على ابن يحيى ، ودافع ابن عباد عنه ، وحرك فى ذلك من حلفائه البرابرة جماعة فسارعوا إليه غير ناظرين فى عاقبة أمرهم ، وتقدموا فى تحريك يعسوبهم محمد بالقاسم (؟) فانتظم به أمرهم وتقدم إلى اشبيلية ورحاهم تدور على قريعهم « باديس ابن حبوس » مدرههم فى الجلى ، ومفزعهم فى النائبة ، يسلمون لرأيه ، ويزدحمون بركنه ، فأشفق الوزير ابن جهور من حركتهم تلك على عادته فى التقلقل لأمثالها ، وجهد جهده فى حربهم وأرسل ثقات رسله إلى عامتهم إلا ما كان من الداثلين منهم «عباد» داعية المروانية ، ومحمد ابن ادريس صاحب « مالقة » دائل عمورية ، فانه تنكبها بعادا من الظنة ، اذ كان هو وجماعة قرطبة متوقعين على كل دعوة . فلما وصلت رسله اليهم مازادهم الا لجاجا ، ولم يزل ابن جهور يضرب لهم الأمثال ، ويخوفهم من سوء العاقبة حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظاً وتذكرة يحدو منهم الاطواد الراسية ، ويرقى الحيات الضارية ، واستن القوم فى ميدان العناد فلما أصبح عند ابن عباد خروجه للبلة بجيشه دفع عن على بن يحيى منتظرا لخلطائه جرد جياد ضربت على بلد ابن الافطس ، وغارت وأنجدت ، وفعلت فعلات كأت القلوب ، وقرفت الذنوب ، ثم نهض ابن عباد بنفسه إلى « لبلة » للقائه . فجرت بينهما على بابها وقعة عظيمة صعبة استهما فيها النصر فى مكان واحد شق الأبلمة وكانت أولا على ابن الافطس فولى الدبر ، وخاض واديها دون مخاضة (بياض بالأصل) كثير ثم رجعت له على ابن عباد فكشف رحاله وأصاب منهم نمراً ثم افترقوا ولحق (بياض بالأصل) قرطبة وجاز إلى الشرق وتجمع بخلفائه ، وعاثوا فى نظر إشبيلية ، وانقطعت (بياض بالأصل) وأمسى الناس فى مثل

لمساعدة الثائرين ، فأخـذت البربر على غرة ، ولعب السـيف فى رقابهم ولم ينج منهم إلا من تعجل الفرار ، وفى أقل من أسـبوع من

عصر الجاهلية ثم والى ابن يحيى بعـد ذلك كله ، لضرورة دفعتـه إلى ذلك . فكاشفه المظفر ، وخانه فيما كان ائتمنه عليـه من ماله وأودعه عنده أيام تورطه فى حرب المعتضد فانبتت بينهم العصمة ، وضربت خيل المظفر على صاحب « لبلة » فاستغاث المعتضد فلحق به خيله ، واقتتلت مع خيل « المظفر » ، وكان ابن جهور كثيراً مايوالى رسله إلى الاصطلاح بينهما فتصدر عنها (أخبار) تخبر أن ابن الأفطس أقرب إلى الملام بامتطاء قعود اللجاج فى القطيعة ، ومن النوادر المحفوظة بينهما : أن المعتضد والى حربه فى شهور سنة اثنتين وأربعين بغير بلده ، وفتح عدة حصون ضمها إلى عمله . وشدها برجاله ، ودمر عمارات واسعة أفسد غلاتها ، وأوقع رعيته فى المجاعة الطويلة ، وعجز المظفر عن دفاعه شبرا واحداً فما دونه استكانة للحادثة التى هدت ركنه ، وأفنت حماة رجاله ، فاعتصم بحصنه « بطليوس » ولم يخرج من خيله فارسا . وجعل يشكو به إلى حلفائه فلا يجد ظهيرا ولا نصيرا . فلما قضى المعتضد من تدويخ بلاده وطره وكر راجعاً إلى « إشبيلية » فى شوال من العام ، وردت علينا يومئذ بقرطبة غريبة : وذلك أن رسول المظفر فى أثر هذه الوقائع عليه يلتمس وصائف ملهيات يأنس بهن نافياً بذلك الشماتة عن نفسه ولم تكن له عادة بمثله . فبعث له رسوله عن ذلك ، وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين مدبيتين عند بعض التجار لاطائل فيهما ، فاشتراهما له وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع ، لقطع خيل المعتضد جميع الطرق ، فأقام مدة بقرطبـة إلى أن شيع بخيل كثيفة ، ومضى بهما وأولو النهى يعجبون مما شهر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لأطهار النساء على فحول الرجال العاقدة للأزرة ، وعلى ما كان يدعيـه لنفسه من الأدب والمعرفة . وبحثت على هذه الأعجوبة وما الذى حمله على هـذ لافك؟ فاذ به ناغى كاشحه المعتضد المرتاح بعد الظفر ، لاجتلاب قينة عبد الرحيم

الزمن تم فتح جميع الولاية،إلا حصن«مالقة» الذى كان به حامية البربر فإنه بقى وحده بدون تسليم ، وهو حصن منيع لوقوعه على قمة جبل ،

لوزير من قرطبة إثر وفاته يومئذ ، وقد اشتد لما وصفت له بالحذق فى صنعتها ، فوجهت نحوه فتقيله المظفر فى إظهار الفراغ ، وطلب الملهيات ، وقد علم العالم أنه فى شغل عنهن ، فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ فى الغى ، وتباريا فى القطيعه حتى أفنيا العالمين ، إلى أن سنى الله بينهما الصلح فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين بسعى من جهور أمير قرطبة كعادته ببنهم بعد كتب ورسل فى ذلك،والمظفر يمتطى للجاجة هنالك . فلما سكنت الحال بينهما ، فرغ المعتضد الى حرب الأمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبكرى،وأتيح له من الظفر (ما أتيح) فضبط أملاكهم وضمها جملة الى عمله ثم مد يده الى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء فرضة المجاز الادنى من الأندلس الى أرض العدوة التى كان منها فتحها ، ومن قبلها مأتاها على قدم الدهر ، وذلك أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله ، أضعف أمراء البرابرة شوكة،وأقلهم رجالا صمد (بياض بالأصل) القاسم حلفاؤه بالاندلس ، وصاحب سبتة « سقوت » البرغواطى مولى ابن حمود (بياض بالأصل)حتى سقط فى يده ، ونزل على أمان والى أمره ، الى أن لحق بقرطبة وسكنها تحت كنف ابن جهور (بياض بالاصل) المخلوعين ، فلما كانت سنة احدى وخمسين وقد أتيح له من الظفر ما أتيح ، اتصلت الانباء عندنا بقرطبة بصموت منابره فى جميع أعماله عن ذكر امامة هشام بن الحكم صاحب الرجعة الذى اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده الى آخر هذه السنة ، يومئ اليه بالحياة فى غياهب حجب من غير ظهور لخاصة ولا عامة ، ودعوته على ذلك كله مرفوعة عند من ائتسى بالمعتضد من أمراء شرق الاندلس الى أن قطعها قاطع الاعناق عليها « ابن عباد » فذكر أنه دعا وجوه حضرته فنعى لهم امامهم هشاما ، وكشف اليهم تقدمه

ولمناعته كان فى استطاعته أن يقاوم مدة طويلة ، وحينئذ كان يخشى أن ينتهز «باديس» الفرصة فيجئ لشد أزر الحامية ، وهذا ماحسب له

وفاته من علة زمانية ، ووصف أن الحال التى كان بسبيلها من اشتداد الفتنة بينه وبين من تظاهر عليه من أمراء الاندلس الدانين منه ، عاقته يومئذ عن البوح بوفاة هذا الامام والشهرة لدفنه ، اعطاء للحزم بقسطه، فلما سكنت الحال وجب التصريح بالحق . وعطف — زعموا — بكلامه على شحذ بصائرهم فى التمسك بحبل الامامه والفرار عن الميتة الجاهلية ، وذكر أنه خاطب من كان تحت دعوة هذا المنعى هشام من أمراء الاندلس ناعيا له، داعيا الى التعوض منه، فارتفعت الدعوة منذ ذلك الوقت. وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة وعساها تكون — ان شاء الله — الصادقة . فكم قتل ، وكم مات ، ثم انتفض من التراب ، ومزق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقعة ، فقد كان مات فى يد أول خالعيه محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية ، ثم نشر بيد واضح الصقلبي فتى بنى عامر ، ودال مديدة ثم قتله خالعه الثانى سليمان المستعين ودفنه خفية ، ثم استمر راصده على بن حمود الحسنى المنتزى يذكى الطلب بثأره على الدولة ، ودفنه الدفنة التى خلناها حقيقة ، فلم يلبث أن نجم حيا باشبيلية بعد حقب فبقى هنالك ملكا ، ودال قرناً الى أن وقعت عليه هذه الميتة الثالثة ، فما نقول ونعتقد فى الفرق بين هذه الميتات المتواليات اذا كان مرتبا وحداً ؟ وليس الا السيوف عليها أدلة غير اخلاص الدعاء لعامة المسلمين فى لائتلاف لما فيه الصلاح (انتهى مالخصه ابن بسام من كلام ابن حيان)

(قال ابن بسام) ثم غمس المعتضد يده بعد فيمن كان يليه من البرازلة ، فصدم سرهم بسرهم . وضرب زيدهم بعمرهم ، وقد كان عند ماتسعرت نار الحرب ، بينه وبين رؤساء غرب ، هادنهم على دخن ، ومتح لهم حتى ضربوا حوله بعطن ، ليقتلهم بسيوفهم (بياض فى الأصل) الى حتوفهم ، فلما استقرت قدمه « بشب » ناصية قواعد

زعماء الثورة ألف حساب ، فأشاروا على المعتمد أن يُشدد الحصار على من فى الحصن ، وألا يثق كثيراً بجماعات البربر الذين فى جيشه ، ولم

الغرب (بياض فى الاصل) كان أول مابدأ على الحاجب ابن نوح المتزى كان بكورة مورور فى غير كتيبة نظمها ولا مقدمة اليه (بياض فى الاصل) ينهبان عليه . ويحملان الأموال بين يديه، تجاسراً على ركوب الخطر ، الذى يصرف القدر ، وهو لايسرى أتخطئ أم تصيب ؟ فخلص إلى ابن نوح هـذا من رجل لايبالى دم من تجرع . ولا يخفى بشىء صنع ، فبالغ ابن نوح فى بره ، وتضاءل لأمره ، وحمل على ذلك من فعله على (بياض فى الأصل) وأتم وجوه الاستنامة ، وفض المعتضد يوما من صميم ماله ، فى وجوه حماة ابن نوح ورءوس رجاله ، ما استمال به قلوبهم . واستنصح به جيوبهم ، ثم صار الى ابن أبى قرة برندة فسامه مثلها ، وحذا له نعلها ، فتلك اعتد عنيهم يدا . وجعلها لما أراد من مكروههم أمداً . وقد كان أحد أجنادهم أشار بالرأى فى أمره . وأراد أن يطلع عليه من نية مكره ، فراطنهم يومئذ بغدره ، ورمز لهم بالاستراحة من شره ، ففهمها المعتضد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه . وأثبتها فى ديوان إحنه ، حتى حلى بطائلها ، واستفاد بعد مديدة من قائلها، وجأجأ الحاجبين المذكورين لأول تمكنه من الغرة . وساعة صدره من مركره ، فتهافتا تهافت الفراش على الجمرة، وجاءا مجىء الحائن الى الشفرة . وتطفل عليهما الخـائن ابن خزرون المتزى كان وقتـه بأركش فالله أبوه وافدا لم تجزه الوفادة . وواهاله قتيلا لم يحل بطائل الشهادة . فجرع الـكل الحتوف . وحكم فى عامتهم السيوف . واستمر بعد ذلك على حرب بقاياهم ، وتتبع أخرامهم ، حتى تغلب على بلادهم . وألوى بطارفهم وتلادهم . فى أخبار طويلة استوفاها ابن حيان ، هى خارجة عن غرض هذا الديوان ، وقد ألمعت منها بما فيه الـكفاية، اذ لايتسع هذا المجموع لاستقصاء الغاية . والسبب الذى كان يغريه بطلبهم ، ويبعثه على التمرس بهم ، أن بعض من نظر بمولده كان خبره أن انقضاء دولته يكون على أيدى قوم يطرءون على الجزيرة من غير سكانها ،

يقدر المعتمد قيمة هذه النصائح الثمينة ، ولم تلق منه أذنا صاغيه ، بل تهاون فى الأمر ، وآثر الراحـة ، وأطاق سراح الجند الذين أعجبوا

فكان لايشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها فى عهـد ابن عامر . فأعمل فى نكاهم وجوه سياسته ، وشغل بقتالهم أيام رياسته ، واتفق أن دخل عليه يوما بعض وزرائه ، وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر ، فاذا كتاب « سقوت » المنتزى يومئذ « بسبتة » يذكر أن القوم المتلثمين المدعوين بالمرابطين ، قد وصلت مقدمتهم رحبة « مراكش » فقال له ذلك الوزير المذكور : وأين رحبة مراكش؟ وحلوها فكان ماذا ؟ ومات الحجاج فمه (؟) ودونهم اللجج الخضر ، والمهامه الغبر ، والليالى والايام ، والجماهير العظام ، فقال له المعتضد : هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، ان طالت بك حياة فستراه ، اكتب الى فلان يعنى عامله على الجزيرة باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمرى ، وأخذ يريش فى تحصينه ، ووضع أرصاده هنالك وعيونه . ولله عزائم لاتقيها الحصون ، ولا تهتدى اليها الارصاد والعيون ، ولكل شىء أمد مكتوب ، وميقات مضروب

وكتب ابن بسام أيضا فى موضع آخر فصلا عن ابن الافطس يقول فيه :

فرجع (ابن الافطس) الى مقاومة ابن عباد ، فلما كان فى سنة خمس وعشرين ، وجه ابن عباد ابنه « اسماعيل » مع عسكر الى أرض العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الافطس ، فلما أوغل « اسماعيل » ببلده يريد أرض « غاليسيا » وابن الافطس يسر الغدر به ، بادر بجميع رجال تعده ورصده (؟) شعب ضيق فى طريق أفوله ، ولم يعد ابن عباد بشىء من تدبيره ، حتى حصل فى الانشوطة ، فبادر اسماعيل بانجاء نفسه ، وأسلم جميع عسكره له ، وجرت عليه فى مهربه مع جملة من أصحابه شدة لجأ فيها الى ذبح خيله ، والاغتذاء بلحومها ، ونجا بذمائه الى مدينة « اشبونة » آخر عمله من ساحل البحر المحيط ، فاصطلم ابن الافطس عسكره اصطلاما لم يسمع بمثله ، ووقع سرعان العدو من النصارى على كثير منهم فاقتنصوهم اقتناصا ، وقتلوا منهم أمة ، وكانت حادثة شنيعة ، بقيت بها عداوتهما الى آخر وقتهما

بهذا المسلك الحسن ، فعكفوا على الشراب ، وأخـذوا يبحثون عن النساء ، لاعتقادهم أنه لاخطر هناك يتهددهم ، وقد غرهم ماقاله رؤساء البربر للمعتمد من أن الحصن عما قليل ستسلم حاميته ، وكانت هـذه الخديعة من البربر بدافع ميل خفى إلى باديس ، وقد جر ذلك كثيراً من الشؤم على جيوش إشبيلية ، فإن أولئك السودان الذين هم فى الحصن ، وجـدوا عندهم متسعاً من الوقت يخبرون فيه باديس بأن الفرصة سانحة لمباغتة عسكر المعتمد والقضاء عليه

فجدت جنود غرناطة فى المسير ، وشقت طريقها إلى مالقـة بين الجبال والأوعار فى سرعة وحذر ، ودخلت المدينة على حين غفلة من أهلها ، دون أن يكون عند المعتمد قبـل دخولهم بلحظة واحدة علم باقترابهم . فلم يستطع أن يجمع الجيش لملاقاة العـدو ، ولم تكن بين الجيشين معركة ، وكل مافى الأمر أن جند غرناطة ، قاموا بمذبحة فى عسكر إشبيلية الذين كانوا عزلا من السلاح ، والذين كان أكثر من نصفهم سكارى ، وقد أفات المعتمد من أيديهم بانسحابه إلى « رنده » واضطرت ولاية «مالقة » جميعها أن تخضع من جديد لحكم « باديس »

هذه فصول تخيرنا نقلها من القسم الثانى من كتاب الذخيرة فى أخبار الجزيرة لابن سام ، لعلاقتها بما كتبه العلامة « دوزى » عن « المعتضد » فى هذا الفصل . وهى كما يلوح عند المقارنة ، كالأصل لمـا كتبه آثرنا نقلها زيادة فى الايضاح ، وإتماما للفائدة .

ونتصور هنا مبلغ حنق « المعتضد » وغضبه حين نمى إليه خبر هذه الهزيمة ، وأن ولده بتهاونه وتضييعه خطة الحزم قد فقد جيشه . وفقد ولاية عظيمة ، وكان من نتيجة هذا الغضب أن أصدر أمره باعتقال المعتمد مع مسجونى حصن « رنده » وقد هم أن يقضى على ولده الثانى فى حياته أيضا ، ناسيًا وخز الضمير الذى أصابه لمقتله ولده الأول

وكان المعتمد يجهل مبلغ ماوصل إليه والده من الغضب والحسرة والندم ، ولما استقر فى الحصن ، وعرف مدى غضب والده بعث إليه بقصيدة تفيض بالمديح والثناء ، وتشيد بكرم المعتضد ، وتستجلب عطفه وصفحه ، وتقتضى فؤاده الرحمة والشفقة ، بذل فى هذه القصيدة كل مافى استطاعته ليصرف عن والده ماساوره من حزن ، وألم به من ألم . وليعزيه عن هذا المصاب وذلك الإخفاق بما أحرزه فيما مضى من انتصارات باهرة ، وفتوحات اتسعت بها رقعة المملكة ، ومن أجمع الأبيات لهذه المعانى قوله فى صدر قصيدته الرائية :

«سكّن فؤادك لاتذهب بك الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وإن يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتى به القدر

وإن تكن كبوة فى الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر

كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة وعبرة من شؤون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه وثق (بمعتضد بالله) يغتفر
ولاترعك خطوب إن عدا زمن فالله يدفع (والمنصور) ينتصر
واصبر فإنك من قوم أولى جلد إذا أصابتهم مكروهة صبروا
من مثل جدك ، والملك الهمام أبو عمرو أبوك له مجـد ومفتخر
سميذع يهب الآلاف معتذراً ويسـتقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها لولا نداه اقلنا إنها « الحجر »
ياضيغما يقتل الأبطال مفترسا لا توهننى فإنى النـاب والظفر
وفارسا تحذر الأبطال صولته صن حد عبدك فهو الصارم الذكر
هو الذى لم تشم يمناك صفحته إلا تأتى مراد وانقضى وطر

ثم حاول فى قصيدته هـذه أن يعتذر عن نفسه ، و يلقى التبعة على ليبر بر الخائنين ، و يصف بأبدع أسلوب مبلغ الحزن الذى تملكه من جراء غضبه عليه فقال :

لم يأت عبدك ذنبًا يستحق به عتبًا وها هو قد وافاك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوى دغل وفى لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غش ، وحبهم بغض ، ونفعهم إن صرفوا ضرر
يميز البغض فى الألفاظ إن نطقوا و يعرف الحقد فى الألحاظ إن نظروا
ـن يحرق القلب نفث من مقالهم فإنمـا ذاك من نار القلى شرر

مولاى ! دعوة مظلوم به ظمأ ... برح، وفى راحتيك السلسل الخصر
أجب نداء أخي قلب تملكه ... أسى، وذى مقلة أودى بها السهر
لم أوتَ من زمنى شيئًا أسر به ... فلست أعهد ما كأس ولا وتر
ولا تملكنى دل ولا خفر ... ولا سبى خلَدى غنج ولا حور
رضاك راحة نفسى -لا فجعت به- ... فهو العَتاد الذى للدهر أدخر
وهو المدام التى أسلو بها فإذا ... عدمتها عبثت فى قلبي الفكر
ماتركى الخمر من زهد ولا ورع ... فلم يفارق - لعمرى - سنى الصغر
وإنما أنا ساع فى رضاك، فإن ... أخفقت فيه فلا ينسأ لى العمر
أجل ولى راحة أخرى أسر بها ... نظم الكُلى فى القنا والهام تنتثر
كم راحة لى فى الأعداء واضحة ... تفنى الليالى ولا تفني لها الذكر
سارت بها العِيس فى الآفاق فانتشرت ... فليس فى كل حى غيرها سمر

* * *

لازلتَ ذا عزة قعساء شامخة ... لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وَزَرٌ من حسن رأيك لى ... آوى إليه، فنعم الكهف والوزر»

وقد أثر هذا الشعر - بروعته وسمو معانيه وانسجام عباراته - فى نفس المعتضد، وأخذ يرق تدريجًا، ويعطف على ولده، كما عطفه عليه رجل معروف بالصلاح والورع من رجال « زندة » أكثر من التوسلات

والشفاعات التى رق لها قلبه ، ولان جانبه ، فأباح للمعتمد العودة إلى إشبيلية ، وصفح عنــه ، ولــكن « مالقة » قد أفلتت من يده بحيث لاسبيل إلى رجوعها، واستيقظ «باديس» من ذلك الحين وأخذ فى الاهبة والاستعداد والحيطة حتى لايحاول «المعتضد» مباغتها والانقضاض عليها مرة أخرى . ومما يقال عن ملك «غرناطة» أنه كان فى ثورة غضبه لايرحم، وأنه كان ينتقل من مكان إلى مكان للانتقام من الثائرين والزعماء ، وهو محاط بجلاديه ، وأنه أودى بحياة الآلاف من المساكين الذين ثاروا عليه وأبادهم تقتيلا وتمثيلا ، وإحراقا وتنكيلا ، فلم يعد أحد من الثائرين الــكارهين لحــكمه يرغب فى إعادة الــكرة عليه ثانية .

* * *

ووجد الناقمون عليه فى وسط هذه المحنة الشديدة والعذاب المستأصل سبيلا لإثارة الخواطر حين آنسوا أن نفوذ اليهود فى بلاط «غرناطة» قد بلغ النهاية، فإنه بعد أن مات «إسماعيل» خلفه ولده «يوسف» الذى عنى أبوه فى حياته بتعليمه كثيراً من العلوم ، وأعده إعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة بعده، وقد اضطلع بمنصب كبير الوزراء فى الدولة ، ولديه كل المؤهلات العلمية والتثقيفية. إلا أنه كان يعوزه لين الجانب ،والتواضع الذى كان يكسب والده — مع سمو المركز — صفح الأمير ورضا الجميع عنه. ولم يكن «يوسف» على شاكلة أبيه من هذه الناحية ، بل كان يظهر بمظهر أميره

« باديس » ممتطيًا جواده إلى جانبه ، و ركابه بإزاء ركابه ، وشارته فى اللبس كشارته . حتى إن الناظر إليهما لايفرق بين الأمير و وزيره .

بل لقد كان «يوسف» فى الحقيقة ملكا فوق الملك، وكان هو المسيطر المتسلط على «باديس» لعكوفه على شرابه، وانغماسه فى لهوه و بطالته . ولكى يستمر نفوذه وسلطانه على المملكة كان قد أحاط « باديس » بجواسيس وعيون من نساء وفتيان قصره ، استغلهم بالمال ، وغمرهم بالإحسان ، فلا يكاد «باديس» ينبس أو يتنفس إلا وهو يعلم ذلك.

* * *

وذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه وأجداده ،وأنه كان مستهتراً يحتقر الأديان جميعًا ، وقالوا : إنه لم يكن يهوديا إلا بالاسم فقط ، وكان – فى حملاته على الدين الموسوى – لايكاد يصرح بالطعن، أما الدين المحمدى فكان يجهر بالغض منه . ويعيب أحكامه ، هذا إلى أنه كان يحرف كثيراً من آيات القرآن ، يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى العرب والبربر بل واليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه ، وآرائه اللادينية وقلة إنصافه ؛ وعدم رعايته العدل ، وحام حوله كثير من الشبه والظنون . وأصبحت تعزى إليه تهم وتذاع مخاز وفضائح . واستهدف لكثير من الألسنة ، وحمل كثيراً من جمهرة المسلمين على معاداته ، بينهم الزاهد « أبو إسحاق » الألبيرى الذى

ذاعت قصيدته فى الإغراء باليهود .

عصف الشباب بهذا الرجل ، فسولت له نفسه أن يتطلع لمركز فى البلاد يرى نفسه – لمنصبه وسابقته فى الزهد والورع – أهلا للحصول عليه ، فخيب « يوسف » آماله ، فرحل وهو يحمل فى نفسه من الحقد والكراهة له ولليهود ماحفزه على أن ينظم فيهم قصيدته التى يقول فى مطلعها :

« ألا قل لصنهاجة أجمعين … بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مِقَة مشفق … يعد النصيحة زُلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة … تقَر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً … ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخَوْا … وتاهوا، وكانوا من الأرذلين»

ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب … لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم … ولكنّ منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالأُلى … من القادة الخيرة المتقين[1]
وأنزلهم حيث يستأهلون … وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا … ولم يستطيلوا على الصالحين»

---

(١) فى هذا البيت شىء كثير من الركاكة فى قوله: « بالأُلى من القادة الخيرة المتقين » ولكنها مغتفرة لما فى تاليه من تتمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة .

ومنها يخاطب السلطان :

«أباديس[1] أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفي عنك مايعبثون وفي الأرض تضرب منها القرون؟
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين ؟
وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبني وهم يهدمون ؟
وكيف استنمت إلى فاسق وقارنته، وهو بئس القرين؟»

ومنها :

« وإني حللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان أمين »

ومنها :

« وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أمين خؤون
ويأكل غيرهم درهما فيَقْصى، ويُدنَوْن إذ يأكلون.
وقد ناهضوكم إلى ربكم فما يمنعون وما ينكرون !»

ومنها :

« ورخم قردهم داره وأجرى إليها نمير العيون

(١) الهمزة للنداء وباديس هو باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة ، الذي يتحدث عنه «دوزي» في هذا الفصل . وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة ، قال ابن خلدون . « ولي باديس ملك غرناطة بعد أبيه واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغزله الذمي ، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين وار بعمائة وقتل معه خلقا من اليهود ، وتوفى «باديس» سنة سبع وستين وار بعمائة (ارجع إلى ص ٩٤)

وصارت حوائجنا عنــده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منــا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون (١)

* * *

ولو قلت فى ماله : إنه كما لك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قُربة وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل عِلق ثمــين
وفرق عراهم وخــذ مالهم فأنت أحق بمــا يجمعون
ولا تحسبنْ قتلهم غدرة بل الغدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا –عندنا– عهدهم فــكيف نلام على الناكثين
وكيف تــكون لنا همّة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم كأنا أسأنا وهم محسنون
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنت رهين بمــا يفعلون
وراقب إلهك فى حزبه فحزب الإله هم المفلحون »

وكان أثر هــذه القصيدة فى نفس « باديس » الذى أولاه ثقة لاحد لها بالغا الغاية ، كما أنها أثرت تأثيراً عميقاً فى نفوس البربر ، فثاروا للانتقام ، وحلفوا ليقتُلنَّه . وأذاع زعماء المؤامرة أن اليهودى انضوى تحت لواء المعتصم « أمير المرية » وكانت العلاقة بين الغرناطيين و بينه

---

(١) يرى القارىء فى هــذا البيت أسلوبه الشيطانى فى استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ماأصاب الدين من ضعف وأدى بذلك اليهودى إلى السخرية منه .

علاقة حرب لاسلم . وقد يتساءل بعض الناس ممن كانوا أقل تصديقاً : ما الفائدة التى يجنيها « يوسف » من خيانته ملكا وثق به ، وسلم إليه قياده ، وجعله صاحب السلطان التام دونه فى المملكة ؟ لقد أشاعوا حينئذ أن اليهودى يريد أن يمكن المعتصم من الاستيلاء على المملكة ، ثم يعود هوفيقتل «باديس» ويتبوأ العرش مكانه ، ولسنا فى حاجة لأن نبين أن كل هذه الاشاعات من قبيل الأراجيف والوشايات المحضة . وإذا نظرنا إلى الواقع رأينا أن البربر كانوا يودون خلق الأسباب التى تدعو إلى إبعاد اليهودى عن الحكم ، والاستيلاء على مايملكه اليهود من أموال وثروات يحسدونهم عليها ، ويتمنَّوْن أن لو كانت فى حوزتهم . ولما وجدوا أنهم قد ظفروا بالأسباب التى تبرر الفتك باليهود ثاروا جميعًا ، وهاجموا قصر الامارة مع العامة ، ودخلوا فى طلب اليهودى ، فزعموا أنه اختفى فى بيت فحم وسوَّد وجهه ، يريد أن يتنكر ويلبس عليهم صورته ، فعرفوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة [1] .

---

(١) مذبحة اليهود

ذكرنا فى كتابنا « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » تعليقاً على القصيدة التى أنشأها أبو إسحق الفقيه مايأتى :

« ولا يفوتنا بعد كل ماذكرناه أن نبين أثراً فعلياً واضحاً من آثار تمكن العقيدة فى نفوس أصحابها ، متى وجدت محركا قادراً على تصريفها . واستفزاز العاطفة الدينية فيها . فإن إلقاء نظرة سريعة على قصيدة أبى اسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذى

ثم عمَدت «صنهاجة» بعد ذلك إلى قتل سائر اليهود ، فقتل فى يوم منهم مقتلة عظيمة ، ونهبت دورهم . وقد بلغ عدد من قتـل منهم

أحدثته فى نفوس الجمهور ، ليـكفى وحـده فى إثبات ذلك ، وإنك لترى فيها مبلغ التحمس الدينى العظيم ، وكيف أنها كانت السبب فى القضاء على مايربى على أكثر من أربعة آلاف يهودى ، ونهب أموالهم ، وتدمير منازلهم ، وكانت السبب فى حدوث تلك المذبحة الهائلة فى القرن الخامس الهجرى سنة ٤٥٩ ﻫ .

وقد دعا صاحبها إلى قولها أن يوسف بن نغذلة اليهودى الوزير وشى بأبى اسحق — قائل هذه القصيدة — فأقصاه السلطان عن بلاده — قالوا وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ — فوجد أبو اسحق من ذلك دافعاً إلى إنشاء تلك القصيدة البليغة . وقد ملأها تحريضاً وأفعمها حججاً وبراهين . أفلح فى التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته . وما زال يتفنن فى ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور الساذج حماسة . وهجم على ذلك الوزير فقتله فى قصر السلطان نفسه — وليس من شك فى أن أبا اسحق بذل كل مواهبه فى الضرب على النعمة الدينية وإظهار التفجع الشديد على ماانتاب الدين من التهاون به ، وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعانى وغزارتها مع دقة فى التعبير عن أغراضه وخوالجـه بكلام فخم يتطاير حماسة ويتأجج ناراً . وشعر صارخ :

« خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان »

وبهذا استطاع قائله أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود (خصومه) فرض لامناص من أدائه . وواجب حتم لايصح السكوت عنـه . وأنهم إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى ، فهم خليقون أن يتداركوه فى الحال ، حـتى لاتصب عليهم لعنـة الله . أو يحيق بهم غضبه . فيخسف بهم الأرض . أو تنقض عليهم السماء . وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التى تستفز أخفى العواطف الدينية الـكامنة

أربعة آلاف يهودى ذهبوا ضحية العـداوة الدينية (٣٠ ديسمبر سنة ١٠٦٦)

إلا استخدمها . ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيرتها.
كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل لسهولته إلى حد الركاكة فى بعض الأبيات،
مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه وإن شئت فقل : وأروعه .

* * *

وهكذا استفزت الناس هذه القصيدة البليغة إلى الفتك باليهود وأخذ البرىء منهم
بذنب المسىء . وكان من نتائجها تلك المذبحة الـكبيرة التى أشرنا إليها والتى لا يؤخذ
بجريرتها إلا أبو اسحق ــ ناظمها ــ الذى عرف كيف ينتقم لنفسه عن طريق التشيع
للدين والتظاهر بمظهر المتفانى فى الدفاع عنه .

الفصل الثامن

لم تكن الحال فى بقية أنحاء « إسبانيا » الإسلامية خيراً منها فى البلاد الجنوبية ، فقد حمى وطيس النزاع من جرّاء بقايا الشئون الخلافية ، وأخذ سيل الفتن يطغى على وسط الجزيرة وشرقيها وغربيها حتى كاد يجرف أمامه جميع الممالك الإسلامية المنبثة فى شبه الجزيرة .

وكان قد مضى على الممالك المسيحية نصف قرن وهم بشئون بلادهم مشغولون عن غزو الممالك الإسلامية ، و بدأت الحال فى سنة ١٠٥٥ م تتحول ، فاستطاع « فرديناند » ملك « قشتاله » و « ليون » أن يوجه جميع جيوشه لقتال المسلمين ، الذين كانوا – على مايظهر – لايستطيعون أن يقاوموا خصومهم مقاومة جدية ، وهكذا أصبح الفوز حليف المسيحيين ، فقد كان لهم من الروح الحربى ، والحمية القومية ، والغيرة الدينية مالم يكن عند المسلمين . فكانت حروب « فرديناند » سريعة ، وانتصاراته متلاحقة ، فانتزع من « المظفر » ملك « بَطَلْيَوْس » سنة ١٠٥٧م مدينتين وأخذ من ملك « سَرَقُسْطة » جميع الحصون والمعاقل التى تقع فى الجنوب، وشن الغارة على المأمون صاحب «طليطلة» وزحف بجيوشه ، ولما كان المأمون أضعف من أن يثبت للعدو ، فقد رأى من الحكمة أن يتقدم إلى «فرديناند» عند قدومه بالهدايا الثمينة من الذهب

والفضة والأحجار الكريمة ، ويعرض عليه ولاءه ، ويؤدى له الجزية كما فعل ذلك من قبل ملكا بَطَلْيَوْس وسرقسطة .

* * *

وجاء — بعد هؤلاء — دور المعتضد ففى سنة (١٠٦٥) أحرق «فرديننـد» قرى إشبيلية ، وباتت الممالك الاسلامية جميعها فى أشد حالات السوء والضعف مما جعل المعتضد — وهو أقوى ملوك الأندلس — يرى من الحكمة أن يحذو حذو المأمون فى إعطاء الإتاوة لفرديننـد ، فمضى إلى معسكره . وقدم إليه هدايا ثمينة وتوسل اليه أن يبقيه على ملكه . ولما رأى من المعتضد جلال الشيخوخة ، وتغضن الجبين ، واشتعال رأسه شيباً وأنه متهدم القوى ، لاح له أنه بمنجاة عن المكر والخبث ؛ وكان المعتضد لما يعد السابعة والأربعين من عمره ، ولكن الهموم وشدة الطمع والجشع ، وكثرة العمل ، وفرط الظلم ، وتأنيب الضمير — على مايُظَنّ — كل أولئك ، قد أحال لونه ، وأبدى على معارف وجهه مظاهر الشيخوخة فى إبان الكهولة . فلا غرابة إذا رحمه ملك « قشتالة » وأثرت شيخوخته فى نفسه ، ولكن هذا لم يرتح إلى دفع الإتاوة ، ورأى أن يستشير أهل مملكته ويستفتى فيها الفقهاء ، فجمعهم ، ليرى رأيهم فيما يكون من الشروط ، وأن يقرروا من الرأى مايعرضونه عليه ، فاجتمعت كلمتهم على أن يدفع ملك إشبيلية جزية سنوية . وأن يسلم إلى

رسل يرسلهم إليه « فردينند » جثمان القديسة « جوست » العذراء التى استشهدت فى عصر الاضطهاد الرومانى .

فقبل المعتضد الشرطين ، وانسحب « فردينند » بعسكره ، ولما وصل إلى « ليون » أوفد إلى « إشبيلية « القينوس » أسقف العاصمة و « أردو » أسقف « استورقه » وأوجب عليهما أمرين .

الأول نقل جثمان القديسة ، والثانى تسوية مسألة الجزية .

وأسف «القينوس» ـ مع زميلين له ـ حيث لم تسفر أعمال التنقيب التى أجريت للعثور على رفات القديسة ، عن نتيجة ، مما حمل القينوس أن يقول لرفيقيه : إنكما – أيها الأخوان – تريان أنه إذا لم تسعفنا الرحمة الألهية ، فسنعود من هذه الرحلة الشاقة، وقد ضاع كل ماعلقناه عليها من أمل ، والظاهر أنه لا بد لنا من أن نستلهم المولى سبحانه وتعالى ، ونتجه إليه بالصلاة والصيام ثلاثة أيام نسأله فيها الهداية إلى هذا الرفات الدفين ، والكنز الثمين ، الذى نبحث عنه فى خبايا الأرض ، وبناء على هذا العهد الذى عاهدوا الله عليه أمضوا ثلاثة أيام صائمين مصلين داعين حتى أثر ذلك فى صحة « القينوس » وكانت معتلة ، وبخاصة منذ قدم إلى « إشبيلية » ، وفى صبيحة اليوم الرابع جمع الأسقف رفاقه ثانية ، وقال لهم : « إن رحمة الله لم تشأ أن نرتد

من رحلتنا هذه بالخيبة والفشل ، فواجب علينا أيها الرفاق المحبوبون أن نشكر الله من صميم قلوبنا ، فقد تم أمره ، ونفذ قضاؤه بأنكم ستحملون إلى وطنكم مالايقل قدراً عن رفات القديسة « جوست » التى حرم الله علينا إخراجها من هذه الأرض ، ذلك هو جثمان السعيد « ايزيدور » الذى حمل التاج الأسقفى إلى هذه البلاد ، والذى زان — ببلاغته ومنشآته — إسبانيا كلها . وقد كنت اعتزمت — أيها الإخوان — أن أقضى الليلة ساهراً ابتهل وأدعو وأصلى لله ، ولكن خانتنى قواى ، فما كدت أجلس لحظة حتى بلغ منى الإعياء مبلغه ، فأخذتنى سنة من النوم ، فرأيت كأن شيخاً عليه سمة الرهبان يقول لى : «لقد عرفت ماجئت أنت ورفقاؤك من أجله ، وقد أبت الإرادة الإلهية أن تحرم المدينة من رفات القديسة « جوست » فيخيم على ربوعها الحزن ، وينتابها الألم ، كما أبى اللطف الإلهى إلا أن يهبكم جثمانى رحمة بكم حتى لاتعود أنت ورفقاؤك بأيد أصفار من هذه الأمنية التى طالما تكبدتم من أجلها المشاق . »

فقلت : «ومن تكون أنت ؟» قال : «أنا بدأت كبير قساوسة هذه المدينة ، وانتهيت طبيب إسبانيا كلها ، أنا إيزيدور » واختفى شبحه عنى — على أثر هذه الكلمات — واستيقظت فصليت شاكراً لله ، ودعوته

أن يعيد هــذه الرؤيا على مثنى وثلاث إن كانت وحيًا من لدنه ، فعاودتنى الرؤيا مرتين كان الشيخ فى كل منهما ، يوجــه إلىّ نفس عباراته الأولى بعينها ، وزاد فى المرة الثالثــة أن أرانى موضع قبره . وقد ضرب عليه بعصا فى يده ثلاثا وهو يقول : « هنا ، هنا ، هنا . تجد جثمانى ، ولا يقعن فى خلدك أننى شبح يخدعك ، وستوقن أن ماأنبأتك به هو الحق ، وآية ذلك أن رفاتى لايكاد ينقل من موضعه حتى ينزل بك داء يستعصى على نطس الأطباء شفاؤه ، ثم تموت ، وتأتى إلى عالمنا متوجا بتاج البررة الصالحين . »

واختفى بعد أن أتم هذه الكلمات.

وذهب « الفينوس » وزملاؤه إلى قصر « المعتضد » وقص عليه رؤياه . واستأذنه فى نقل رفات « إزيدور » عوضا عن نقل رفات القديسة « جوست » .

وقد ترك كلام الأسقف فى نفس « المعتضد » أثراً غريباً ، ذلك الرجل المتشكك الساخر الذى لايدين بغــير شيئين اثنين : هما الخمر ، والملك ، ولــكنه من باب الدهاء قد أصغى باهتمام إلى كلام الأسقف . وقدقال له بعد أن فرغ من كلامه بلهجة تشف عن حزن عميق : « إنى آسف جد الأسف، فانى إن أعطيتك رفات « إيزيدور » فماذا يبقى لى بعد ذلك ؟ على أنى أيها الشيخ الوقور لا أمتنع عن تنفيذ رغباتك ،

وليكن ما أردت ، قم فنقّب وابحث عن القبر ، وانقل رفات الراقد فيه على الرغم مما يساورني بعد ذلك من أجله . »

وكان ذلك العربي الداهية، والثعلب الماكر، يعرف كيف يستفيد من شفقة المسيحيين، ولو أنه كان يسخر من فرط هذه الشفقة إذا خلا مع نفسه.

وقد أحس من نفسه أن عليه جزية واجبة الأداء ، فرأى أن يتظاهر بأنه شديد الاهتمام ببقايا « إيزيدور » التي لا يفرط فيها إلا مرغما كارهًا ، والتي يعدل إخراجها من قصره انتزاع روحه من جسده

* * *

وعوّل على استغلال هذا الموقف لفائدته ، فكان يفعل فعل المدين الذي إذا ما ألح عليه دائنوه وأحرجوه ، عرف كيف يدخل في الحساب ذلك الأثر الخالد النادر ويغالي في ثمنه ، ويحمل دائنيه على قبوله . وهكذا لعب « المعتضد » دوره إلى النهاية ، فإنه عندما أراد « استورجه » وقد توفي أخيراً زميله « الفينوس » أن يأخذ الأهبة لمبارحة « إشبيلية » وحمل رفات « إيزيدور » في مركب جاء « المعتضد » ووضع على التابوت غطاء من الديباج المحلى بالنقوش والكتابات العربية البديعة . وجعل يصعد الزفرات ، ويتصنع الحسرات ، وهو يقول :

« هأنت ذا تبرح المدينة يا « إيزيدور » المبجل ، وأنت تدري ما بين بلدينا من أوثق روابط المودة والعلائق .

وكان العام التالي (١٠٦٤) من أسوأ الأعوام وأشدها على

المسلمين ، فاضطر أحد أمرائهم إلى الاستسلام والنزول على حكم « فريدينند » بعد أن شدد عليه الحصار ستة أشهر ، وقضت شروط الصلح أن يعطى للظافر خمسة آلاف من المدافعين ، وأن يغادر الباقون مساكنهم غير مزودين إلا بما يلزمهم من النقود لسفرهم ، وفضلا عن ذلك فقد أمر جميع المسلمين النازلين بين « دويرو » و «منناجو » بأن يجلوا عن بلادهم .

ووجه « فريدينند » بعد ذلك قوته إلى مملكة « بلنسية » ، وعليها ذلك الضعيف المتراخى « عبد الملك المظفر » الذى خلف أباه « عبد العزيز » سنة (١٠٦١)

وحاصر «القشتاليون» العاصمة ، ولكنهم ـ بعد أن وجدوها منيعة ـ رأوا أن يلجئوا إلى الحيلة ليخلوا العاصمة من الحامية ، فتظاهروا بالانسحاب ، فخرج البلنسيون فى ثياب العيد يتعقبونهم ، وهم يظنون أن الانتصار أمر سهل . على أن هذه الجرأة قد كلفتهم ثمناً باهظا ، فقد باغتهم القشتاليون بالقرب من الطريق المؤدية من بلنسية إلى « مورس » وقتلوا أكثر رجالهم ، ونجا ملكهم على ظهر سابح ، وكان الاستيلاء على قلعة « باريسترو » وهى من أهم القلاع فى الشمال الشرقى بعد نكبة أخرى مروعة .

وقدسقطت هذه القلعة فى يد جيش من «النورمنديين» كان يقوده « غليوم دى منترى » كبير قواد البابا ، ويطلق عليه فى روايات الفروسية اسم « أوركونى » أى القصير الأنف ، وكانت خاتمة المقهورين خاتمة أليمة ، فقد سلم جنود الحامية على شريطة الإبقاء على حياتهم،ولكنهم —حين خرجوا— من الحصن قتلوا على بكرة أبيهم، ولم يكن حظ العامة أحسن من حظ الجند ، فقد أمنوهم أيضًا على حياتهم . وبينما هم يتأهبون للرحيل من المدينة ، إذ نظر « غليوم دى منترى » فراعه كثرة عددهم ، واستولى عليه القلق والاضطراب ، فمنعهم من الخروج وأمر رجاله أن يصفوهم صفوفا متقاربة ؛ وأعمل فيهم القتل ، ولم يكف عن المذبحة إلا بعد أن قتل منهم ستة آلاف رجل ، ثم أمر البقية الباقية أن يعود كل إلى منزله ومعه زوجه وولده ، وذهب «النورمنديون» واقتسموا—فيما بينهم—كل شىء وصلت إليه أيديهم،وأصاب كل فارس لنفسه منزلا —كما روى ذلك بعض مؤرخى العرب فى ذلك العهد — فكان له كل ما فى المنزل من أزواج وبنات وأولاد ونقود ومتاع ، وكان له بحكم الاستيلاء والأسر أن يفعل برب الدار ما أراد من ضروب القهر ، وصنوف التعذيب حتى يضطره للإذعان والاعتراف عما عَساه أن يكون قد أخفاه من مقتنيات وأموال ، وكان من الخير

الكثير للمسلم أن يقضى نحبه خلال هذا التعذيب ، لأن حياته كانت مقرونة بما لا يطاق من الألم والتبريح والعذاب المطرد . ومن أشد ما كان يفعله هؤلاء من النكاية والعار والفضيحة للمسلمين أنهم كانوا يهتكون أعراض الزوجات والبنات أمام أزواجهم وآبائهم وإخوتهم وعلى مرأى منهم ، وهم موثقون بالسلاسل والأغلال ليكرهوهم على شهود هذه المناظر الفاضحة المخزية . وكان أولئك الأسرى المساكين لا يملكون بإزاء هذه الحالة المخزية المحزنة غير صياحهم وإسبال دموعهم الغزيرة هلعاً وتأثراً من تلك المناظر التى كانت تتحطم بإزائها قلوبهم ، وتنشق لها مرائرهم .

* * *

ولم تدم هذه الحوادث طويلا ، فقد كان من حسن حظ المسلمين أن غادر « غليوم » وجنوده « أسبانيا » عائدين إلى بلادهم ، حيث ينعمون بما أصابوه من مغانم وأموال ، ولم يبق فى المدينة غير حامية ضعيفة،وقد أمكنت الفرصة « المنذر » ملك «سرقسطة»من الاستيلاء عليها حيث أمده « المعتضد » بخمسمائة فارس فاستولى عليها فى ربيع السنة التالية .

وكان « فردينند » يواصل جهوده للاستيلاء على « بلنسية » ولذلك كان مركز صاحب هذه المدينة فى نهاية الحرج والخطورة بالرغم من أن صهره « المأمون » أمده بما فى استطاعته من المدد الكافى ، ولكن

الذى نفَّس عنه هذا الضيق مرض « فرديننـد » واضطراره للعودة إلى «ليون» .على أنه –بعد سفر عدوه المفاجىء–لم يدم سروره،ولم يسكن فزعه ، ولم يهدأ روعه ، فقدخلعه صهره من المملكة ، وأدمجها فى مملكته بعد أن اعتقله بعض حصونه ، ولم يمض على هذا العاهل المريض والعدو المفزع الرهيب غير برهة من الزمن يسيرة ثم قضى نحبه ؛ فتنفس المسلمون بموته الصعداء ، وقد كان « فرديننـد » مثالا حسناً ، وقدوة صالحة لغيره من الملوك فى البسالة والإقدام والتقوى وسلامة الضمير ونقاء الجيب ، وختمت حياته الحافلة الرائعة، بخاتمة حسنة رائعة، وذلك أنه حين أسرع بالعودة إلى بلاده وصل إلى « ليون » يوم السبت ٢٤ ديسمبر فذهب –من فوره– إلى الكنيسة،وصلى فيها صلوات وهبها إلى روح القديس « إيزيدور » ، ودخل قصره فلبث فيه بضع ساعات ، وبدأ يشعر إلى درجة اليقين أن حينه قد حان ، وأن ساعته الأخيرة قد دنت ، فعاد –حين أرخى الليل سدوله– إلى الكنيسة حيث كان القساوسة يحيون ليلة عيد الميلاد بترتيلاتهم وأنغامهم الشجية ، وبينما كانوا يرتلون الصلاة الأخيرة فى سحر تلك الليلة ، على نظام الطقوس فى « طليطلة » حسبما كان متبعاً فى ذلك الحين ، شارك « فرديننـد » القساوسة فى صلواتهم ، ومزج صوته الضعيف بأصواتهم ، وطلب إليهم –عند طلوع الفجر– أن يسمعوه «القداس »، وبعد أن نال سر القربان المقدس ، خارت قواه ،

فأقيم إلى سريره ، وهو يمشى غير مستمسك معتمداً على بعض رجال الحاشية ، وفى صبيحة اليوم التالى ارتدى ملابسه الملكية ، وأخذ إلى الكنيسة فخلع المعطف الملكى والتاج ؛ وجثا على ركبتيه أمام المذبح ، وقال بصوت واضح :

« لك القوة والملك يارب . أنت ملك الملوك . لك ملك السموات والأرض . إننى راد إليك ما أعطيتنى من الملك الذى وليته ما شاءت إرادتك ، ضارع إليك أن تدخل فى وسيع رحمتك روحى الذى طهرته وخلصته من أدران هذا العالم . »

ثم سجد على الأحجار يجأر بالبكاء ، ويستغفر من ذنوبه ، وأمر عليه يده أحد القساوسة فنال المسحة الأخيرة ، وسجى بالمسوح ، وغطى رأسه برماد ، وأخذ يرتقب الموت وهو مملوء إيمانا ويقينا وطمأنينة .

وفى الغد « الثلاثاء » أسلم الروح ، أو رقد الرقدة الأخيرة الهادئة فكانت تعلو محياه ابتسامة وادعة مشرقة .

وأعقبت هذه الوفاة ، وفاة أخرى هى بطبيعة الحال أقل شأنا من الأولى[1] ، فقد مات « المعتضد » يوم السبت ٢٨ فبراير سنة (١٠٦٩) وكان قبل عامين من وفاته قد أدمج « قرمونة » فى مملكته ، واقترف جريمة قتل جديدة ، إذ طعن بخنجر فى يده رجلا من « إشبيليه » يدعى « أبا حفص » .

---

(١) هكذا يرى دوزى .

وما كان يدور بخلد « المعتضـد » أن أيدى القشتاليين ستمتد يوماً إلى ذلك التاج الذى وضعه على رأسه بقوة الحيلة والخيانة والغـدر .

وفى آخر سنى حياته امتلأت رأسه بالمخاوف ، والأفـكار السوداء ، وقد تحققت نبوءة بعض الناظرين فى ميلاده من المنجمين ، كما أشرنا إلى ذلك آنفا ، وهى النبوءة القائلة إن ناساً يولدون خارج البلاد يثلون عرش مملكته ، وكانت فكرته متجهة دائماً إلى أن أولئك الذين سيقضون عليها هم البرازلة من البربر المقيمين بجواره ، وما زال بهم حتى أفناهم جميعاً . وخيل إليـه أنه قهر حكم الكواكب ، وتغلب على مخاوف التنجيم . ولـكنه بدأ يرى أنه كان مخدوعاً فى وهمه هذا ، ففى العدوة المقابلة لبر الأندلس على المضيق نزحت طائفة من البربر من الصحراء ، وزحفوا على أفريقية فاتحين فى سرعة مدهشة ، وفى شـدة بأس تشبه ما كان عليه سلف الأمة فى فتوحاتهم . هؤلاء هم البربر الذين أطلق عليهم اسم المرابطين ، وهم الذين كان يتنبأ بظهورهم « المعتضد » ويتوقع أنهم الفاتحون لأسبانيا فى المستقبل ، وكانت تساوره المخاوف من جانب أولئك الأقوام ، ولايستطيع بحال من الأحوال أن يمحص الفـكرة أو يبدد الأوهام التى كانت تنتابه من جهتهم .

وورد عليه ذات يوم كتاب من « سقوت » صاحب « سبته » يقول له فيه : إن طلائع المرابطين عسكرت فى رحبة « مراكش » . فاهتم لهذا

النبأ حتى قال له أحد وزرائه : «كيف يزعجك يامولاى هذا النبأ ويقلقك وبيننا وبينهم المهامه الغبر وأمواج البحر الخضر .»

فقال المعتضد بصوت مختنق حزين :

«إنى على يقين من أنهم سيصلون إلينا يوماً ما. وربما تشهد بنفسك هول ذلك اليوم ، فاكتب من فورك إلى حاكم الجزيرة ، ومره أن يزيد فى تحصين جبل طارق ، وأن يكون شديد اليقظة ، وعلى تمام الأهبة والاستعداد ، وأن يراقب عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من وراء المجاز .»

ثم أخذ يصعد بنظره فى بنيه ويصوب ويقول: «ليت شعرى من منا ستحل به النكبة أنتم أم أنا ؟» فقال ولده المعتمد : «لا بل أنا جعلنى الله فداك الذى أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت .»

وقبل موته بخمسة أيام ساءت حاله ، وأخذ المرض يدب فى جسمه ، والضعف يتسرب إلى عقله ، فاستدعى أحد مغنيه وكان من الصقلب . وأمره أن يغنيه بما شاء من الأبيات ، وكان يرمي إلى التفاؤل بما يختاره المغنى . ويتفق مع توقيع النغم ، فأخذ هذا يوقع ألحانا تجمع إلى الطرب الحزن والألم فى آن واحد ، واللغة العربية من أغني اللغات بهذا النوع ،

وكان الشعر الذى اتفق للمغنى أن يوقع عليه الغناء يدور حول معنى آن الحياة وأوقات السرور سريعة الزوال . وأنهما إلى نهاية وشيكة

عاجلة ، وأنه ينبغى أن نحتسى المدام، ونمزج ابنة الـكرم بابنة المزن.

وكانت القطعة التى لحنها المغنى تتألف من خمسة أبيات ، ومن غريب الاتفاق أن عدد هذه الأبيات ، هو بعينه عـدد الأيام التى عاشها « المعتضد » بعد سماعها ، يضاف إلى ذلك أنه بعد مرور يومين على سماعها أى فى يوم الخميس ٢٦ فبراير جرح المعتضد فى عاطفته البنَوية جرحا داميا،وقد كان–على قساوة قلبه–شديد الحب لبنيه، فرزىء بموت ابنته التى كان يحبها إلى درجة العبادة، وشيعها إلى قبرها يوم الجمعة ، وقلبه يتسعر حزنا (١) .

---

(١) لما ماتت رثاها ابن زيدون بهذه القصيدة التالية :

« سرك الدهر وساء　　فاقنِ شكرا وعزاء
كم أفاد الصبر أجراً　　واقتضى الشكر نماء
أنت ان تأس على المف　　قود إلفا واجتباء
فاسل عنه غيرة واحـ　　تمل الرزء إباء
أيها « المعتضد » « المنـ　　صور » مليت البقاء
وتزيدت مع الأ　　يام عزا وعلاء
إنما يكسبنا الحز　　ن عناء لا غنـاء
أنت طب أن داء الـ　　موت قد أعيا الدواء
فتأس ، إن ذاك الـ　　خطب غال الأنبيـاء
وسيفنى الملأ الأعـ　　لى إذا ما الله شاء
حبذا هدى عروس　　دفنها كان الهداء
عمرت حينا وماء الـ　　مزن شكلين سـواء

و بعد أن ووريت التراب وعاد من الجنازة شكا وجعاً فى رأسه أليما ، ودخل القصر وفيه اعتراه نزيف دموى كاد يودى بحياته ، وأشار عليه طبيبه بالفصد ولكن المعتضد تمردعلى طبيبه فأرجأ الفصد إلى الغد فكان هذا من الأسباب التى عجلت بوفاته حيث اشتد النزيف فى اليوم الثانى فانحبس لسانه ، ثم لفظ النفس الأخير .

وخلفه ابنه « المعتمد » الذى سنقدمه للقارىء فى الفصل التالى !

ثم ولت فوجدنا أرج المسك ثناء
جمعت تقوى وإخبا تا وفضلا وذكاء
ستوفى من جمام الـ كوثر العذب رواء
حيث تلقي الأتقياء الـ سعداء الشهداء
هان ما لاقت عليها أن غدت منك فداء
غنم أحبابك أن تبـ قى وان عموا فناء
فالبس الصنع ملاء واسحب السعد رداء
ورث الأعداء أعما رهم والأولياء »

أنظر ص (٧٥) من ديوان ابن زيدون شرح المترجم وعبد الرحمن خليفة.

الفصل التاسع

ولد « المعتمد » عام (١٠٤٠) وقلده أبوه بعض الولايات الصغيرة وهو فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، وبعد برهة يسيرة ولاه قيادة جيش « إشبيلية » فحاصر « شلب » وفيما هو محاصر لها اتصل به فتى أفاق كانت سنه لا تعلو على سن المعتمد بأزيد من تسع سنين ، وقد واتاه الحظ باتصاله به ، ونبه شأنه فيما بعد ، ذلك الفتى هو « ابن عمَّار » كان مولده فى قرية من أعمال « شلب » فى بيت خامل الذكر ، لاحظ له فى الرياسة من قديم الدهر، نشأ فى مدينة «شلب» هذه صغيراً، وتعلم فنون الأدب على جماعة من أهلها ، ثم رحل إلى «قرطبة» فتأدب بها ، وبرع فى صناعة الشعر ، وما برح يجوب أنحاء الأندلس يتكسب بالشعر ، وينظم قصائد المدح ، يسترفد بها كل من يتوسم فيه الأريحية والعطاء ، لا يخص بشعره الملوك دون السوقة ، كما يفعل النابهون من شعراء عصره الذين يرون من الزراية عليهم أن ينظموا الشعر فى غير الملوك والنابهين من العظماء .

كان هذا الشاب الناشىء والشاعر المغمور ، بنزعته هذه ورثاثة ملبسه وبما يلبسه من جبة صوف طويلة وقلنسوة صغيرة ، يهش له ويبش فى وجهه أناس ، ويعطف عليه ويرثى لحاله آخرون .

وكان يعد من السعادة أن يظفر بسرى من أولئك الذين أوتوا حظا من الغنى ، ونالوا نصيباً من الثراء ، ليعطيه مقابل ما يمدحه به من شعره الذى له قيمته وخطره ، فضلة مما أوتى من المال يقنع بها ، ولا يزهد فيها.

ومن ظريف ما حدث له فى بعض سفراته : أنه ورد « شلب » فى وقت مسه فيه الضيق ، وأجهده الضنك . وهو لايملك سوى دابته التى لم يجد علفها ، والتى مسها الجوع ، وشفها الضنى مثله ، فماذا يصنع فى أمر ذلك الرفيق الأمين الذى يلازمه فى رحله وأسفاره ، ويشاركه فى آلامه وشدائده ، لم ير بداً من أن يبعث بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق بالمدينة ، لا حظ له من الأدب ، ولا علم له بصناعة الشعر ، فكانت منزلة شعره عند ذلك التاجر أن ملأ له المخلاة شعيراً ، ووجه بها إليه ، والرجل وإن لم يتذوق مافى القصيدة من حلاوة الشعر ، فإنه كان مزهوا بها ، إذ رأى نفسه قد مدح على لسان أحد الشعراء . وكذلك « ابن عمار » رأى أن ما وصله به من أجل الصلات .

بعد هذه الحالة التى تبين إسفاف « ابن عمار » فى المنزلة وسقوطه إلى هذا الحد ، ساعده الحظ وانتهى به صعود الجد إلى أن جعله « المعتمد » — حين صار الأمر إليه — واليا على «شلب» وأعمالها ، فدخلها يومئذ فى موكب ضخم وعبيد وحشم .

لم تمح من ذاكرة « المعتمد » تلك الإقامة الساحرة . والأيام الجميلة

والآوقات المرحة التى قضاها « بشلب » حيث كان معظم أهلها يقرضون الشعر ، وحيث كانت تلك المدينة وما زالت تعرف حتى الآن بفردوس البرتغال .

فى تلك الآونة لم يكن قلب « المعتمد » قد تفتح للحب بعد ، وقد وقعت له بعض وساوس وتخيلات غرامية لم تلبث أن تلاشت دون أن تدع فى قلبه مجالا للاسترسال فيها ، وإلى جانب هذا كان يحتفظ بعهد الصداقة الملتهبة التى بينه وبين وزيره « ابن عمار » ويستسلم لهذه العاطفة القاهرة التى لم يزاحمها أى ميل آخر إلى آخر لحظة .

لم ينشأ « ابن عمار » نشأة الأمير فى بحبوحة الترف ، وغضارة العيش ، ونضارة السعادة ، وفخامة الملك ، بل نشأ على النقيض من ذلك —منذ فجر حياته— تكافحه الأيام وتفل من غربه ، وتثبط من همته وعزمه ، وترميه الظروف القاسية بخيبة الآمال ، ورقة الحال ، فكان لهذا أقل مرحاً ، وأقل سروراً وضحكا ، وأقل فتوة وشبابا ، ولكنه فوق هذا كان شاكا مرتابا ساخراً فى بعض نواحيه

حدث ان الصديقين ذهبا إلى المسجد يوم الجمعة ، والمؤذن يعلن الناس بحضورهم وقت الصلاة . فطرح «المعتمد» على صديقه شطراً من الشعر فأجازه ، وثانيا فأجازه ، وثالثا فأجازه ، وكانت معانى الشعر تدور حول أن « المعتمد » يرجو للمؤذن المغفرة لإقراره بالشهادة وتصديقه

بالرسالة ، و «ابن عمار » يسخر في شعره من المؤذن، ويشك في مطابقة إقراره باللسان ، لما ينطوى عليه الجنان .

إن هذا يعد من « ابن عمار » غريباً ، وهو يفسر لنا مبلغ شكه ، وعدم ثقته بالناس حيث عرفهم وخبرهم ، ولهذا كان يشك حتى في الصداقة الحميمة البالغة التي يكنها له الأمير الشاب في نفسه ، والتي لم تنفع كل المحاولات التي كان يحاول بها الأمير أن يزيل ما علق بنفس صديقه من شكوك وريب ، وخاصة في مجالس الأنس والأوقات التي تتطلب المرح والسرور فإنه كان يرى فيها يائساً حزيناً.

ويروون في هذا الصدد حادثة عجيبة ، ونادرة غريبة ، حرية بالتحقيق والتمحيص، ولكن يظهر -على كل حال- أن لها ظلا من الحقيقة لأن هذه القصة تقوم على صحتها الشهادات القيمة التي تروى عن « المعتمد » و « ابن عمار [١] » أنفسهما .

---

(١) ابن عمار — نشأته وطرف من اخباره ، نقلا عن المراكشي :

هو الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم « محمد بن هانىء الأندلسي » وربما كان أحلى منزعا منه — في كثير من شعره .

ولشعره ديوان يدور بين أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات . فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ، قصيدته

التى كتب بها من « سرقسطة » حين فرق « المعتضد بالله » بينه وبين « المعتمد » لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهى : —

« على وإلا مابكاء الغمائم وفى وإلا مانواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر ، وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيرى ، ولا قامت له فى مآتم . » ؟

وفى هذه القصيدة يقول يمدح « المعتضد بالله » :

« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حمِيلة سيف أو حمالة غارم . »

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها « المعتضد بالله . » :

« جاء الهوى فاستشعروه عاره ونعيمه فاستعذبوه أواره
لاتطلبوا — فى الحب — عزا ، إنما عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا : أضر بك الهوى فأجبتهم : ياحبذاه وحبذا إضراره ؟
قلبى هو اختار السقام لجسمه زيا تخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
وشمتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه ؟ أو أن ذاك النوم عاد غراره ؟
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعى إذن أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع « المعتمد » أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا — إن شاء الله — مورد منها مالايخل بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ، لأنى كنت فى حداثة سنى قد صرفت عنايتى إلى أخبار « ابن عمار » هذا مع « المعتمد » لما تضمنته من الآداب. وقد فتشت خزانة حفظى فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عز وجل :

فى إكرامه وملاطفته فوق العادة ، فإنه لما ارفض المجلس ، استبقاه

فابن عمار هذا هو « محمد بن عمار » يكنى أبا بكر أصله من « شلب » من قريه من أعمالها يقال لها « شنبوس » مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة — فى قديم الدهر ولا حديثه — حظ ، ولا زكا منهم بها أحد . ورد مدينة « شلب » طفلا فنشأ بهـا وتعلم علم الآداب على جماعة منهم « أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » ثم رحل إلى « قرطبة » فتأدب بها ومهر فى صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به ، فلم يزل يجول فى الأندلس مسترفدا لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لايبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة ، وله فى ذلك خــبر ظريف ، وذلك أنه ورد فى بعض سفراته « شلب » لايملك إلا دابة لايجد علفها فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه ، فرآها « ابن عمار » من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال « ابن عمار » وساعده الجد ، ونهض به البخت ، وانتهى أمره إلى أن ولاه « المعتمد على الله » مدينة « شلب » وأعمالها أول ماأفضى الأمر اليــه فدخلها « ابن عمار » فى موكب ضخم ، وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها « المعتمد على الله » حــين وليها أيام أبيه « المعتضد بالله » . فكان أول شىء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال:

« ماصنع فلان أهو حى ؟ »

قالوا :

« نعم . »

فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله :

« قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا . »

ولم يزل « ابن عمار » على الحــال التى ذكرناها من التقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على « المعتضد بالله » أبى عمرو ، فامتدحه

« المعتمد » واستحلفه أن ينام معه تلك الليلة على وساد واحد . وألح

نقصيدته المشهورة التى أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبري والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا .

وفيها يقول يمدح « المعتضد » :

عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبرا
قداج زند المجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد . والحسام مجوهرا . »

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها « المعتضد » بالبربر :

« شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا »

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

« السيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وأمرله بمال وثياب ومركب، وأمرأن بكتب فى ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذذاك شاب فلم نزل حاله معه تتزيد، ومرات خدمته له تقوى وتتأكد، إلى أن صار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لايستغنى عنه ساعه من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه، فاستوزر ابن عمار هذا فى تلك الولايه ، وسلم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة عنهما ، فاقتضى أمر المعتضد التفريق بينهما، ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ماتقدم الايماء إليه . فلم نزل ابن عمار مغتربا فى أقصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فى لا يشارك فيه

الرجل أخاه ولا أباه وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معى على وساد واحد فكان ذلك ، قال ابن عمار ، فهتف هاتف فى النوم يقول: لاتغتر أيهاالمسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين قال فانتبهت من نومى فزعاً وتعوذت ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابى والتففت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى، فأمر بطلبى فطلبت له فى نواحى القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف إزاء الحصير الذى كنت فيه فكانت منى حركة فأحس بى وقال «ماهذا يتحرك فى هذا الحصير» ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ليس على إلا السراويل فلما رآنى فاضت عيناه دموعاً، وقال : يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا فلم أر بداً من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها فضحك وقال: ياأبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار، ثم قال لى: وكيف أقتلك أرأيت أحدا يقتل نفسه؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه، ومرت على ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ماسيأتى الايماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال، ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرناه سأله ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها، أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره

أن نام حتى سمع هاتفا يقول له : أيهــا التعس ! إن هذا الذى تنام معه

فكانت حالته شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد، وظل يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، فكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة. واشتهر أمره فى بلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال: «هو رجل الجزيرة.» وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة بقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه، فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج فى غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب، وجعل أرضها فى غاية الاتقان. فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الأدفنش فلقيه فى أول بلاد المسلمين فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ فى إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه، والمسارعة فى حوائجه، فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأدفنش فنقل خبرها إليه، وكان اللعين أعنى الأدفنش مولعاً بالشطرنج فلما لقى ابن عمار سأله: كيف أنت فى الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه، فقال له بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الاتقان. قال ابن عمار: نعم فقال كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له: أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حكمى. فقال له الأدفنش: هلمها ننظر إليها فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدى اللعين صلب وقال: ما ظننت أن تمدن الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول فقال له الأدفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ما هو ولعله شىء لا يمكننى فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش، وجعل لهم أموالا عظيمة على

على فراش واحد –لا محالة– قاتلك. فهب من نومه فزعًا وقد تملكه الرعب

أن يوازروه على أمره. ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم. وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك برده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة. فقال له: قد قبلت مارسمته فقال له ابن عمار: فاجعل بيني وبينك شهوداً سماهم له، فأمر الأدفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان. وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لي حكمي؟ قال نعم. فما هو؟ قال أن ترجع من هاهنا إلى بلادك. فاسود وجه العلج وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي في مثال لهذا القول، وهم بالنكث والتمادي بوجهه. فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف تجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك، فلم يزالوا به حتى سكن. وقال: لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة. فقال ابن عمار هذا كله لك. وحمد بما أراد، وكف الله بأسه، ودفعه بحوله، وحسن دفاعه عن المسلمين. ورجع ابن عمار إلى إشبيلية، وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به. ثم إن «المعتمد» حدث له أمل في التغلب على «مرسية» وأعمالها، وهي التي تعرف بتدمير. وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر، كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها. فجهز «المعتمد» جيوشاً عظيمة، وتكفل له «ابن عمار» بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها. فلحق «ابن طاهر» حين خرج من «مرسية» ببني عبد العزيز ببلنسية، فسكن بها إلى أن مات رحمه الله.

ولما تغلب «ابن عمار» على «مرسية» دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه. وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه. فلم يزل

يصرف الحيلة فى ذلك إلى أن تم له بعضه . ودانت له « مرسية » وأعمالها ، وطمع فى ملك « بلنسية » إلى أن قام عليه رجل من أهل « مرسية » يقال له « ابن رشيق » كان أبوه من عرفاء الجند بها ، وكان « ابن عمار » قد خرج لبعض أمره . فدعا « ابن رشيق » هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند .

فجاء يركض حتى المدينة . وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها عن معه أياماً فامتنعت عليه ، ولم يقدر على دخولها فبقى حائراً لا يدرى ما يصنع ، ولا أين يتوجه . وقد كان بلغ « المعتمد » قيامه عليه وخلع يده من طاعته . فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته .

وبغضه فى عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته . فأخرجوه عن بلادهم ، ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملوكها تشنؤه ، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى « شقورة » كان المتغلب عليه رجلا يقال له « ابن مبارك » فأكرم وفادته ، وأحسن نزله ، ثم بدا له بعد أيام رأى فقبض عليه وقيده وجعله فى سجنه ، فلما رأى « ابن عمار » ذلك منه قال له :

« لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عندك ، وتعرضنى عليهم ، فما منهم إلا من يرغب فى ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بى إليه . »

ففعل « ابن مبارك » ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه .

وكتب فيمن كتب إلى « المعتمد » — وفى ذلك يقول « ابن عمار » .

« أصبحت فى السوق ينادى على رأسى بأنواع من المال

والله ما جار على مالك من ضمنى بالثمن الغالى . »

وفى هذا السجن يقول « ابن عمار » وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى « موسى » فأتى بها فقال فى ذلك :

« يموسى « شقورة عندنا أربت على كل موسى

إلى تأثير النبيذ ، ثم رقد ثانية ، فعاوده ذلك الحلم المشئوم مرة ثانية وثالثة .

فقدت هارون فيهــا وظلت أطلب موسى »

وبعث « المعتمد على الله » من رجاله من تسلم « ابن عمار » من يد « ابن مبارك » بعد أن بعث إليه بعمال وخيل وأمر « المعتمد » الذين تسلموا « ابن عمار » أن يزيدو فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا « قرطبة » .

ووافق ذلك كون « المعتمد » بها فدخلها « ابن عمار » أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس .

وقد كان « المعتمد » أمر باخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال .

وقد كان قبل هذا إذا دخل « قرطبة » اهتزت له ، وخرج إليــه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد من يصل إلى تقبيل يده ، أو يرد عليه « ابن عمار » السلام ، وغيرهم لا يصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول .

فدخل « ابن عمار » « قرطبة » كما ذكرنا بعد العزة القعساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ذليلا خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذى عليه .

فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنع ما كان به أمتعه . وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال :

« لما قربنا من « قرطبة » بحيث يرانا النــاس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه « ابن عمار » وكان معتما ، أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس ، حتى وصل إلينا فنظر إلى « ابن عمار » ودخل معنا فى الصف فمشى . فسألناه فيم جاء ؟ فقال :

« الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ، فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته ، فأدخل على « المعتمد على الله » على الحالة التى ذكرت يرسف فى قيوده ،

ولما لم يستطع تكذيب هذه الأحلام المتكررة ، أيقن أن هذا نذير

فجعل « المعتمد » يعدد عليه أياديه ونعمه و « ابن عمار » — في ذلك كله — مطرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام « المعتمد » .

فكان من جواب « ابن عمار » أن قال :

« ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا — أبقاه الله — ولو أنكرته لشهدت على به الجمادات فضلاً عمن ينطق . ولكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح . »

فقال « المعتمد » :

« هيهات ، إنها عثرة لا تقال . »

وأمر به فأحضر في النهر في « شبيبية » فحمل به « بشبيبية » على البغال التي دخل عليها « قرطبة » وجعل في غرفة على باب قصر « المعتمد » المعروف بالقصر المبارك وهو باق إلى وقتنا هذا .

فطال سجنه هناك . كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

« سجاياك إن عافيت أندى وأسجح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك ! في أخذي برأيك لا تطع ... عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا

فإن رجائي أن عندك غير ما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة ... يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبني قد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمة تصلح

أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جرم سكتبته ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل إناء بالذي فيه يرشح

سوء ، وأنه وحى سماوى فوق الطبيعة ، فنهض من مرقده برفق دون أن يحدث

سيأتيك فى أمرى حديث وقد أتى ... يزور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت ، فاننى ... إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم لا در لله درهم ... أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
وقالوا : « سيجزيه فلان بفعله » ... فقلت : « وقد يعفو فلان ويصفح »
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لى ذنب ، غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى ... إلى فيدنو أو على فينزح
ويهنيه — إن مت — السلو فإننى ... أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين ضلوعى — من هواه — تميمة ... ستنفع لو أن الحمام يجلح »

****

لما بلغت « المعتمد » هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يزرى على البيت :

« وبين ضلوعى . » ويقول :

« ماذا أراد بهذا المعنى ؟ »

فكان من جواب « المعتمد » — رحمه الله — أن قال :

« أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء . إنما نظر إلى بيت « الهذلى » من طرف خفى وهو :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع »

ولم يزل « ابن عمار » هذا بسجن « المعتمد » إلى أن قتله صبرا فى شهور سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم انشادها فأدركت « المعتمد » بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه فأتى به يرسف فى قيوده ، فجعل « المعتمد » يعدد مننه عليه وأياديه قبله فلم يكن لابن عمار جواب

حركة . وذهب بعيداً ، وأدرج نفسه فى حصير ونام فى دهليز القصر

ولا عذر غير أنه أخذ فى البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب « المعتمد » فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت « المعتمد » عليه سابقته وقديم حرمته .

فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضا لا تصريحا وأمر برده فى محبسه .

فكتب «ابن عمار » من فوره بما دار له مع «المعتمد» إلى ابنه «الراضى بالله» فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين « ابن عمار » إحن قديمة .

فلما قرأ « الراضى » الكتاب قال لهم :

« ماأرى ابن عمار إلا سيتخلص . »

فقالوا له :

« ومن أين علم مولانا بذلك . »

فقال :

« هذا كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص . »

فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره . فلما قاموا من مجلس « الراضى » ، نشروا حديث « ابن عمار » أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها . فبلغ « المعتمد » ذلك ، فأرسل إلى «ابن عمار » وقال له :

« هل أخبرت أحدا بما كان بينى وبينك البارحة ؟ »

فأنكر « ابن عمار » كل الانكار . فقال « المعتمد » للرسول

« قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى . »

فادعى أنه بيض فيها القصيدة . فقال « المعتمد »

« هلم المسودة . »

فلم يحر جوابا ، فخرج « المعتمد » حنقا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التى فيها

عاقداً النية على اللياذ بالهرب حينما تفتح فى الصباح أبواب القصر ، واعتزم

« ابن عمار » فلما رآه عام أنه قاتله ، فجعل « ابن عمار » يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمى « المعتمد » يقبلهما ، والمعتمد لايثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه حتى برد ورجع « المعتمد » فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك .

فهذا ما انتهى إلينا من خبر « ابن عمار » ملخصا حسب مابقى على خاطري .

ومن مختار شعره قوله الى « المعتمد » حين تقبض النصرانى على « الرشيد » ابنه إذ حاول أمر « مرسية » !

« أصدق ظني أم أصيخ إلى صحبي ... فأنضى عزمى أم أعوج مع الركب
وإنى لتهفو بى إليك مودة ... يعثرها ما قد تعرض من ذنبي
إذا انقدت فى رأى مشيت مع الهوى ... وإن أتعقبه نكصت على عقبي
وما أغرب الأيام فيما قضت به ... تريني بعدى عنك آنس من قربى
أهابك للحق الذى لك في دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبي
ولى حسنات لو أمت ببعضها ... إلى الدهر لم يرتع لنائبة سربى
وكم قد فرت يمناى بى من ضريبة ... فلا غرو يوما أن تفال من غربى
ولا بد مابيني وبينك من ننا ... يطبقها مابين شرق الى غرب
ولا شك أن العفو منك سجية ... فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي . »

فأجابه « المعتمد على الله » .

« تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب ... ورد تافك العتبي حجابا من العتب
متى تلقنى تلق الذى قد بلوته ... صفوحا عن الجانى رؤوما على الصحب
سأوليك منى ماعهدت من الرضا ... وأعرض عما كان إن كان من ذنبي
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة ... ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
تكلفته أبغى به لك سلوة ... فليس يعانى الشعر مشترك اللب . »

أن يركب من أول ثغر ليبحر منه إلى إفريقية .

واستيقظ « المعتمد » فلم يجد صاحبه إلى جانبه ، فصاح بالخدم ، فوافاه جميع خدم القصر ، وأخذوا يبحثون عنه فى كل جانب من جوانب القصر ، والمعتمد يتقدمهم بين يديه مصباح ، وجاز إلى باب القصر يريد أن يفتحه لينظر هل خرج منه أحد ؟ وفى نفس تلك اللحظة التى كان يمر فيها تحرك « ابن عمار » حركة قسرية ، فرأى المعتمد كأن شيئاً يتحرك . فصاح : « ما هذا الذى يتحرك فى داخل الحصير »

فسارع الخدم إليه فأخرجوه من داخل الحصير وهو فى حالة يرثى لها ليس عليه من ملابسه غير سروال ، فوقف ترتجف أعضاؤه ، وقد احمر وجهه خجلا ، وأطرق برأسه إلى الأرض . فأجهش «المعتمد» بالبكاء ، وقال : « ما الذى حملك أن تزعجنا هكذا يا أبا بكر ؟ ! » .

وأراد « المعتمد » أن يتبين من صديقه سر هذا المسلك الغريب ، وأخذه برفق إلى مجلسه الخاص ، وأعضاؤه مازالت ترتجف ، ولبث مدة طويلة يحاول كشف هذا السر فلم ينجح .

أما « ابن عمار » فقد اضطربت أعصابه اضطراباً شديداً ، وخجل أشد الخجل لبلوغه إلى هذا الحد من الإسفاف والسخرية ، وقد تملكه مع هذا الخوف ، واستولى عليه الرعب ، فكان مرة يضحك ، وتارة يبكى .

ولما هدأت أعصابه ، وسكن اضطرابه ، أفضى إلى « المعتمد » بسر المسألة تفصيلا . فتبسم ضاحكا ، وأمسك بيـده وضغط عليها متحبباً متودّدا وقال : « إن ماحصل لك لم يك إلا بتأثير الخمر – أيها الصديق العزيز – ومن فعل أبخرة الخمر المتصعدة إلى المخ فقد أسلمتك بتأثيرها إلى أن ترى ما سبب لك الانزعاج ، وما هى فى الحقيقة إلا أضغاث أحلام ، وهذا كل ما فى الأمر ، وهل يدور فى خلدك أن نفسى تحدثنى بأن أقتلك يوما مّا ، إنى – إن فعلت ذلك – فإنما أنتزع روحى ، وأطفىء مصباح حياتى . ثق أنى إن قتلتك فإنما أقتل نفسى ، والآن يجب أن تزيل هذه الأفـكار السوداء ، وتمحو أثر هذه الوساوس السيئة ، والأحلام الشيطانية من نفسك ، فلا تعود تتحدث بها فيما بعد . »

وقد قال بعض مؤرخى العرب المسلمين :

وعمل « ابن عمار » منذ ذلك الحين على أن يتناسى هـذه الحادثة فنسيها ، ومرت الأيام والليالى على ذلك إلى أن بدأت الرؤيا تتحقق . ووقع ما سنقصه عليك فيما يلى :

جرت عادة هذين الصديقين أنهما يجتمعان فى « شلب » لايفترقان منها إلا إذا غادراها إلى «إشبيلية» حيث يتوفر لهما فى هذه العاصمة الأنيقة الظريفـة كل أنواع السرور والمرح واللهو ، فإذا خرجا إليها خرجا فى زى لا ينم عليهما ، وكثيراً ما كانا يختلفان إلى « مرج لقطة » على ضفاف

الوادى الكبير للتنزه والتلهى برؤية الناس رجالا ونساء فى ذلك المكان النزه الأفيح ، وهنالك وقع المعتمد لأول وهلة فى شرك تلك التى قدر أن تكون شريكته فى الحياة ، وذلك أنه بينما كان هو وصديقه يستريضان فى « مرج القطة » — على عادتهما — إذ مر النسيم على متن الماء فتجعد واطرد فارتجل «المعتمد» هذين البيتين :

« تجعد النهر بتر   قيص النسيم واطَّرد
سابغة   أحكمها   داود نسجا وسرد[(١)] »

ولم يستطع « ابن عمار » أن يجيز البيتين ، وكانت على مقربة منهما جارية تسمع حديثهما فأجازت البيتين بقولها :

«تصلح فى يوم الوغى   لو أنهـا ماء جمد
تحسبها قد نسجت   من حلق ومن زرد[(٢)] »

فعجب « المعتمد » إذ رأى فتاة تفوق فى سرعة الخاطر ، وموهبة رتجال الشعر شعرا ذائع الصيت كابن عمار ، والتفت إليها وحدق بها ناظريه ، فراعهُ جمالها الفاتن ، ومنظرها الساحر ، وطاب إليهـا فى رفق أن تذهب مع أحد الخصيان إلى القصر ، فقبلت ولم يلبث أن سارع بالعودة إلى القصر ليستطلع طلع تلك الفتاة الحسناء .

---

(١) لم نعثر على أصل هذين البيتين ، فاضطررنا إلى ترجمتهما نظما .

(٢) لم نعثر على أصل هذين البيتين فاضطررنا إلى نظمها .

وحضرت الفتاة فسألها «المعتمد»: «من أنت ؟ وإلى من تنتسبين؟»

فأجابت . « أنا – أيها الأمير – جاريتك «اعتماد» وإن جرت العادة بأن ينادونى باسم « روميكيا » لأنى مملوكة « روميك » ، وأنا بحكم عملى بدالة »

– « خبرينى . هل أنت متزوجة ؟ »

– « كلا يا مليكى »

– « هذا حسن لأنى أريد أن أشتريك من مولاك ، بل وأقترن بك »

ومن هذا الوقت أحبها « المعتمد » حبًا ثابتًا متواصلا لم يطرأ عليه تغيير ، ولم يعتره نقص أو زوال . وقد أضافت إلى محاسنها كل ما يعجبه من أدب وظرف ورقة، وكانوا يضعونها أحيانا فى صف «ولادة القرطبية» أديبة ذلك العصر ، وقد تكون المقارنة بينها وبين ولادة صحيحة من بعض الوجوه ، وغير صحيحة من بعض الوجوه الأخرى ، فهى وإن لم تسم فى المعرفة والأدب إلى درجة «ولادة» التى كانت تساجل أدباء عصرها، وتتفوق على الكثير منهم ، فإنها لم تكن دونها فى لطف المحادثة والذكاء ، والتندر ، وسرعة الخاطر ، وحضور الجواب ، بل ربما فاقت عليها فى محاسنها الذاتية ، لصغر سنها إلى حد الطفولة ، وسذاجة طبعها إلى حد الغرارة .

هذا إلى ماهى عليه من مرح ونشاط ولباقة . وكانت سعادته بعد

أن أصبحت له زوجة فى موافقة ميولها وأهوائها — كلفه ذلك ما كلفه من ثمن — وكان لاييئس من عمل مايوافق مرضاتها، وإشباع نزعاتها وميولها ، فإنه يعلم أن أى خاطر يمر بقلبها ، أو فكرة تستقر برأسها ، لا يمكن أن تتحول عنها أو تنفذ .

حدث فى يوم من أيام شهر فبراير أنها كانت تطل من خلال شرفات القصر بقرطبة فنظرت إلى قطع الثلج تتساقط مع المطر ، وهذا منظر نادر فى تلك المدينة التى يندر فيها مشاهدة الثلج ، فأخذت دموعها تتساقط على خديها تساقط حب الغمام على الورد الناضر ، فسألها « المعتمد » فى لهفة :

« ماذا بك أيتها الحبيبة المودودة »

فأجابت وهى تنتحب :

« تسألني ماالذى بى ؟ الذى بى أنك قاس لاترحم، ظالم غشوم وحشى الطبع ، انظر إلى قطع الثلج الناصعة اللينة العالقة بغصون الأشجار ، الواقفة كالدمع الحائر فى جفون الأزهار ، كم هى بديعة وكم هى رائعة ؟ متى يلين فؤادك، وتخلق لى أسباب الطمأنينة والسعادة ، وتتركنى أذهب فى كل شتاء إلى بلد يكثر فيه سقوط الثلج ، لتوفر على التمتع بمجالى الطبيعة الساحرة ، ومباهجها الفاتنة ؟ »

فقال لها :

« لا تحزنى ياربيع حياتى ، ويامصدر هنائى وسعادتى ، سيكون هذا المنظر أمامك فى الشتاء القادم ، بل أعدك وعداً صادقاً أنك ستسرين

بمشاهدته هنا فى نفس هذا المـكان »

وأصدر أمره فى الحال أن تغرس أشجار اللوز فى الحدائق المحدقة بقصر قرطبة ، وقدّر أن تزدهر فى فصل الجليد فتبدو زهراتها البيضاء فى عين « اعتماد » كقطع من الثلج تجلل أغصان الشجر ، وهو الذى يعجبها وتميل إليه .

* * *

ورأت مرة نسوة من الممتهنات قدوضعن آرجلهن فى معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا إلى البكاء ، فأثر ذلك فى نفس « المعتمد » وسألها : « وما الذى يبكيك ؟ »

فقالت له :

« آه إنى لتعسة ، ومنذ انتزعتنى من الحياة الحرة الطليقة المرحة أيام أن كنت أنعم بكوخى الحقير وأنا سجينة هذا القصر العابس ، أسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد ، وعادات القصر المملة ، انظر إلى هؤلاء النسوة اللاتى عند شاطئ النهر ، وانظر إلى أرجلهن منتعلات بالطين ، ليتنى كنت عارية القدمين مثلهن أعجن الطين ، وليتنى حرمت الغنى والسلطان ، وأعطيت الحرية التى أستطيع بها آن أفعل ماأريد . »

فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة :

« بل إنك عما قليـل ستستطيعين . »

ونزل فى اللحظة نفسها إلى فناء القصر ، وأمر بإحضار مقدار عظيم

من المسك والعنبر و بعض الأعطار ، ووضع ذلك كله فى معجن ، وأمر أن يمزج بماء الورد، ويداف ويسحق، إلى أن صارت منه عجينة فى حجم تلك التى كانت فى معجن النسوة اللاتى كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما أراد من ذلك صعد إلى « اعتماد » وقال لها :

« لتتفضلى بالنزول إلى فناء القصر . أنت وجواريك ، فإن معجن الطين فى انتظارك »

فنزلت الأميرة إلى ساحة القصر ، وخلعت هى وجواريها نعالهن ، وصرن يعجن بأقدامهن ذلك الطين المسكى المدوف وهن فى مرح وسرور .

ومما لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كلف « المعتمد » ثمنا باهظا وأموالا طائلة . وقد كان فى استطاعته أن يغضى عن هذه الحادثة ، لولا أن زوجته لاتنتهى أهواؤها وميولها عند حد ، ولا ترضى بغير تنفيذ رغباتها ، وقد حدث ذات يوم أن طلبت شيئا لم يكن فى استطاعة الملك تنفيذه . فغضبت . وصاحت قائلة :

« آه ! إنى جديرة بكل شفقة ورحمة ، و إننى بلا ريب أتعس النساء حظا ، ويشهد الله أنك لم تفعل معى البتة أى شيء فيه إرضائى . »

فقال لها بصوت فيه معنى الحب والرقة والعذوبة :

« ولا يوم الطين ؟ »

فعلت وجنتيها حمرة الخجل ولم تحر جوابا .

وأرانى مضطراً أن أضيف إلى ما أسلفت أن رجال الدين كانوا يمقتون اسم هذه الأميرة النزقة السريعة الحركة ، ولا يجرونه علي ألسنتهم إلا مصحوبا باشمئزاز وكره دينى ، وكانوا يعدونها الحائل الوحيد الذى يحول بين الصلاح والهداية و بين زوجها ، والعامل الفذ الذى يدفعه بدون انقطاع وراء عاصفة من السرور واللذات تكاد تطوح بالمملكة. وكانوا كلما رأوا المساجد خالية من المصلين يوم الجمعة ، ألقوا التبعة على لهو « المعتمد » وفتنته بها . وكانت « اعتماد » بحكم صباها الطائش ، وشبابها النزق، تسخر من صيحة أولئك الشيوخ ، ولا تكترث لجلبتهم، وما كانت تقدر فى روعها أن أولئك الفقهاء سيصبحون رهيبين يوما ما .

ولم يكن حب « المعتمد » لها ليشغله عن صديقه « ابن عمار » الذى حل من قلبه محلا كبيراً .

واتفق مرة أن نأى عنها ، وانصرف للتنزه مع صديقه كالمعتاد ، فحداه الشوق أن يرسل إليها رسالة ضمنها الأبيات الستة الآتية :

ا	أغائبة الشخص عن ناظرى	وحاضرة فى صميم الفؤاد
ع	عليك السلام، بقدر الشجون	ودمع الشؤون ، وقدر السهاد
ت	تملكت منى صعب المرام	وصادفت ودى سهل القياد
م	مرادى لقياك فى كل حين	فياليت أنى أعطى مرادى
ا	أقيمى على العهد ما بيننا	ولا تستحيلى لطول البعاد
د	دسست اسمك الحلو فى طيه	وألفت فيه حروف « اعتماد »

وقد ختم هذه الأبيات الستة التي طرز فيها اسم « اعتماد » بذكر اسمها في البيت الأخير [1].

ثم ختم كتابه إليها بقوله :

« سأعود إليك على عجل لأتملى برؤيتك إن شاء الله وشاء « ابن عمار » . فلما سمع « ابن عمار » الجملة الأخيرة من كتاب المعتمد إلى اعتماد ، كتب إليه أبياتا في المعنى الآتي :

---

(١) وللمعتمد أشعار في « اعتماد » منها قوله :

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل — سفها وهل يثني الحليم الجاهل
ياهـذه ! كفي فإني عاشق — من لايرد هواي عنها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن — لا القلب ضاق به، ولا هو راحل
ياظبية سلبت فؤاد « محمـد » — أو لم يروعك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم — فعلي هواك له علي دلائل
لون كسته صفرة ومدامع — هطلت سحائبها وجسم ناحل . »

وقوله :

« أدار النوى كم دار فيك تلددي — وكم عقني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه — كماة الأعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهند فانقضى — مرادي وعزما مثل حـد المهند
فما حـل خل في فؤاد خليله — محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولـكنها الأقدار تردي بلا ظبا، — وتصمي بلا قتل، وترمي بلا يد . »

«ليس لى مأرب فى غير مرضاة مولاى ، ولن أحيد عن أمره ، ولست إلا كالسارى يهتدى بضوئه اللامع، فمرنى بما تشاء أطع .

ولما كان قلب الأمير الشاب متوزعا بين الصداقة والحب . فإنه لهذا كان يشعر بحياة لذيذة ناعمة ، إلاّ أن صفوها لم يدم طويلا ، وقد ترنّقت سريعًا، لأن « المعتضد » رأى « ابن عمار » قد استولى على ابنه « المعتمد » فقضى بالتفرقة بينهما ، وحكم بنفى « ابن عمار » . وقد انقض هذا النبأ على الصديقين كليهما انقضاض الصاعقة ولم يدر كل منهما ماذا يصنع ، وقد علما أن « المعتضد » إذا أمضى أمراً لا يمكن رجوعه فيه ، ولا سبيل إلى عُدوله عنه. وعلى ذلك نفى « ابن عمار » . وقضى أعوام نفيه المحزنة متنقلا فى مدن الشمال ، وبخاصة «سرقسطة» إلى أن خلف « المعتمد » على الحكم أباه ، وكان فى التاسعة والعشرين من عمره[1] .
فسارع إلى صاحبه وصديقه القديم الذى صحبه من أول عهد الشباب فاستدعاه ، وترك إليه اختيار ما يريده من مناصب الدولة المختلفة .

فطلب «ابن عمار» أن يكون واليًا على «شلب»، ذلك الإقليم الذى

---

(١) ولى «المعتمد» الحكم وهو فى الثلاثين من عمره ، كما يدل على ذلك قول وزيره وشاعره « ابن زيدون » فى تهنئته :

« وما أعطت السبعون — قبل — أولى الحجى
من الإرب ، وما أعطاك عمروك والعشر »

ولد فيه ونشأ به ، فلم يسعه إلا أن يلبي طلبه ويعطيه هذه الولاية بالرغم من أنه فى هذه الحالة سيكون بعيداً عنه ، وبعد أن ودع صديقه الحميم جاشت بنفسه ذكريات تلك الأيام المحبوبة التى قضياها معاً فى «شلب» وجالت بخاطره خلجات جعلته يتمثل آثارها ومعاهدها البديعة فقال يخاطب « ابن عمار » ، وقد توجه إلى مقر عمله الجديد :

« ألا حيِّ أوطانى بشِلْبِ أبا بكر ... وسلهنَّ هل عهدُ الوصال كما أدرى
وسلم على قصر «الشراجيب» عن فتى ... له أبدا شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد ، وبيض نواعم ... فناهيك من غيل، وناهيك من خِدر
وكم ليلة قد بِتُّ أنعم جنحها ... بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسدّ النهر لهواً قطعتُه ... بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بُردها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشق الكِمَامُ عن الزهر »

وقصر الشراجيب هذا متناه فى الحسن ، مشرق الساحات ، مباه بمحاسنه غيره من القصور الشامخات .

ودخل « ابن عمار » « شلب » فى موكب فخم يحفّ به عبيد وحشم وبلغ موكباً من الأبهة والجلال ، لم يبلغه موكب المعتمد نفسه أيام أن كان والياً عليها ، ولكنه خفّض من غلوائه، وطامن من كبريائه، وأتى بعمل يدل

على النبل ، وحسن التقدير ، والاعتراف بالجميل، فإنه وقت دخوله المدينة سأل عن التاجر الذى واساه فى أيام محنته ، وأعطاه علف بغلته ، أحىّ هو ؟ فقالوا : إنه حىّ ، وكان ابن عمار قد احتفظ بتلك المخلاة عينها التى كان التاجر قد ملأها شعيراً لعلف بغلته ، فملأها هو دراهم وبعث بها إلى التاجر وقال لرسوله ، قل له : « لو كنت ملأتها برّا ، لكنا ملأناها لك تبرا »

وبقى واليًا عليها مدة لم تطل ، لأن « المعتمد » لم يستطع البقاء دونه فاستدعاه ليقيم بقصره ، وعينه كبير وزرائه .

الفصل العاشر

كان «المعتمد» ووزيره مفتونين بالشعر، فأصبح قصر «إشبيلية» ملتقى الشعراء الفحول، ولم يكن للمتشاعرين مجال فى هذا الميدان ولا حظ لهم فى رفد الخليفة أو مكافأته، فقد كان الخليفة نقاداً بارع الملاحظة دقيق الحس، خصب الشاعرية، وكان يتذوق الأسلوب تذوق الشاعر الصادق الشعور، وكان رأيه فيصلا فى الحكم على الشعراء وتعرف موقع كل لفظ فى قصيدهم، فإذا ظفر الخليفة بشاعر موهوب أقبل عليه وأدناه من مجلسه وأغرقه بكرمه إغراقا.

ولقد سمع — ذات يوم — هذين البيتين:

« قلّ الوفاء فما تلفيه فى أحد ولا يمر لإنسان على بال
كأنه عندهم عنقاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال »

فسأل المعتمد: « لمن هذان البيتان؟ »

فأجابوه: « هما لعبد الجليل بن وهبون؟ [1] »

---

(١) جاء فى كتاب المعجب عن هذا الشاعر المجيد ما يلى:

« قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبى مروان عبد الملك « بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له: « أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به؟ » قال « ما أتيت به معى » فبينا أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة

فصاح المعتمد :

أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية فسلم وقعد . وقال : « يابنى ! استأذن لى على الوزير أبى مروان » فقلت له هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف — حملتنى على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة وقال : « ماهذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال «أحب أن أعرف اسمه فأنى كنت أعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الأغانى فقال إلى أين بلغ الكاتب منه؟ «قلت موضع كذا » وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على فالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب؟ فقلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض هذه الأوراق، فقال لم أجىء به معى . فقال يابنى خذ كراريسك وعارض . فقلت « بماذا وأين الأصل » فقال: كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى . فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال : يابنى أمسك على فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء هكذا نحو كراسين . ثم أخذت له فى وسط الشعر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء ، فاشتد عجبي وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته الخبر ، ووصفت له الرجل . فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعنى لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول « يامولاى اعذرنى فوالله ما أعلمنى هذا الخاف إلا الساعة » وجعل يسبنى والرجل يقول : ما عرفنى . وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به ، فتحدثا طويلا ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبدا . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم فقال لى : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها فى علم الأدب هذا «أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون» أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء

كيف أن شاعراً من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء والخدمة ، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافة ، وبادر فى الحال بإعطاء « عبد الجليل » مائةمثقال . وحدث مرة أخرى أن أحدالظرفاء من الصقالبة ، وفد على قصره بعد أن غلب على البلاد « روچيه » النور مندى وصادف أن جىء لديه بقطع ذهبية من مسكوكات دار الضرب، فنفح منها الصقلبى بدرتين، ويظهر أن هذه المنحة على ضخامتها لم تكفه ، فحفزته الرغبة وحركه الطمع أن يمد عينيه إلى تمثال نادر مصنوع من الرخام على صورة جمل صغير مطعوم بالجواهر الثمينة ، وأراد ذلك الصقلبى أن ينفذ رغبته الملحة فقال :

« إنك – أيها الملك – قدنفحتنى بهذه المنحة العظيمة التى أعجز عن شكرها ، ولا أقوى على حملها ، وأجدنى لعظمها فى حاجة إلى جمل يحملها إلى دارى ! »

فقال له « المعتمد » وقد أعجبته هذه المحاولة الطريفة :

« دونك الجمل ، وشأنك به وما تريد . »

ومن المحقق الذى لا يرتاب المرء فيه أن « المعتمد » يهتز أريحية ، ويفيض إعجاباً بكل حاضر البديهة ذكى الفؤاد شاعراً كان أو غيره ،

خاطره وجودة قريحته ؟ اهـ . »

« ارجع إلى كتابنا نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٥٣ »

أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية فسلم وقعد . وقال : « يابنى ! استأذن لى على الوزير أبى مروان » فقلت له هو نائم ، هذا بعد أن تكافت جوابه غاية التكلف — حملتنى على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة وقال : « ماهذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال «أحب أن أعرف اسمه فأنى كنت أعرف أسماء الكتب » فقلت « هو كتاب الأغانى فقال إلى أين بلغ الكاتب منه؟ «قلت موضع كذا » وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على فالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب؟ فقلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض هذه الأوراق، فقال لم أجىء به معى.فقال يابنى خذ كراريسك وعارض . فقلت « بماذا وأين الأصل» فقال: كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى . فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال : يابنى أمسك على فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء هكذا نحو كراسين . ثم أخذت له فى وسط الشعر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء،فاشتد عجبى وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته الخبر، ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعنى لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول « يامولاى اعذرنى فوالله ما أعلمنى هذا الخلف إلا الساعة » وجعل يسبنى والرجل يقول : ما عرفنى . وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به . فتحدثنا طويلا . ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب،وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبدا . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم فقال لى : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها فى علم الأدب هذا «أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون» أيسر محفوظاته كتاب الأغانى.وما حفظه فى ذكاء

كيف أن شاعراً من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء والخدمة ، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافة ، ويبادر فى الحال بإعطاء « عبد الجليل » مائةمثقال . وحدث مرة أخرى أن أحدالظرفاء من الصقالبة ، وفد على قصره بعد أن غلب على البلاد « روچيه » النور مندى وصادف أن جىء لديه بقطع ذهبية من مسكوكات دار الضرب، فنفح منها الصقلبي بدرتين، ويظهر أن هذهالمنحة علىضخامتها لم تكفه ، فحفزته الرغبةوحركه الطمعأن يمد عينيه إلىتمثال نادرمصنوع من الرخام على صورة جمل صغير مطعوم بالجواهر الثمينة ، وأراد ذلك الصقلبي أن ينفذ رغبته الملحة فقال :

« إنك – أيها الملك – قدنفحتنى بهذه المنحة العظيمة التىأعجز عن شكرها ، ولا أقوى علىحملها ، وأجدنى لعظمها فى حاجة إلى جمل يحملها إلى دارى ! »

فقال له « المعتمد » وقد أعجبته هذه المحاولة الطريفة :

« دونك الجمل ، وشأنك به وما تريد . »

ومن المحقق الذى لايرتاب المرءفيه أن« المعتمد» يهتز أريحية ، ويفيض إعجاباً بكل حاضر البديهة ذكى الفؤاد شاعراً كان أو غيره ،

خاطره وجودة قريحته ؟ اه . »

« ارجع إلى كتابنا نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٥٣ »

ولو كان لصاً من قطاع الطريق . ومما يقوم دليلا على صحة ذلك حكاية البازى السنجابى .والبازى السنجابى – وقد حدثونى عنه بهذا اللقب – ما برح مدة طويلة أكبر لص فى عصره ، وكان بلاء عظيما قد أوقع الرعب والرهبة فى سكان البوادى إلى أن أوقعه القدر المتاح فى قبضة العدالة ، فقضى عليه « المعتمد » أن يصلب على مرأى من الفلاحين فى الطريق الأعظم ، ليشهدوا ما حل به من خزى ونكال ، ولما كان اليوم الذى حكم عليه فيه بالصلب قائظا، والحرارة خانقة، فقد قل مرور الناس بالطريق ، وكان قد وقف بأسفل الخشبة التى صلب عليها اللص زوجته و بناته يبكينه بدموع حارة ويقلن صارخات :

« يا أبتاه على من تتركنا إذا نفذ فيك سهم القضاء ، إننا بلا شك سنموت بعدك جوعًا» وكان البازى السنجابى –على وحشيته وفظاعته– غاية فى الشفقة والحنو على أسرته ، فتوزعت نفسه فكرة مصيرها إلى الشقاء ، وصيرورتها إلى الفاقة والمتربة .

ومر عليه فى هذه اللحظة تاجر غريب الدار يحمل على بغل عدلين من القماش و بعض بضائع أخرى جاء ليبيعها فى القرية القريبة فاستوقفه، وقال له : « إنى – أيها السيد – كما ترى ، فى موقف من أسوأ المواقف ، وفى حالة يرثى لها ، وفى وسعك أن تقوم لى بخدمة جليلة تعود عليك قبل غيرك بأجدى الفوائد ، وأجزل العوائد . »

فسأله التاجر: «وما عسى أن تكون تلك الخدمة التى أقوم لك بها؟»

– « هل تعرف ذلك الجب البعيد هناك ؟ »

– « نعم أعرفه . »

– « حسن حداً ، فاعلم أنى فى اللحظة التى استولت علىّ فيها الغفلة وتركت نفسى أقع فى قبضة أولئك الشرطة الملعونين، ألقيت مائة مثقال من الذهب فى ذلك الجب ، فإذا سمحت نفسك ورضيت أن تنطلق ، وتبذل كل مافى وسعك فى استخراجها ، فإنى أهبك نصفها متى ظفرت بها، وهاهى زوجتى و بناتى يقمن على حراسة بغلك حتى تفرغ من هـذا العمل الذى فيه إنقاذ أسرة من مخالب الجوع »

واستهوت التاجر شهوة الحصول على الربح ، فمضى سريعًا ، ور بط عند حافة الجب حبلا ، ودلى نفسه فيـه حتى وصل إلى قاعه ، ولما اختفى فى البئر أسرع البازى السنجابى وقال لزوجته :

« أسرعى واقطعى الحبل ، وخـذى البغل وخفى مسرعة أنت والبنات ، واهربن جميعًا واختفين عن الأنظار . »

وتم كل هذا فى أقل من لمح البصر ، وطلع التاجر من البئر بعد حين فوجد بضاعته قد استقلت المرأة و بناتها معها، وأدرك أنه لايستطيع اللحاق بهن، فجعل يصيح كالمأخوذ ، ولـكون صيحاته ذهبت هباء فى ذلك الجب العميق ، وفى بسيط من الأرض لا أنيس به ولا مغيث ،

فقد مضى وقت طويل دون أن يجد أحدا يتقدم لإنقاذه ، وبعدلأى خرج من سجنه ، وتلاحق الناس لإنقاذه من ذلك القرار البعيد الغور فى طبقات الجب السفلية وهم يسألونه فى دهشة عن سبب تدليه فى ذلك الجب ، وهو يشكو سوء الطالع ، ويندب حظه المشئوم ، ويرسل فى إثر بضاعته الضائعة دموعه الغزيرة الحارة ، ويصب جام غضبه ولعناته المتتابعة على ذلك اللص المصلوب البالغ النهاية فى الخبث والدناءة والمكر والخديعة ، وسرعان ماذاع الخبر وتناقله الناس فى المدينة حتى بلغ أسماع « المعتمد » نفسه الذى أصدر أمره فى الحال بانزال « البازى السنجابى » من فوق خشبة الصلب ، والإتيان به فى حضرته .

ولما مثل بين يدى « المعتمد » صوب فيه بنظره وصعد ثم قال :

« من المحقق الذى لاريب فيه أنك أكبر محتال ، وأدهى ماكر خبيث عرف حتى الآن ، إذ أن ترقب الموت الذى لامحالة واقع بك ، لم يصدك عن الالتجاء فى هذا الوقت الرهيب إلى المكر السيىء ، والإيقاع بذلك التاجر المسكين فى حبالتك . »

فأجابه اللص :

« عفواً يامولاى الملك ! إنك لو علمت أية لذة تلك التى يشعر بها الإنسان عند مايكون لصاً ، لوضعت هذا التاج عن رأسك ، وألقيت معطفك هذا الملكى عن منكبيك ، ولما كنت إلا لصاً مثلى . »

فأغرب الملك فى الضحك ، وقال :

«ألا لعنة الله عليك من اص داه خبيث، ولكن أصِخْ إلى بسمعك لأتحدث إليك مليا ، وسأكون فى حديثى معك جادًّا لاهازلا ، هب أنى وهبتك الحياة ، ورددت إليك حريتك السليبه ، وهيأت لزوجك وبناتك أسباب العيش من طريق شريف ، وأجريت عليك راتبا يكون لك ولعيالك سداداً من عوز أكنت تصلح من نفسك ، وتثوب إلى عقلك ورشدك ، وتعدل عن هذه المهنة الخطرة الحقيرة الممقوتة ؟ »

فقال :

«إن الإنسان —فى سبيل إنقاذ حياته— يفعل كل مافى استطاعته فعله، وإذا كان إنقاذ حياتى —وهى أثمن شىء عندى— متوقفاً على استقامتى وصلاحى وابتعادى عن الشرور والمفاسد، فإنى أعدك — أيها الملك — وعداً صادقا أن أكون عند ظنك بى ، فهل يسرك منى هذا ؟ »

وقد بر « البازى السنجابى » بوعده حين عينه « المعتمد » رئيس شرطته ، وأوقع الرهبة والرعب فى نفوس أولئك اللصوص الذين كانوا زملاءه بالأمس، وبدل الخوف الذى كان ينتاب الفلاحين من قبل أمنا.

ثم مضى « المعتمد » فى حياة الترف والمرح والسرور ، لايصرف فى مهام الدولة إلا القليل من وقته ، وقد كان يقول — فى بعض شعره —

مامعناه : « إن الإنسان إذا غالط نفسه ، وأراد أن يكون عاقلا فلن يكونه . »

وكان السماط الممدود ، والولائم الكثيرة تستنفدان كثيراً من وقته وماله ، وكان يصرف ما بقى من وقته داخل قصره مع القيان ، والغيد الحسان ، وهذا ما كان يجعله دائماً يظهر بمظهر أهل الظرف والخلاعة والعشق ، وليس معنى هذا أنه زهد فى حب « اعتماد » فقد كان على العكس من ذلك مفتوناً بها مدلها بحبها .

ولكن تبعاً للقانون الغريب الذى يخضع له الحب فى البيئات الإسلامية يستطيع الرجل –إذا أراد ألّا يرمى بالخيانة عند حظيته–أن يغضى لهذا الغرض عن بعض ميوله الغرامية،وأن يتصل بعشيقاته الفينة بعدالفينة،دون أن تجد ماتقوله أو توجه إليه فيه لوما،وهى مع هذا موقنة بأنها وحدها الحظية عند زوجها المهيمنة على قلبه .

وقد كانت زوجه الرومية المحبوبة الحسناء فاتنة بديعة ، وكان إذا شرب معها ، وجدللنبيذ رائحة ونكهة لذيذة لم تجر العادة بها مع غيرها . وكانت « لونان » تجلس إليه إذا فرغ من مجالس لهوه ، وتفرّغ لمطالعة أشعار المتقدمين أو أراد أن يقرض هو شعراً ، فإذا أرسلت الشمس أشعتها من النافذة ، قامت لتحول بينه و بين الشمس لعلمها – كما يقول الملك – « انه لايكسف الشمس من بين الكواكب غير القمر »

ولما كانت هذه اللؤلؤة الثمينة ، والحسناء الفريدة ، صعبة المراس ، شرسة الطبع ، فقد كانت كثيراً ماتغضب ، و يتحمل « المعتمد » كل عناء فى تسكين غضبها بتحقيق مايوافق هواها ، ويتفق مع مرامها ، ومن ذلك أنها غضبت عليه مرة ، فكتب يعتذر إليها ؛ فردت عليه رداً حسناً ولكنها لم تضع اسمها فى صدر الكتاب ، كما يقضى به رسم الكتابة ، فأسف « المعتمد » لذلك ، وحكم بأنها لم تصفح بعد ، و إلا لكانت بدأت الكتاب باسمها ، طبقاً لما هو معروف فى العادة ، وقال: إنها تعرف أننى أعبد اسمها ، وأتعشق كل حرف من حروفه ، فما بالها لم تصدر به جوابها إلىّ ؟ إنها إذن لا تزال غاضبة علىّ ، وقد قدرت فى نفسها أنه سيقبل الاسم بمجرد رؤيته على الطرس ، فاستحسنت ألا يراه ، لأن فى تقبيله شفاءه من سقم ألم به ، وما أظرف أن تكون هذه الشيطانة الساحرة والغادة المحبوبة هى سبب الداء والدواء معاً ، فقد توجه الملك إلى مولاه بالدعاء ، يرجوه أن يتفضل عليه بنعمة يعدها من أسبغ النعم ، وهى أن يطيل سقمه ، حتى يرى دائماً عند سريره هذه الظبية الموردة الخدين، الأرجوانية الشفتين

(و بعد) فقد يكون مخدوعا من يخيل إليه أن « المعتمد » قد أغمض عينيه عن إتمام أعمال أبيه وجده ، لأنه وان لم يكن عنده من الأطماع ماعندهما، فقد عمل هو على الأقل ماحاولا عبثا أن يعملاه ففشلا

فمن ذلك أنه فى السنة الثانية من حكمه ، ضم « قرطبة » إلى مملكته ، ولا ننكر أن والده هو الذى مهد له الطريق ، وأن الظروف قد ساعدته كثيراً ، ففى سنة (١٠٦٤) أى فيما قبل ذلك بست سنوات تنازل رئيس الجمهورية «أبو الوليد بن جهور» ـ لشيخوخته ـ عن الرياسة لولديه « عبد الرحمن » و « عبد الملك» وعهد لولده الأكبر بكل ما يتعلق بالشؤون المالية والإدارية ، وعهد إلى ولده الثانى – الذى كان يعده ضعيفا – بالقيادة العامة ، وقد نهج كل شىء منهجاً حسناً طوال وزارة الوزير الماهر « ابن السقا » ، فقد كان هذا الوزير رجل المملكة لهذا العهد ، وكانت شخصيته تبعث الرهبة والاحترام فى نفوس جميع أعداء الجمهورية الألداء ، سواء أكانوا ظاهرين أم كانوا يعملون فى الخفاء ، وفى مقدمتهم « المعتمد » نفسه الذى أدرك أنه لكى يصل إلى تحقيق غرضه يجب أولا أن يبدأ بإسقاط هذا الوزير .

***

فسعى بينه وبين « عبد الملك بن جهور » بأن جعله موضع ريبة يحوم حوله كثير من التهم والشكوك ، وقد نجح فى هذه السعاية التى أفضت فى النهاية بالقضاء على « ابن السقا » بالموت ، وقد كان لهذا الحادث أسوأ الأثر ، وأوخم العواقب على الجمهورية ، حيث انفرط عقدها بخروج الموالين لابن السقا ، من القواد والجند من الجيش ، وأصبح « عبد الملك » ممقوتا عند الرعية ، بغيضاً إليهم لفظاعته وقسوته

وتهاونه ، وبقى يحتفظ بما بقى من نظم الجمهورية قائمـاً على قدميه . إلى أن تزعزعت أركان سلطته فجاء « المـأمون » صاحب « طليطلة » وحاصر « قرطبة » فى خريف سنة (١٠٧٠)

ولـما لم يجد « عبد الملك » مايدافع به عن نفسه لأنه أصبح بلا جيش ، ولم يبق عنده سوى مائتى فارس فى حالة سيئة للغاية . عمد إلى « المعتمد » يطلب نجدته ، فحقق رغبته ، وأرسل إليـه نجدات كبيرة ، اضطر معها جيش « طليطلة » للانسحاب ، ولم يكن انسحاب عدوه فوزاً ، بل بالعكس كان خذلانا ، فإن رؤساء جند « إشبيلية » أخذوا يعملون فى الخفاء على تنفيذ الخطط السرية التى أفضى « المعتمد » بها إليهم ، وتم الاتفاق فيما بينهم و بين القرطبيين على خلع « عبد الملك » والاعتراف بسيادة ملك « إشبيلية » ، واستمرت المؤامرة فى طى الكتمان، و « عبد الملك » لايدرى مابيته الجند له إلى أن حدث فى صبيحة اليوم السابع من ارتداد « المـأمون » بعسكره ، و إعلان عسكر « إشبيلية » أنهم عائدون إلى بلادهم ، أن تصاعدت صيحات الجنود وهم على أهبة الرحيل منذرة بالعصيان . وطرقت أذنيه لأول وهلة بوادر الشر ، ونظر فإذا الجند الذين جاءوا لنجدته ، قد أحاطوا هم وعامة الشعب بقصره ، وفى أسرع من ارتداد الطرف قبضو عليه وعلى أبيـه ، وسائر أفراد أسرته ، ونادوا «بالمعتمد» ملكا على

«قرطبة» وأخذ آل جهور أسرى ، واعتقلوا فى جزيرة «شلطيش» ولم يبق « أبو الوليد » الشيخ على قيد الحياة بعد هـذه النكبة سوى أربعين يوما .

وقد تحدث الملك الشاعر عن هذا الفتح بحديث ملك شأى الملوك الصيد ، وخطب قرطبة الحسناء بالبيض والأسل فلم تمتنع عليـه كما امتنعت على غيره ، وذلك حيث يقول :

«من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءتكمُ مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء – إذ منعت من جاء يخطبها – بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت فى سرىّ الحلى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس كل الملوك به فى مأتم الوجـل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليث بدرع البأس مشتمل»

ولم ير « المأمون » أن ماوقع يعد هزيمة وذلك لأنه كان مصمما على الاستيلاء على قرطبة فى فرصة أخرى مهما كلفه ذلك من ثمن [1].

---

(١) هذه فصول نثبتها هنا من كتاب « البيان المغرب ، فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » (ج ٣ ص ٢٥٥) وما يليها قال :

« فى سنة ست وخمسين وأربعمائة كثر خوض أهل « قرطبة » فى الذى رأوه من تنافس ولدى « أبى الوليد بن جهور » فى الانتصاف بالامارة : ابنه «عبدالرحمن» كبير جماعتهم ، وأخوه « عبد الملك » أشهمهم فؤادا ، وأصابهم عودا ، الذى كشف عن وجوههم غمة مركسهم « ابن السقاء » ، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم

***

ولم يمض قليل من الزمن حتى جاء برفقة حليفه «الأذفونش» السادس بفتكته به الفتكة التى ثبتت أوتاد ملكهم ، ثم نازع أخاه « عبد الرحمن » فيما ذهب إليه من التفرد به .

وقد كان أشار على أبيهما بعض حافائه بإيثار «عبد الرحمن » ، فتمسك الشيخ بحظه من إرضاء ولده الصغير « عبد الملك » فمال إلى قسمة الرياسة بينهما مدة حياته ، غير ناصب أحدهما للأمر ، يقضى الله أمره لمن يشاء ، وأنشد قول الجزيرى .

وإذا الفتى فقد الشباب سماله حب البنين ولا كحب الأصغر

ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه فى الإشراف والجباية ، وجعل إلى « عبد الملك » النظر فى الجند ، والتولى لفرضهم ، والإشراف على أعطياتهم ، فرضيا منه هذا التقسيم وأقامهما على الصراط المستقيم .

وقال ابن بسام « إلى هنا انتهى ما وجدته فى كتاب ابن حيان من أخبار الدولة الجهورية .

(قال مؤلف البيان المغرب) وهأنا أذكر من كلام ابن بسام وغيره ما أمكن من بقية أخبارهم إن شاء الله ، فأقول أولا :

كان «عباد المعتضد» خامر قلبه من أمر « ابن السقا » مدبر دولة بنى جهور مالا يسعه بوح ولا كتم . ومالا يدعه سفه ولا حلم ، شرقا بحسن سيرته ، وفرقا من استمرار مريرته ، وحسدا لآل جهور ، فقد كان « ابن السقاء » هـذا من الاستقلال بمكانه ، والضبط لسلطانه ، بحيث يخيف الأنداد ، ويغيظ الحساد ، فدس «عباد» إلى « عبد الملك بن جهور » من جسره على الفتك ، وإلى « ابن السقاء » من ألقى فى روعه حب الملك ، راش وبرى ، حتى جرى القدر بينهما بما جرى ، ولما خلا «لعبدالملك» الجو بعد «ابن السقا» ، أعرض وأطال ، وطلب الطعن والنزال ، ووجد

فخرب بسيط المدينة وماحولها ، ولكنّ « عبادا » حاكم المدينة الشاب أحد أبناء « المعتمد » من حظيته الرومية الحسناء ، كان غافلا عما يدبر

« عباد » السبيل إلى شيء طالما أسر ذكراه ، ونغص عليه كثيرا من دنياه ، من افتقار بني جهور إلى نصره ، وتصرفهم بين يدي نهيه وأمره ، وانفيض عن « عبد الملك » لأول استبداده بالأمر حماته الذين كان « ابن السقاء » يرفههم برفقه ، ويصطنعهم بحذقه .

وخامر « ابن ذى النون » من الشغف « بقرطبة » ما هون عليه إنفاق المال ، واحتمال الأثقال ، وتسكاف الحل والترحال ، ومضت السنون ، وغالت « عبادا » المنون ، وصار الأمر إلى ابنه « المعتمد » سنة إحدى وستين ، فلما كان سنة اثنتين بعدها دلف « ابن ذى النون » إلى « قرطبة » وكان لا يغبها شره ، ولا ينام عنها مكره ، فاحتاج « عبد الملك بن جهور » إلى استمداد « المعتمد » لانفضاض من لديه ، وعجزه عما كان أستدمن أمر « قرطبة » إليه، فأمده «المعتمد» بجمهور أجناده ، على أكابر قواده ، وقد تقدم إليهم بمراده ، ونهج لهم سبيل إصداره وإيراده ، فوافوا « قرطبة » ونزلوا بربضها الشرقي وأقاموا بها أياما يحمون حماها ، وأعينهم تزدحم عليه ، ويذبون عن جناها ، وأفواههم تنجذب إليه ، فلما شمل « ابن ذى النون » سفره واحتواه ، وقضى من غزو « قرطبة » وطره وما قضاه ، أخذ فى الرحيل عنها فما انقشعت سدفة ليله ، ولا تمزق غيار سنابك خيله ، حتى هتك العباديون الحريم ، وركبوا الأمر العظيم ، باتوا متحدثين بالقفول ثم غلسوا مظهرين للرحيل ، و « عبد الملك » متأهب لتشييعهم ، عازم على البكرة إلى توديعهم ، وشكرهم على حسن صنيعهم ، فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره ، وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره ، وقد تمخضت له ليلة عن يوم عقيم ، وافتر له ناجذ صبحها عن ليل بهيم ، ومشى من أنصاره هالك بين أسود مسموم ، وأسد شتيم .

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه . تصيده الضرغام فيما تصيدا

من الدسائس للاستيلاء عليها ، فقد أخذ « ابن عكاشة » على عهدته أن يضمن للمأمون أخذ المدينه التى ينشدها ، و «ابن عكاشة» هذا رجل

فقبض للحين على « عبد الملك » وأخواته ، وجميـع أهل بيته ، وبالغوا وقتهم فى الانتهاك لحرمه ، وإزالة نعمه ، وإخفار ذممه ، وأخرج الشيخ « أبو الوليد » بقية أشراف الأندلس ، وكان إذ ذاك مائل الشق ، مفلوج الشدق ، مغلوب الباطل والحق ، لم تحفظ له حرمه ، ولا رعى فيه إل ولا ذمه .

بلغنى أنه لما وسط به قنطرة « قرطبة » خارجاً منها على مركب هجين ، وحاله نفر منها عيون الحاسدين ، رفع يديه إلى السماء ، وأخذ يبتهل فى الدعاء ، فـكان مما حفظ عنه قوله : « اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا ، فأجبه لنا » .

ثم مات بعد أربعين يوماً من نكبته بجزيرة « شاطيش » مزال النعمة ، مدال الحرمة ، وأقرت ساقته بها ، أقاموا هناك بقية أيام « المعتمد » يأخذهم الحدثان ويدعهم ويخفضهم الزمان أكثر مما يرفعهم .

انتهى كلام ابن بسام رحمه الله .

(وقال الوراق) وفى سنة ست وخمسين نوه « أبو الوليد بن جهور » بابنيه « عبد الرحمن » و « عبد الملك » واستعان بهما دون تفويض منه إليهما ، فلم يلبث « عبد الملك » أن أنل مجده لأول ظهوره بالانتراب إلى « المعتضد عباد » فـكاتبه بما كان من أمره ، وبعد ذلك زاره « باشبيلية » فأكرمه « المعتضد » إكراما كثيراً ، وانصرف إلى « قرطبة » وقد زادت همته ، وبعدت آماله ، حتى فاق أخاه وغلبه على الأمر ، واستبد بالأمر دونه إلى أن جعل سجنه منزله ، وكان له بطانة سوء من السفال وسقاط الناس ، ومن لا خلاق له ، فـكان لهم تسلط على الناس بالأذى ، يهيم بهم فى كل واد من الدناءة، إلى أن غزا « قرطبة » البائسة « المأمون يحيي بن ذى النون » صاحب « طليطلة » فاستجاش عنـد ذلك « عبد الملك بن جهور » حليفه « المعتمد بن عباد » فأمده بجنوده وحشوده، حتى امتلأت منهم « قرطبة »

فظيع فاتك سفاح ، وكان قبل ذلك من اللصوص المتحرمين بالوعر والجبل ، وهو مع هذا فارس ذكى حديد القلب ، نابه الشأن ، وفوق

فوقع القتال بين أهل « قرطبة » و « ابن ذى النون » أياما إلى أن أقلع عنهم .

« قال صاحب البيان المغرب » .

ولما أقلع « ابن ذى النون » عن « قرطبة » اجتمع أهلها فى السر على أن يخلعوا « ابن جهور » ويولوا « ابن عباد » فأبرموا أمرهم وأحكموه ، وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور « ابن جهور » وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس وثاروا فى صبيحة اليوم الذى اتفقوا فيه مع قواد « ابن عباد » وقام أصحاب « ابن جهور » دونه،وكانوا طائفة قليلة ، فغلب عليهم أهل « قرطبة » واستوى الخائن « عبد الملك بن جهور » فى يد « ابن مرتين » قائد « ابن عباد » وانقرض ملك بنى جهور ، فكانت دولة « أبى الوليد بن جهور » بقرطبة ستا وعشرين سنة وستة أشهر ونصفا .

ومن كتاب « الأنباء ، فى سياسة الرؤساء » . قال :

لما أخذ « أبو الوليد بن جهور » العهد على أهل « قرطبة » لولى عهده ابنه « عبد الملك » وولاه على « قرطبة » جار واعتدى ، وتعاظم وتعاطى حتى سمى نفسه « ذا السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله » وخطب له فى منبر « قرطبة » بهذا كله، فسلط الله عليه نكاية « ابن ذى النون » له،وتضييقه عليه حتى ملك « حصن المدور » وحاصره بقرطبة ، فاستغاث « بالمعتمد محمد بن عباد » فوجه إليه مقدمه فى ثلاثمائة فارس ، ثم جدد فى إثرهم ألف فارس مع قائديه « خلف بن نجاح » و « محمد بن مرتين » فدخلوا « قرطبة » فانصرف « ابن ذى النون » منحوبا مغاظا ، فاستبان « ابن عباد » حال « عبد الملك » وضعف عقله ، وقلة رجاله ، وكراهية رعيته فيه ، فالحقهم الطمع فيه ، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب أنفه .

ذلك فإنه قد خبر « قرطبة » وعرفها معرفة جيدة ، لأنه لعب فيها دوراً هامًّا فيما سبق .

وثوى العسكر العبادى بقرطبة بعد رحيل « ذي النون » عنها أكرم ثواء ، وأهلها يبثونهم شجوهم ، ويطالعونهم على ماهم فيه ، ويناشدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبضوا على الغوى الظالم أميرهم « عبدالملك بن جهور » ويحبسوا البلد على سلطانهم « ابن عباد » فأصبحوا عشى يوم الأحد المؤرخ على تعبية سفرهم ، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه ، وأسرعا التقدم فى الجند والعامة إلى دار « عبد الملك بن جهور » فاستوى هو وخويصته فوق غرفة داره ، وتكاثر الجند عليهم ، فأتوه من كل جهة ، وتوصلوا إلى داره من السقف المتصل به ، ونزلوا منه إلى قعرها ، وغشيها جموع من الناس أعلاها وأسفلها كالجراد المنتشر ، فتقدمت العامة على النهب ، فصيروا جميع ما احتوى عليه قصره كحريق سريع ، وفضوا أقاصى مخازنه على نفيس أعلاقها ، وأما الشيخ « أبو الوليد » والده رب القصر فأوى إلى المقصورة ببناته وكرائمه ، فاقتحمها عليه قوم من النصارى فجردوهم ونهبوا ماعندهم ، فأصبح أميرا ، وأضحى أسيراً ، وآل الحال بالغوى ابنه إلى أن صعد إلى علية أغلقها على نفسه وعلى نسائه ، فارتقى الجند إليه ، ليقبضوا فيها عليه ، فطلب الأمان ، ونزل طائعاً للقائدين وبادر « ابن مرتين » بالمنع عن تخطى أحد من الناس ، وأعلن بالنداء بالسيف فى ذلك فكف السفلة ، وارتفع النهب ، وأسرع « ابن مرتين » الرجوع إلى دار المخلوع ، وقد حاصره « ابن نجاح » وقدما النظر فى إخراج الغوى ليومهما إلى حضرة « إشبيلية » فوكلا به من أخرجه على أعين الناس مع أخيه وطائفته ، ثم عطفا على النظر فى شأن الشيخ الضايل والدهم ومن معه من بناته ونسائه ، فصيرا جميعهم فى دار صغرى ، والتزم القائدان الجلوس للنظر فى الأمور إلى أن وصل « ابن عباد » « قرطبة » فملكها.

نقلنا هذه الفصول لعلاقتها بما هنا ، ولما فيها من الفائدة ، وقد أصلحنا فى عباراتها كلمات محرفة أرشدنا إليها التأمل ؛ ودلنا عليها صدق النظر .

فلما عين حا كما لبعض الحصون ، بدأ يخلق الدسائس وينشىء المؤامرات لقرطبة ، ولم يكن من الهين السهل عليه أن يغامر فى مخاطرة جريئة مثل هذه ، لولا أن الكثير من المواطنين كانوا مستائين من سير الأعمال ، ومن الخطط الرديئة العوجاء الملتوية .

وفى الحق ان الأمير « عبادا » كانت تبدو عليه مخايل البشر ، ويحدوه الأمل ، ولكنه فى هذه السن الصغيرة ، لم يكن فى استطاعته أن يتولى بنفسه أزمة الحكم ، ويضطلع وحده بأعباء المملكة لذلك كانت السلطة فى يد رئيس الحامية « محمد بن مارتن » الذى يظهر أنه من أصل مسيحى ، كان هذا الرجل جنديًا باسلا ، وفاتكا دمويًا قاسيًا ، مما حمل القرطبيين أن يمقتوه ويبغضوه ، وقد حامت الشكوك والريب حول الكثير من سكان « قرطبة » فى أن تكون لهم علاقة بابن عكاشة ، واتصال بمحاولاته الخفية .

على أن هذا الأخير لم ينجح نجاحا تامًا فى إلقاء الستار على أعماله وتدبيراته الخفية ، فقد لاحظ أحد حراس المدينة أن هذا الرجل الذى له سابقة فى اللصوصية ، كان كثيرًا ما يتردد على أبواب المدينة ليلا ويحادث بعض جنود الحامية ، مما حمل على الريبة ، وجعل الشبهة القوية تحوم حوله ، وقد سارع هذا الحرسى ، وأبلغ « عبادا » الحادث ، ولكن الأمير لم يعن كثيرًا بالأمر ، ولم يأبه للحادث ، وأحال المبلغ

على رئيس الحامية « محمد بن مارتن » وهذا أحاله على حرسى صغير دون درجته ، والنتيجة أنهم تواكلوا ، فكان كل واحد يلقى المسألة على عاتق الآخر لاتخاذ الحيطة والتدبير ، ولم يقم أحد بواجبه ، ولم يتخذ فى المسألة تدبير حازم .

***

ونشط « ابن عكاشة » للتجسس فى كل ليلة ، ولم يكف عن التربص وتحين الفرص،إلى أن أمكنته الفرصة . فى يناير سنة (١٠٧٥) من دخول المدينة هو ورجاله فى ليلة شاتية حالكة الظلام ، شديدة الرياح والعواصف ، وبادر قصر « عباد » وقد غاب عنه الحراس ، وكان على وشك أن يقتحم عليه باب القصر ، لولا أن الحرسى الموكل بالباب أسرع إلى إيقاظ الأمير فنهض ونفر شرذمة قليلة العدد من السودان والعبيد ، وخرج بنفسه على صغر سنه لملاقاة عدوه والوقوف فى وجهه ، ودافع دفاع الأبطال ببسالة وبأس حتى أكره المهاجمين أن يجلوا عن دهليز القصر ، وأخذ يطاردهم،وهنا زلت به قدمه فابتدره أحد رجال العصابة ، وانقض عليه فقتله ، وبقيت جثته فى الطريق العام عارية بالعراء ، لأنه حين أوقظ من نومه بغتة ، لم يجد من الوقت ما يكفى لارتداء ثيابه ، وانفتل « ابن عكاشة » برجاله يقصد دار رئيس الحامية ولم يدر فى خلد هذا الرجل ، ولا كان عنده كبير ظن فى أنه يعتدى عليه ويهاجم فى مثل تلك اللحظة التى اقتحموا عليه فيها داره وهو بين

شدو القيان ، ورقص الغيد الحسان ، وكان دون « عباد » ذلك الأمير الحدث شجاعة ، فلم يكد يسمع صلصلة السيوف فى فناء داره ، حتى سارع إلى مخبأ اختبأ فيه ، ولكنه سرعان ما عرف حين كشف فقبض عليه ، وقتل فى المساء .

وفى غلس الصبح قبل إسفار الفجر بينما كان « ابن عكاشة » يطوف بأنحاء المدينة على دور العظماء والنبلاء يدعوهم للانضمام إليه كان بعض الأئمة ذاهبًا لتأدية الصلاة فى المسجد ، فرأى جثة « عباد » وقد فارق الحياة ملقاة على الأرض بين الطين والوحل ، فرحم مصرعه ، ونزع ثيابه ورماها على جسمه العارى ، ولم يكد الشيخ يمضى لسبيله حتى جاء « ابن عكاشة » بين صيحات الفرح والسرور على نحو ما يحدث فى المدن الكبرى فى إبان الثورات ، وما وقف على « عباد » وهو بهذه الحالة حتى أمر بفصل رأسه من عنقه وأن ترفع على رمح ، ويطاف بها فى أنحاء المدينة ، ولم ير ذلك جنود الحامية حتى ألقوا السلاح ، وركنوا إلى الفرار ، وجدوا فى الهرب .

ثم جمع « ابن عكاشة » أهل « قرطبة » بالمسجد الجامع ، وبدأ يأخذ البيعة «للمأمون»،وكان كثير منهم لايزال متعلقا «بالمعتمد» يكن له الإخلاص والوفاء ، ولما كان الخوف عظيما وشاملا لم يستطع أحد أن

يتخلف عن البيعة (١) .

---

(١) تثبت هنا هذا الفصل التالى من قلائد العقيان . للفتح بن خاقان ، لارتباطه بكلام دوزى قال الفتح بعد كلام فى « المعتمد »

وكانت قرطبة منتهى امله، وكان روم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها ومواصلة واليها إذ لم يكن فى منازلها قائد ، ولم يكن لها إلا حيل ومكائد ، لاستمساكهم بدعوة خلفائها ، وأنفتهم من طموس رسم الخلافة وعنائها ، وحين اتفق له تملكها ، وأطلعه فلكها وحصل فى قطب دارتها ، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها ، قال من البسيط.

«من للملوك بشأو الا صيد البطل	هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذا منعت	من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها	فأصبحت فى سرى الحلى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس	كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبالكم	هجوم ليث بدرع البأس مشتمل»

ولما انتظمت فى سلكه، واتسمت بملكه. أعطى ابنه «الظافر» زمامها، وولاه نقضها وإبرامها ، فأفاض فيها نداه ، وزاد على أمده ومداه ، وحملها بكثرة حبائه واشتغل باعبائها عن فنائه ، ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلا عن المكر ساهيا ، حسن ظن بأهلها اعتقده ، واغترار بهم ماروا وه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفنوه فى دمائه ، ودفنوه بذمائه ، وكم من عرش سلوه ، وعزيز أذلوه ، إلى أن ثار فيها «ابن عكاشة» ليلا، وجر إليها حربا وويلا، فبرز «الظافر» منفرداً من كماته، عاريا عن حماته، وسيفه فى يمينه، وهاديه فى الظلماء نور جبينه، فانه كان غلاما كما بلله الشباب بأندائه ، وألحفه الحسن بردائه ، فدفعهم أكثر ليلته ، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا ، ولا استقل منها ولا سعى ، فترك ملتحفا بالظلماء، مغبرا فى وسط الحماء، تحرسه الكواكب ، بعد المواكب ، ويستره الحندس، بعد السندس، فمر بمصرعه سحرا أحد أئمة الجامع المغلسين وقد ذهب ما كان عليه ومضى ، وهو أعرى من الحسام المنتضى ، فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه ،

ومرت أيام ثم جاء « المأمون » بنفسه ودخل « قرطبة » وهو

وستره به سترا أقنع المجد وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة ، فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، وسعر الجوى لوعته، رفع بالعويل نداءه وأنشد :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

ولما كان من الغد حز رأسه ، ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأبصار، وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسووا للفرار أجنحتهم ، فمنهم من اختار فراره وخلاه ، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه ، وشغل « المعتمد » عن رثائه بطلب ثاره ، ونصب الجبائر لوقوع « ابن عكاشة » وعثاره ، وعدل عن تأبينه ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلا أشارته إليه فى تأبين أخويه « المأمون » و « الراضى » المقتولين فى أول النائرة التى ينتهى بنا القول إلى سرد خبرها، ونص عبرها، فإنه قال (طويل) :

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر ... سأبكي وأبكى ما تطاول من عمرى

نرى زهرها فى مأتم كل ليلة ... يخمشن لهفا وسطه صفحة البدر

ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا ... ويا صبر ما للقلب فى الصبر من عذر

مدى الدهر فليبك الغمام مصابه ... بصنويه يعذر فى البكاء مدى الدهر

بعين سحاب واكف قطر دمعها ... على كل قبر حل فيه أخو القطر

وبرق ذكى النار حتى كأنما ... يسعر مما فى فؤادى من الجمر

هوى الكوكبان «الفتح» ثم شقيقه ... يزيد فهل بعد الكواكب من صبر

أفتح ! لقد فتحت لى باب رحمة ... كما بيزيد الله قد زاد في أجرى

هوى بكما المقدار عنى ولم أمت ... وأدعى وفيا قد نكصت إلى الغدر

توليتما والسن بعد صغيرة ... ولم تلبث الأيام إن صغرت قدري

يتظاهر بمنتهى الإعجاب والتقدير لابن عكاشة ويبالغ فى إكرامه والحفاوة به ، والثناء على حسن بلائه ، حتى ليظن من رآه أنه قد أولاه ثقة لا حد لها ، وهو فى الواقع يمقته كل المقت ، ويرى فيه اللص القديم ، والقاسى المجرم الأثيم ، والفاتك الذى لا يرضيه من خصمه ، غير سفك دمه ، وأن يسقيه كأس الحمام بيده ، كما فعل فى ذبح « عباد » الحدث ، لهذا كله أخذ « المأمون » يبحث عن سبب يتعلل به ، أو حيلة يتذرع بها للقضاء على خصمه الخطر خاسة من غير أن يحدث فى المملكة ضجة ، ولكنه لم يجعل ذلك حديثاً مكتما فى نفسه ، بل كان كثيراً مايكاشف بهذا الرأى خواصه وجلساءه ، حتى أن « ابن عكاشة » انصرف من مجلسه ذات يوم ، وجعل هذا يصعد الزفرات ، ويتبعه بنظرات حادة من عينين يتطاير منهما الشرر ، ويجمجم بكلمات أعقبت شؤماً ونحساً ، وأراد بعض الموالين لابن عكاشة أن يدافع عنه ، ويصفه بحسن الفعال ، وجميل الخلال ، فقال « المأمون » دع عنك

فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى ... إذا أنتما أبصرتمانى فى الأسر

بعيد على سمعى الحديد نشيده ... ثقيلا فتبكى العين بالحس والنقر

معى الأخوات الهالكات عليكما ... وأمكما الثكلى المضرة الصدر

فتبكى بدمع ليس للقطر مثله ... ويزجرها التقوى فتصغى إلى الزجر

أبا خالد أورثتنى البث خالدا ... أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى

وقبلكما ما أودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

هـذه الكلمات الجوفاء ، فإن رجلا لايحتفظ بالجميل ، ولا يرى حياة الملوك فى نظره إلا رخيصة ، غـير خليق أن ينال ثقتهم ، أو يبقى فى خدمتهم

ولم يمض على دخول « المأمون » قرطبة ستة شهور حتى قتل مسموما أى بعد انقضاء شهر يونيه سنة (١٠٧٥) وقد اتهم بقتله أحد المترددين على مجلسه ، ولـكن هل يمكن ألا تكون لابن عكاشة يد فى هـذه الجريمة ؟ هذا مالايكاد يصدقه العقل

ولنترك الآن حـديث الاستيلاء على « قرطبة » وما أعقبـه من الحوادث ، وننتقل إلى قصر إشبيلية ، ولنتصور مبلغ ماوصلت إليه حال « المعتمد » حين نعى إليـه ذلك الخبر المشئوم المزدوج : سقوط قرطبة ، وموت ابنه « عباد » المرزوق له من سريتـه الرومية الحسناء التى أولع بحبها ولعاً شديداً . ومع أن نزعة الانتقام . والأخذ بثأر ابنه المقتول كانت تجيش بصدره ، فقد كان إلى جانب هذا الشعور شعور آخر ، وهو تقدير يحسه فى أعماق نفسه لذلك الشيخ الفقيه الذى مر على « عباد » مقتولا فنزع بدافع العاطفة النبيلة رداءه ، وألقاه على جثمانه العارى ، وهو يأسف إذ لم تتح له فرصة مكافأة ذلك الشيخ النبيل على حسن صنيعه ، وكثيراً ما كانت تتحرك فى نفسه هذه الذكرى الأليمة ، فيقول :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه   سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ومضت ثلاث سنين ضاع فيها ذلك المجهود العظيم الذى بذله ليسترد «قرطبة» ، وليثأر لولده المقتول من «ابن عكاشة» إلى أن قيض الله له الاستيلاء عليها عنوة فى يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر سنة (١٠٧٨) ، وفى الوقت الذى دخل فيه « المعتمد » من باب قرطبة كان «ابن عكاشة» قد بارحها من الباب الآخر ، ولم يتركه « المعتمد » يفلت من يده بل بعث فى الحال خيالة فى اثره تمكنوا من اللحاق به ، ولما أدركه الطلب ، وأيقن أنه لا مطمع له فى الصفح من ملك موتور بقتل ابنه ، أراد على الأقل ألا يبيع حياته رخيصة ، فكر على أعدائه وقاتلهم قتال المستميت ، إلى أن ذهب ضحية وفرة العدد ، وأمر «المعتمد» بجثته فصلبت على خشبة و إلى جانبها كلب .

وأعقب غزو وفتح « قرطبة » فتح كورة « طليطلة » وأراضيها الممتدة بين الوادى الكبير ووادى آنه ، وهذا فى الحقيقة يعد نجاحاً كبيراً باهراً ، ونحن لو حاولنا أن نقارن بين « المعتمد » وغيره لرأيناه أقوى ملوك الطوائف ، وأكثرهم نفوذاً وامتداد سلطان ، ولكنه مع هذا لم يكن أكثر منهم استقلالا ، إذ كان هو عليه أيضا أن يؤدى الإتاوة ، فأما أولا فكان يدفعها (لغرسية) ثالث أولاد «فردينند» وأما ثانياً فكان يدفعها لملك « غاليسيا » وأما ثالثا فكان يدفعها

«للأذفونش» السادس، من حين أن استولى على مملكة الشقيقين «سانكو» و«غرسية» وكان «الأذفونش» ملكا مزعجا متعبا فى طلب الإتاوة. إذ هو لا يقنع بما يتقاضاه من إتاوة سنوية فحسب، بل كان فى الفينة بعد الفينة يفرض ضرائب على الممالك التى يدفع لها أبناء ملوك العرب جزية، فإن لم يؤدوها، و إلا هددهم بالاستيلاء على بلادهم.

وحدث مرة أنه جمع جيشا قويا، وتقدم به لغزو بلاد «إشبيلية» فاستولى على المسلمين الرعب، وشملهم حزن يفوق الوصف، وذلك لما كانوا عليه من الضعف البالغ الغاية، بحيث كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وكان كبير الوزراء «ابن عمار» هو رجل الدهاء الوحيد الذى لا يتسرب اليأس إلى قلبه، وكان يعلم أن جمع جيش إشبيلى لملاقاة الجيوش المسيحية، وردهم عن البلاد، وهم باطل، وحلم كاذب.

ولكنه رأى أن الأذفونش يعرفه لأنه كثيراً ما كان يتردد على خيمته، وأن من السهل عليه لما عرف عنه من الطمع والميول الخاصة أن يتغلب عليه بقوة الحيلة والدهاء، وعلى هذه الناحية عول «ابن عمار» ولم يشأ أن يضيع الوقت فى التسلح، وأخذ الأهبة للحرب والقتال. وأخذ يتردد على معسكر العدو، ومعه رقعة شطرنج غاية فى الإتقان والفخامة لا يوجد لها نظير عند الملوك، وكانت صورها من الآبنوس والعود والصندل، وأرضيتها غاية فى الابداع مموهة بالذهب، وذاع خبر

الشطرنج حتى وصل إلى أسماع الأذفونش على لسان نبيل من المقربين إليه ، فطلب الأذفونش ابن عمار وسأله !

— هل تجيد لعب الشطرنج ؟ فأجابه ابن عمار وكان طبقة فيه:

— اشتهر عنى بين أصدقائى أنى أجيد لعبة الشطرنج

— قيل لى ان عندك شطرنج بديع معدوم النظير

— نعم هو ذاك

— هل يمكن أن أراه ؟

— لا مانع من ذلك ، ولكن على شريطة أن نلعب معاً ، فإذا غلبتنى كان الشطرنج لك ، وإذا غلبتك فلى حكمى، وبعد مراجعة وحوار بينه وبين خاصته قبل الشرط ، وجىء بالشطرنج فكان موضع إعجاب «الأذفونش» ودهشته لجماله ودقة صنعه، وصاح من فرط دهشته وصلّب إكباراً له واستحسانا لصنعه، وقال : «والله ماخطر ببالى قط أن فى وسع إنسان أن يبدع فى صنع شطرنج بمثل هذه الدقة الفنية العجيبة »

وظل ينعم النظر ، وقد اشتد اعجابه بالشطرنج ثم قال لابن عمار :

أعد على ما قلت ، واذكر ما اشترطته على ، فأعاد ابن عمار عبارته الأولى، فقال «الأذفونش» إنى لاألعب على شرط مجهول، إنك تستطيع أن تسألنى أمراً ليس فى استطاعتى أن أجيبك إليه .

فأجابه ابن عمار بفتور وطوى رقعـة الشطرنج وأمر أن تحمل إلى خيمته وقال :

« شأنك – أيها الملك – وماتريد أنا لاألعب إلا على هذاالشرط »

وانفصل الإثنان دون اتفاق ولم يدرك « ابن عمار » الملل ، ولم يحل اليأس بينه وبين الوصول إلى إتمام هذه الحيلة السياسية ، فقد عمد إلى بعض نبـلاء القشتاليين ، وأسر إليهم بأنه إذا ربح الدور لا يطلب مستحيلا،ووعدهم بمبالغ طائلة إذا هونوا على «الأذفونش» الأمر،وكانوا فى عونه ، فاستهوتهم هذهالوعود البراقة ، وخلبألبابهم بريق الذهب، واستوثقوا من الوزير المسلم ، وقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يكونوا فى صفه،وكان«الأذفونش» شديد الميل إلى اللعب لثقته من نفسه يتحرق رغبة فى الحصول على الشطرنج ، فحسنوا له أن يلعب معه ، وقالوا له ماذا عسى أن يطلب هـذا مهما اشتط فى الطلب ، وأنت ملك ملوك النصارى فلا ينبغى أن تظهرأمام هؤلاء بمظهر العجز ، ومتىغلبته وفزت عليه ظفرت بشطرنج يحسدك عليه الملوك ، وهب أنك خسرت واشتط فى الطلب فإنا نرده إلى صوابه .

وما زالوا به حتى اقتنع بما أشاروا به عليه ، فبعث إلى « ابن عمار » يبلغه أنه علىاستعداد لملاعبته ، ولما حضرقال له « قد قبلت شرطك ، فهيا نلعب » ، فقال حسن ، ولـكن ليحضر فلان وفلان لرجال سماهم

من نبلاء القشتاليين ، ليكونوا بمثابة شهود على اللعب ، فقبل الملك وأخذا يلعبان إلى أن انتهى الدور بِغَلَب « ابن عمار » غلبا ظاهرا لا مطعن فيه لأحد ، فالتفت « ابن عمار » إلى الملك وقال :

« الآن لى أن أطلب حسب الشرط ما أريد » فأجابه الملك :

« بلا شك . فماذا تطلب ؟ » قال :

« أطلب أن تعود إلى مملكتك ، وتكف عن القتال »

فهاج هائج « الأذفونش » وأخذ يذهب ويجىء فى خيمته ، وهو يخطو خطوات واسعة ، ثم جاس ، ثم نهض قائما ، وهو فى أشد حالات الهياج والقلق ، ثم قال لجماعة النبلاء من القشتاليين الذين غرروا به : « هأنذا قد وقعت فى الشرك . وأنتم كنتم السبب ، وهذا أخوف ما كنت أخافه من طلبات هذا الرجل ، لولا أنكم طمأنتمونى ، وأنا الآن أجنى ثمرة مشورتكم الممقوتة »

وبعد صمت دام لحظات قال : « وما الذى يعنينى من شرط التزمت به لهذا الرجل ، أنا لا أحفل بأمر مثل هذا البتة ، وسأواصل زحفى » .

فقال القشتاليون :

« إن فى هذا رجوعا عما قطعته من العهد على نفسك ، ومساسا بالشرف ، وهل تحب أن يتحدث الناس عنك —وأنت ملك ملوك

النصارى– أنك نقضت عهدك ، ورجعت فى قولك ؟ »

وبعد لأى هدأت ثائرة «الأذفونش» وسمحت نفسه فى النهاية أن يقول لهم :

« سأفى بمضمون الشرط ، وأنجز ما وعدت به ، ولكني لا أرجع بجنودى إلا بعد أن آخذ الجزية عن هذا العام مرتين .»

فقال « ابن عمار » :

« سيكون –أيها الملك – ما تريد . »

وبادر « ابن عمار » فحمل إليه مبلغ الجزيتين ، وهكذا نجّى الله المسلمين من الخوف بتدبير هذا الوزير الكبير ومهارته .

الفصل الحادى عشر

لم يقنع « ابن عمار » بما وفق إليه من انقاذ مملكة « إشبيلية » من مخالب « الأذفونش » ورد عادية هذا الطاغية عنها ، بل رغب فى أن تمتد حدود المملكة وتتسع رقعتها، واتجهت أطماعه إلى ولاية « مرسية » التى كانت من قبل قسما من مملكة « زهير » ثم من مملكة « بلنسية » ولكنها كانت مستقلة فى العصر الذى نتحدث عنه الآن ، وكان « أبو عبد الرحمن بن طاهر » ملكها ، والمدبر لشؤونها ، وهو من أصل عربى ينتسب إلى قبيلة « قيس » ، وكان ملكا طائل الغنى ، ضخم الثروة ، قد دخل فى حوزته نصف المملكة ، وكان – مع غناه الطائل – مثقفا خصب الذهن ، حصيف الرأى ، ولكنه مع كل هذه المزايا لم يكن كثير الخيل والجند ، مما جعل الاستيلاء على بلاده ميسوراً وسهلا ، وقد لاحظ ذلك « ابن عمار » .

وفى سنة (١٠٧٨) مر « بمرسية » لمقابلة « الكونت دى برشلونة ريمون بيرنجيه » الثانى المعروف باسم « كاب دى توب » وإنما سمى كذلك نظراً لغزارة شَعره، وإنما عرج على هذا الكونت ليخفى السبب الحقيقى الذى من أجله مر بهذه الجهة . ولكى يهتبل هذه الفرصة، ارتبط بروابط الصداقة

مع بعض أعيان مملكة « مرسية » الذين علم أنهم كانوا فى حالة استياء من « ابن طاهر » أو أنهم على استعداد للخيانة والانقلاب متى اشترى ضمائرهم بالمال .

ولما كان فى حضرة « ريمون » عرض عليه عشرة آلاف متقال ذهبا لقاء مساعدته بجنود من عنده لفتح « مرسية » فقبل الكونت الاقتراح ، وتعاقد معه على أن يكون «ابن المعتمد» الذى يتولى قيادة جيش « إشبيلية » رهينة عنده ، حتى يصله المبلغ المتفق عليه ، وسلم الكونت ابن أخيه لابن عمار كرهينة وضمان لتنفيذ شروط المعاهدة ، وكان « المعتمد » يجهل نص الاتفاق الذى يجعل ابنه رهينة عند الكونت ، وضمانا لوصول المبلغ ، و « ابن عمار » كان على يقين من وصول المبلغ فى الوقت المعين ، فلا محل للخوف من تطبيق هذا النص، وليس ثمة مايوجب بقاءه رهينة عند «ريمون» مادام المبلغ يصل فى الوقت المحدد .

وتم الاتفاق ، واجتمعت جنود « إشبيلية » بجنود « ريمون » وزحف الجيش المتحد لمهاجمة ولاية « مرسية » المستقلة . ولما كان من عادة « المعتمد » التهاون، ترك الأجل المضروب موعدا للدفع يمر دون أن يصل المبلغ فى موعده ، فترجح عند الكونت أن « ابن عمار » خدعه . فاستشاط غضبا ، وأمر بإلقاء القبض على « ابن عمار » وابن

المعتمد قائد جيش « إشبيلية » وحاول جيش « إشبيلية » إنقاذها ، فهُزم واضطر إلى الانحدار .

وكان « المعتمد » لا يزال فى طريقه إلى « مرسية » مع ابن أخى السكونت وحاشيته ، وقد أبطأ به السفر ، فلم يكن قد جاوز بعد ضفاف « الوادى اليانع » وكان النهر فى إبان فيضانه فلم يكن قد عبره ، وثمة صادفه بعض فلول جيشه على الضفة الأخرى للنهر ، ومعهم فارسان يحملان إليه رسالة من « ابن عمار » فاقتحما بجواديهما النهر ، وأبلغا « المعتمد » اعتقال « ريمون » لابنه ولوزيره ، وأن هذا الأخير بعثهما إليه يريدمنه أن يتعجل خلاص السجينين ، و إطلاق سراحهما ، بتنفيذ شروط الاتفاق ، وأشار إليه أن يبقى حيث هو . فلم يقو فؤاده على احتمال هذه الكارثة ولم يطق صبراً ، وقلق على مصير ولده ، ووضع ابن شقيق « ريمون » فى السلاسل والأغلال .

ومضى على هذه الحال عشرة أيام ، دخل فيها « ابن عمار » فى جوار « جاين » فأطلق سراحه ، وجاء إلى « المعتمد » ولكنه لم يستطع المثول بين يديه تفاديا من غضبه . وتلطف فأرسل اليه يقول :

« أأسلك قصداً أم أعوج عن الركب

فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى : أفى البعد راحتى
فأجعله حظى ، أم الحظ فى القرب
إذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وإن أتعقَّبْهُ نكصت على عقبى
على أننى أدرى بأنك مؤثر
على كل حال مايزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى
وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب
حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه
وليس له — غير انتصاحك — من حَسْبِ
وما جئت شيئًا فيه بَغْىَ لطالب
يضاف به رأى إلى العجز والعجب
سوى أنى أسلمتنى لملمة
فللت بها حدّى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربى

أما إنه لولا عوارفك التى
جرت جريان المـاء فى الغصُن الرطب
لمـا سمت نفسى ما أسوم من الأذى
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
وأسأل سقيا من تجـاوزك العذب
فإن نفحتنى من سمائك حَرْجَفٌ
سأهتف : « يابرد النسيم على قلبى ! »

ولما كان « المعتمد » يشعر أنه هو الذى جر على « ابن عمار » وابنه « الراشد » ماوقعا فيـه ، لم يسترسل فى غضبه ، واحتفظ بصداقة « ابن عمار » ورق له ورد عليه بهذه الأبيات . (١)

---

(١) ذكر صاحب قلائد العقيان فى سبب هـذه الأبيات وجها آخر قريبا من الوجه الذى ذكره « دوزى » هنا ، فقال :

«ولمـا فغر « المعتمد » على« مرسية » فمه ، وأراد أن يرفع بها علمه ، ويثبت بها قدمه ، ويتخذ ملاكها خوله وخدمه ، وجعل « ابن طاهر » عرضه ، ونبذ دمام الوفاء له ورفضه ، لضيق مجاله ، وقلة رجاله، عجمأعواده، وسبر أنجاده، فلم ير سهما يفوقه لعرشه ، ولا شهما يطوقه أمر جيشه ، إلا « ابن عمـار » رأيا لم ينتقده ، واعتقادا لم يفتقده ، وظماأخلمه ، وقضاء ماأسلمه ، مجازاةلبغيه ، وموازاة لقبح سعيه ، وانتصارا من الله لمن لم يجن ذنبا ، ولم ينءعن مضجع الموالاة جنبا ، فلما وصل إليها ، وحصل عليها ، وفض ختمها ، وصحح لنفسه اسمها ، نبذ عهد

« لدى لك العتبى تراح من العتب | وسعيك عندى لا يضاف إلى ذنبى
وأعزز علينا أن تصيبك وحشة | وأنسك ماندريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بى، وتعدَّه | إلى غـيره فهو الممكن فى القلب
قريضك قد أبدى توحش جانب | فراجعت تأنيسا وعلمك بى حسبى
تكلفته أبغى به لك سـلوة | وكيف يعانى الشعر مشترك اللب »

واطمأن « ابن عمار » لهذه الأبيات ، وأهوى إلى قدمى الملك يريد

« المعتمد » وخلعه ، وأنزل ذكره من منابرها بعد ما أطلعه ، فقيض له من « ابن رشيق » رجل حكاه فعلا ، وصار لتلك العقيلة بعـلا ، فاقتص منه اقتصاص ابن ذى يزن من الحبشان ، وتركه أخسر من أبى غبشان ، ما كان إلا ريثما أوقد جمره ، وقلده نهيه وأمره ، وخرج هو إلى افتقاد أقطاره ، وقضاء بعض أوطاره ، حتى ثار له ثورة الأسد الورد ، وامتنع له بمرسية امتناع صاحب الأبلق الفرد ، فبقى « ابن عمار » ضاحيا من ظل غبطته ، لاحيـا نفسه على غلطته ، ولما استبهم أمره ولم يعلم له تفسيرا ، وعاد جناحه الوافر مهيضا كسيرا ، أراد الرجوع إلى « المعتمد » فخاف أن يوبقه غدره ، وعزم على القعود عنه فضاق بفقد ماعهده عنده صدره ، فـكتب إليه :

« أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب | فقد صرت من أمرى على مركب صعب »

إلى آخر القصيدة .

ثم قال : « فرق له المعتمد وأشفق ، وأقشع نوء حقده عليه وأخفق ، وعزم على الصفح عنه والتجاوز ، وأن يرفع بالإغضاء له تلك المعاوز ، فـكتب إليه مراجعا :

« لدى لك العتبى تراح من العتب »

إلى آخر الأبيات التى أثبتها « دوزى » فى كتابه ، كما أثبت أبيات « ابن عمار » السابقة

تقبيلهما ، ورجاه أن يقدم للكونت ابن أخيه والعشرة الآلاف ذهبا ، حسب الاتفاق فى نظير أن يطلق سراح ابنه « الراشد »

ولكن « ريمون » طمع فى أكثر من المبلغ المتفق عليه ، فاشتط فى الطلب ، ولم يقبل عشرة الآلاف المشروطة ، بل طلب ثلاثين ألفا ذهبا .

ولم يكن « المعتمد » يحمل كل المبلغ المطلوب ، فأمر بضرب مسكوكات أدخل فى تركيبها عناصر زائفة ، ولحسن حظه لم يدرك « ريمون » مبلغ مافيها من الغش فقبلها ، وأطلق سراح « الراشد » ابن المعتمد .

* * *

وما زال « ابن عمار » على الرغم من نجاحه الشبيه بالخذلان ، ومحاولته الأولى المنطوية على الإخفاق — متطلعا إلى « مرسية » طامعا فى أخذها ، وقد زعم أن كتبا تواردت عليه من كبار زعماء « مرسية » تبعث عنده عظيم الأمل فى النجاح المحقق ، وأخذ يحسن « للمعتمد » غزوها حتى سمح له أن يذهب على رأس جيش إشبيلى لحصارها ، وعند وصوله الى « قرطبة » بقى فيها أربعا وعشرين ساعة حتى ينضم إليه الخيالة من جند المدينة ، وأمسى ليلة وجوده بها فى قصر ابن « المعتمد » الحاكم على المدينة ، وبات يحادثه ليلته كلها ، والأمير مسرور بحديثه ، معجب بوفرة ذكائه ، شاعر بجاذبية قوية نحوه إلى

أن انبثق الفجر ، فجاء أحـد الخصيان يعلن بطلوع الفجر ، فنظر إليه وارتجل مامعناه :

هذه ليلة قد أمضيناها مع الأمير فى سرور ، وقطعناها فى حبور ، وقد دامت وضاءة الجبين مشرقة المحيا ، بطلعته البهية ، وغرته المضية ، فهى ليلة كلها بالأمير صبح ، فماذا تعنى بالفجر أيها الأحمق ؟ »

واستأنف السير فى الصباح إلى أن وصل إلى حصن « بلج » أطلقوا على هذا الحصن اسم زعيم من عرب الشام الذين نزلوا فى هذا المكان فى القرن الثامن للميلاد ، وكان على الحصن رجل عربى من قبيلة « بلج » يدعى « ابن رشيق » فبادر إلى استقباله ، ودعاه للنزول بقصره ، فقبل الدعوة ، ورأى من الحفاوة والفخامة وأسباب المرح والسرور ، ماجعله يوليه ثقة بالغة لم يسىء الرجل وضعها ، بل سار مع صديقه الجديد إلى أن وصل الجيش إلى « مرسية » وضرب الحصار على « مولا » ، ولم يدم الحصار طويلا حتى سـلمت وكانت طريق وصول المؤن الى أهل « مرسية » ، فـكان سقوطها خسارة فادحة لهم مما جعل « ابن عمار » لايشك فى أنها على وشك التسليم ، وقد ترك « مولا » فى حراسة كتيبة من الفرسان بقيادة « ابن رشيق » . وعاد بسائر الجيش إلى « إشبيلية »

ولم يكد يلقى بهـا عصا التسيار حتى وردت عليـه كتب عضده

ومساعده « ابن رشيق » يخبره فيها أن المجاعة قد أضرت بأهل « مرسية » ضرراً بليغاً ، وأن طائفة من أهلها من ذوى النفوذ والجاه قبلوا أن يساعدوا المحاصرين لقاء الحصول على مراكز مهمة فى الدولة، وعلى هدايا نادرة نافعة ، فقال « ابن عمار » حينئذ : « سترد إلينا الأخبار غداً أو بعد غد مبشرة بأن حامية « مرسية » قد سلمت »
وقد صدقت نبوءته ، وتحققت أمنيته ، فإن فريقا من الخونة من أهل المدينة قد فتحوا أبوابها ، فدخل « ابن رشيق » وتسلمها ، واعتقل « ابن طاهر » ، وأخذ بيعة جميع الأهالى « للمعتمد »

* * *

وبلغ « ابن عمار » ماتم على يد «ابن رشيق » فامتلأ قلبه سروراً، وطلب إلى « المعتمد » أن يأذن له فى اللحاق بمرسية ، فلم يتردد فى الإذن له بذلك ، واعتزم أن يغمر جماعة من المرسيين بالهدايا ، فصحب معه عدداً من الخيل بسروجها ولجمها أخذها من الاصطبلات الملكية ، وأضاف إليها عدداً من البغال حملها صناديق ملئت بالحلل النفيسة والثياب . وقد بلغ عدد الأفراس والبغال زهاء مائتين ، وسار فى طريقه إلى « مرسية » فى موكب حافل بين دق الطبول ، وخفق الأعلام ، وكان يعرج على كل مدينة يمر بها ، ويدع فيها من الصناديق الملكية ماهو برسم أهلها .

ودخل مرسية فى يوم وصوله إليها بمظهر عادى ، وفى الغد أجرى

له استقبال فخم برز فيه لأهل المدينــة بروز الملوك الفاتحين ، وقد وضع على رأسه تاجا مشرفاً مثل الذى يلبسه عادة مولاه فى الحفلات الـكبرى ، وقد بدأ يسـتبد بأمر المملكة ، فكان يوقع على رقاع الشكوى بتوقيع خاص به ، ويغفل اسم « المعتمد »

إن هـذا المسلك الشاذ الدال على الزهو والإعجاب والاعتـداد بالنفس والاستبداد بشؤون المملكة الجديدة جعل « ابن عمار » كثائر على مولاه ، وهذارأى « المعتمد » واعتقاده فيه،ولـكنه لم يظهر بمظهر الغاضب الحانق عليه ، بل استسلم ليأس وحزن كامن فى النفس ، وبدأ يشعرأن حلم الصداقة اللذيذ الذى يرجع ابتداء عهده إلى خمس وعشرين سنة قد تلاشى الآن، وأنه كان مخدوعا فى ذلك الميل القلبى الـكاذب ، فصداقة « ابن عمار » القديمة ، وظهوره دائما بمظهر الخل الوفى ، والصديق الحميم الذى لا ينفصم عرا صداقته تطاول الأيام ، والصاحب المخلص النزيه المجرد من العلل والغايات ، كل أولئك إذن لم يكن سوى كذب ورياء وخبث ونفاق .

***

ولعل « المعتمد » كان واهماً فى تأثيم « ابن عمار » وتجريحه وإساءة الظن به إلى هـذا الحد ، ومما لا ريب فيه أن الفكرة الخاطئة الأثيمة فـكرة الثورة على مولاه وولى نعمته لم تكن لتمر بخاطره البتة ، والذى جعـل الريب والشكوك تحوم حوله من جانب « المعتمد » هو زهوه

المفرط الذى بلغ به إلى حد الجنون ، ولم يكن من ضعف الخلق ، وفتور المودة ، وعدم الشعور بأثر النعمة ، بحيث يدفع صداقة « المعتمد » وينسى ماله عنده من يد ، وما طوقه به من جميل ، بل الواقع الذى لايرتاب فيه أحد أنه كان يحب مليكه حبا صادقا يدل عليه ما نظمه فيه بعد تغيره عليه من أشعار تفيض بالحب والإخلاص والولاء

وقد نطقت أشعاره الكثيرة ، وقصائده التى كان يدفع بها هذه التهم والظنون عن نفسه ، بأن ولاءه لم يتغير ، وأن طبعه لم يتحول ، وأن حبه لأعز الأشياء عليه ، ومنها نفسه التى بين جنبيه ، أقل بكثير فى قوة التأثير، وصدق الشعور ،من حبه الصادق القوى « المعتمد »

وما يدرينا لعل ظروفا غير هذه الظروف لو كانت هيأت لهما الاجتماع ساعة يتحدث كل منهما فيها إلى صاحبه ، ويفضى إليه بدخيلة نفسه ، ويتناجى فيها قلبان طالما ائتلفا ، مايدرينا لعل هذه الساعة لو أتيحت لكانت كافية ، للتوفيق بين هذين الروحين المتمازجين ، والقضاء على تلك الوساوس والمخاوف التى أوغرت صدر الملك على وزيره ؟ إن من بواعث الأسف أن تتسع مسافة الخلف بينهما ، وأن يحمل الحقد والحسد جماعة من الإشبيليين الايقاع « بابن عمار » والسعاية والدس له ، وتأويل كل عمل وكل كلام وكل حركة تصدر عنه تأويلا ينطوى على الخبث والوقيعة ، وإظهاره دائما بالمظهر البشع الشنيع ،

* * *

هؤلاء الحسدة الجبناء استولوا على لب « المعتمد » وعقله ، وهم الذين يذكرهم فى شعره كثيراً ، وينسب إليهم تغيير قلب مليكه عليه ، ومن بينهم وزيره ابن الشاعر الكبير «أبى الوليد بن زيدون» الذى كان له أكبر نفوذ فى القصر والذى يرجع إليه السبب الأكبر فى إيغار صدر « المعتمد » عليه ، وإحاطته بكل أنواع الشكوك والريب من حين دخل « مرسية » بإذنه ، وتمكن هذا من خلق أسباب القطيعة بينهما ، وهناك خصم آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو « ابن عبد العزيز » ملك بلنسية وصديق « ابن طاهر » وقد كان « ابن عمار » على أثر دخوله « مرسية » يحاول أن يصطنع « ابن طاهر » صاحب « مرسية » المخلوع ويستميله إليه بكل أنواع الحفاوة والتكريم ، وقد أرسل رسولا عرض عليه كثيراً من الحلل الفاخرة ليختار منها ما يروقه ويعجبه ، وكان « ابن طاهر » —لحدة طبعه، ومزاجه النارى— قد هزل جسمه من جراء فقد ولايته، فلما جاءه الرسول قال: «ارجع إلى سيدك ومولاك «ابن عمار» وقل له : إننى لا أقبل من هداياه سوى جبة الصوف الطويلة ، والقلنسوة الصغيرة الحقيرة .» وقد بلغته هذه الرسالة وهو بين خواصه وحاشيته ، فسقط فى يده ، وأخذ يعض بنان الندم أسفاً وغماً ، وأدرك « ابن عمار » مغزى ما يقوله « ابن طاهر » وأنه يرمي بكلامه هذا إلى زيه المضحك المزرى الذى كان يلبسه أيام بؤسه وخموله ، وأيام أن كان ينشده أشعاره

يبغى بها التكسب ، وقد أسرها « ابن عمار » فى نفسه ولم يغتفرها له ، وأصر على أن ينتقم لنفسه من هذه الضربة الأليمة التى ثلمت شرفه ، وخفضت من غلوائه ، وغضت من زهوه ، وقد أحفظته هذه الجرأة من «ابن طاهر» وتحولت نواياه من جهته، وأمر به فسجن فى قلعة «منتاجو».

* * *

وأخذ «ابن عبد العزيز» يراسل « المعتمد » فى شأن «ابن طاهر» وإخراجه من السجن ، فقبل رجاءه ، وبعث إلى وزيره الأكبر فى إطلاق سراحه ، فأهمل « ابن عمار » أمر « المعتمد » وأبى أن يفك اعتقاله ، وساعد « ابن عبد العزيز » على إخراجه من السجن ، وتمكن من الفرار ، ومضى إلى «بلنسية» ليقيم بها فى حماية « ابن عبد العزيز » فغاظ ذلك « ابن عمار » وغمه ونظم فى هذه المناسبة شعرا يحرض فيه أهل « بلنسية » على الثورة والخلاف على ملكهم « ابن عبد العزيز » ويحثهم فيها على خلع نيره ، والاستعاضة عنه بملك آخر ، أى ملك كان يرفع عنهم مانزل بهم من حيف ، وحل بهم من ظلم . وظل يهجوه فيها هجواً مقذعا، ويرمى حرمه بأشنع السباب، وأفظع القذف ، ويغريهم فى آخر القصيدة بهدم قصور بنى عبد العزيز وسلب أموالهم وكنوزهم، وترك خرائبها آثاراً ناطقة بخزى الدهر ، وعار الأبد .

واتصلت هذه الأشعار « بالمعتمد » فضاعفت حنقه عليه ، وحفزته

لأن ينظم فى « ابن عمار » شعراً هازئاً صاخباً يذكر فيه أوليته ، ويقارن بين حاله فى أيام بؤسه وخموله ، وحاله الآن وقد وصل إلى درجة ينازع فيها ولى نعمته السلطان ، وسر بنو عبد العزيز بهذه القصيدة سرورا لا يقدر ، أما « ابن عمار » فاغتم لذلك غما شديداً ، وبدأ من فوره ، ينظم شعرا يناقض فيه شعر « المعتمد » حشاه بالهجاء والمثالب وعرض فيه لشأن « المعتمد » مع « اعتماد » وقذف زوجاته ، وكشف عن عيوبه وفضائحه ، ولم يطلع أحدا على هذه القصيدة التى نظمها وهو فى ثورة غضبه سوى نفر من أصدقائه الذين يثق بهم ومن بينهم يهودى يتجسس لابن عبد العزيز كان يثق به أيضاً ، ولم يكن متهما عنده .

وقد حصل اليهودى بأيسر كلفة ، وأقل عناء على نسخة من القصيدة مكتوبة بنفس خط « ابن عمار » وقدمها للأمير صاحب « بلنسية » وهذا كتب فى الحل كتابا إلى « المعتمد » من طيه القصيدة ، وأرسله إليه بواسطة الحمام الزاجل .

* * *

ومن هذه اللحظة التى اطلع فيها « المعتمد » على الرسالة والقصيدة أصبح التوفيق بينهما أمرا مستحيلا ، فلا « المعتمد » ولا « اعتماد » ولا بنوهما فى مكنتهم جميعا أن يغتفروا لابن عمار هذه السقطة التى كبا فيها كبوة لا قيام له بعدها ، وعثر عثرة لا يقيله منها أحد ، ومن ذا الذى

يستطيع أن يمحو عار ذلك السباب الجارح ، والعهر الفاحش، وقد حان حين « ابن عمار » وجاء وقت الاقتصاص منه ، وليس « المعتمد » هو الذى يباشر الاقتصاص منه بنفسه، بل هناك آخرون قد تعهدوا له بذلك وهم له بالمرصاد .

وانصرف « ابن عمار » إلى مباهجه ولذاته ، ولم يكن ليكترث للأمر أو يفطن لما يدور حوله ، أو يقدر فى حسابه أن « ابن رشيق » سيقلب له ظهر المجن ، و يخونه بمساعدة خصمه العنيف ملك « بلنسية » وقد ثاب إلى رشده وفطن للأمر ، ولكن بعد أن فاتت الفرصة ، ومضى الوقت، فلم يشعر إلا والجند –بتحريض « ابن رشيق »– جاءوا فى حال هياج وثورة وصخب مطالبين بأعطياتهم المتأخرة ، ولم يكن فى استطاعة « ابن عمار » فى هذا الظرف أن يشبع نهمتهم ، أو يجيبهم إلى ما طلبوه ، فتوعدوه بتسليمه إلى « المعتمد » إذا هو عجز عن الوفاء لهم بما يطلبون ، وهنا عرته رجفة ، وأيقن بالهلاك ، ولم ير بدا أمام هذا التهديد والوعيد إلا أن يفلت من أيديهم ، و يسارع إلى اللياذ بالفرار .

والتجأ –بعد فراره– إلى «الأذفونش» ليحتمى به، وليجد منه عونًا على فتح « بلنسية » وقد ظهر له أنه كان واهمًا فيما قدره ، بعد أن خيب « الأذفونش » أمله ، وجعل كلامه دبر أذنه ، وبان له أن ميله إلى

جانب « ابن رشيق » كان لقاء الأموال والهدايا التى قدمها له ، وقد كاشفه «الأذفونش » بقوله :

«أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثانى فسرق من الأول ماسرقه ، وجاء الثالث فسلب من الثانى ماسرقه من الأول .»

* * *

لم ير « ابن عمار » أن أمله يتحقق فى « ليون » فتحول إلى « سرقسطة » وهناك اتصل بخدمة صاحبها « المقتدر » ولكنه لم ير فى قصره – من الروعة وأبهة الملك – ما كان يراه فى قصر « إشبيلية » فأنف من البقاء هناك ، وزهد فى عمل يغض من مركزه السياسى ، ويحط من قيمته الاجتماعية ، فمضى إلى « لاردة » حيث يقوم على الحكم « المظفر » شقيق « المقتدر » فقوبل بجفاوة بالغة ، ثم بدا له أنه سيكون فى « لاردة » أكثر عزلة وانقطاعاً عن العالم الخارجي ، فعاد إلى « سرقسطة » حيث خلف « المؤتمن » أباه المقتدر على عرش المملكة .

* * *

هـذا الاضطراب والتقلقل أورث « ابن عمار » كثيراً من الملل والسآمة ، وجعله يشعر بالفشل ، وخيبة الأمل ، وتركه ينظر إلى حاضره

ومستقبله ، وقد جلله سوء الطالع بسحابة سوداء مظلمة ، فكان يتلمس – فى تضاعيف هذه الأوقات المنكودة ، والساعات المنحوسة – لحظة مريحة يطرد بها عن نفسه الفتور والألم ، ويزايل فيها الكسل والملل ، وعرف أن أحد أصحاب الحصون امتنع فى حصنه ، وتمرد على « المؤتمن » فطلب منه أن يعهد إليه فى إخضاعه ، وقهره فخرج فى سرية قليلة من الفرسان ، ووصل إلى الحصن ، وكان منيعاً لقيامه على قمة جبل،فراسل صاحب الحصن ، ورجاه أن يسمح له بدخول الحصن هو ورجلان من خدمه ، ولم يشك صاحب الحصن فى حسن نيته ، ولم يسئ به الظن ، وكان « ابن عمار » قد أوعز إلى تابعيه أنهما إذا عاينا صاحب القصر يصافحه ويماشيه جنبا لجنب، سارعا إليه فأغمدا فى صدره سيفيهما، وتمت الحيلة وقتل صاحب القصر ، وسلم الجناة من إلقاء التبعة عليهم ، وسر « المؤتمن » من ذلك سرورا لايقدر، وأراد « ابن عمار » أن يضيف إلى هذه الفتكة فتكة أخرى ، يجدد فيها حمى نشاطه السياسى ، فظن أنه بنفس هذا الأسلوب الوحشى المنطوى على الختل والغدر يكفل « للمؤتمن » أن يستولى على « شقورة »

وكانت هذه القلعة أشد مناعة من سابقتها ، لقيامها على قمة جبل يتعذرتسلقه ، ولمناعتها ، وتوعر طريق الوصول إليها ، احتفظت باستقلالها ، بينما نرى « المقتدر » قد استولى على « دانية » التى امتلكها « سراج

الدولة » ردَحا من الزمن ، ولما قضى نحبه أراد بنو سهيل وهم الأوصياء على بنيه أن يساوما فى « شقورة » ويعطوها لبعض الملوك المجاورين ، فعهد « ابن عمار » إلى « المؤتمن » أن يستخلصها له بنفس الطريقة التى استخلص بها الحصن المتقدم . ولتنفيذ هذه الخطة الخطرة سار هو وثلة من الجند إلى بنى سهيل ، وطلب منهم أن يسمحوا بمقابلته ، ولكن عوضا عن أن يوقعهم فى الشرك الذى نصبه لهم ، فقد قدر له أن يقع هو نفسه فى ذلك الشرك ، وذلك لأن أولئك النفر ممن أساء إليهم « ابن عمار » فى « مرسية » وناصبهم وقومهم العداء .

وطريق الوصول إلى هذا الحصن المنيع كان كثير الوعورة والتعرج ، وإذا بلغه أحد فلا بد أن يستعين على الوصول إليه ، والاستقرار فى داخله بقوة ساعديه . وقد وصل « ابن عامر » وشريكاه فى المغامرة الأولى إلى ذلك المكان الرهيب الخطر ، وفى أقل من ارتداد الطرف جذبوه إلى أعلى الحصن ، وما كادت تستقر قدماه على الأرض حتى أحاط به الجند ، وصاحوا بزميليه أن يجدا فى الهرب ، وإلا قتلهما الرماة بالسهام ، فانحدرا مسرعين ، وطفقا يعدوان حتى أتيا « سرقسطة » وأبلغا الجند أن «ابن عمار » وقع أسيراً ، فركبوا يبغون نجدته، ولكنهم وجدوا المكان صعب المرتقى ، ورأوا الحصن أمنع من عقاب الجو ، فعادوا من حيث أتوا ، بعد أن أيقنوا أنه لاسبيل إلى نجدته وإنقاذه

من مخالب أعدائه بنى سهيل الذين اعتقلوه فى الحصن ، وأودعوه فى غيابات سجن لاخلاص له منه ، وبقى على سوم الشراء لديهم حتى يبذل فى فك اعتقاله من ملوك وقته من يدفع أغلى ثمن . وكان « المعتمد » هو الذى غالى فى دفع ثمنه ، وتمت له الصفقة فيه ، فأرسل ابنه « الراضى » فى جماعة من الحرس لأخذه من صاحب « شقورة » وأمرهم أن يبالغوا فى الاحتياط حتى لايفلت من أيديهم ، وجاءوا به إلى قرطبة أسيراً ، ودخلها الوزير التاعس مكبلا بالسلاسل والأغلال حاسر الرأس منزوع العمامة ، وقد أركبوه بغلا بين عدلى تبن ، وبعد أن طافوا به فى أنحاء المدينة على هذه الحال من التعاسة والسخرية ، أدخلوه القصر حيث مثل بين يدى « المعتمد » فانهال عليه لوما وتقريعا ، وإقذاعا وسبا ، وأخذ يعدد أياديه عليه ، ويحصى عليه جرائمه وهو مطرق الرأس ، لاينبس ببنت شفه ، إلى أن فرغ « المعتمد » من كلامه ، فكان من جواب « ابن عمار » أن قال

« لا أنكر شيئاً مما يقوله مولاى ، ولو أنكرته لشهدت على به الجمادات ، فضلا عمن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح »

فقال « المعتمد » :

« هيهات ! إنها عثرة لاتقال ، وزلة لاتمحى. »

* * *

وجعل نساء القصر يعبثن به ، ويرمينه بكل لفظ شائن ، وسباب

جارح، وإنما نلن منه بسبب تلك القصيدة التى هجا بها «اعتماد» وغيرها من أميرات القصر، ثم أمر به فأحضر إلى «إشبيلية» بين هزء الجمهور وسبابهم وسخريتهم ولعناتهم، وجعل فى غرفة على باب قصر «المعتمد» المعروف «بالمبارك» طال فيها حبسه واعتقاله، ومع كل هذا فقد مرت عليه ظروف كان يؤمل فيها أن ينال عفو «المعتمد» و«الراشد» ابنه هو الذى كان يفتح أمامه طريق الأمل، وقد رق له هذا الأمير وعطف عليه لكثرة ما كان يبعثه إليه من قصائد يحشوها بالتنصل والاعتذار وكثيراً ما كانت ترد الرسائل إلى «المعتمد» من «الراشد» وغيره من رجال الدولة فى طلب العفو عنه، وهو الذى كان يحفزهم بما كان يكتبه إليهم وهو فى سجنه، إلى أن ثقل على «المعتمد» كثرة مايرد عليه من الرسائل، فأمر أن يمنع عنه مايتمكن به من الكتابة، وقد أعطى —بأمر «المعتمد»— ورقتين كان طلبهما، كتب فى إحداهما قصيدته المشهورة التى يتوسل بها إليه، وقد رفعت إليه فى المساء عقب الانتهاء من وليمة، ولما أنشدت بين يديه أدركته عليه رقة، فأمر به فأتى به إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه، فجاء يرسف فى قيوده، فجعل يعدد عليه مننه ويعيب عليه من جديد إنكار الجميل، وجحود النعمة، فما كان جوابه إلا البكاء، وهملان الدمع، واجتلاب كل ألفاظ الرقة، وكل مايمكن أن يزرع فى قلب «المعتمد» الرأفة والحنان، فما زال به

يستعطفه حتى عطفته عليه سابقته ، وما كان بينهما من قديم الصداقة والصحبة . وخاطبه بكلام يدل على الصفح تلويحا، ولا يدل عليه تصريحا . فاطمأن بعض الشيء ولم يدر أنه كان مخدوعا فى شعور « المعتمد » نحوه ، فهو وإن كان محتفظا ببعض الذكريات القديمة التى تعطفه عليه ، وتجعله يرثى لحاله إلا أن هناك مسافة بعيدة بين ماهو ميل وعطف ، وبين ماهو عفو وصفح . وقوى عنده الظن خطأ فى أن الحظ سيواتيه ، وأن السعادة ستعاوده ، ولم يستطع أن يكتم سروره ، فبعث بكتاب إلى « الراضى » يخبره فيه أن « المعتمد » قد وعده بالخلاص .

* * *

وكان بحضرة «الراضى» ـ حين وصل إليه الكتاب ـ قوم يكرهون « ابن عمار » ويضمرون له الشر ، وسرعان ماذاع الخبر فى المدينة ، وعرفه « ابن عيسى » و « ابن زيدون » من وزراء « المعتمد » وكثر المرجفون و « ابن زيدون » واجم مشرد الفكر ، قد بات ليلته تلك ضيق الصدر . يخشى أن يتحقق الخبر ، فتسقط منزلته ويكون لابن عمار المحل الأول من الاعتبار ، لابل هو الموت عنده . وفى صباح ليلته هذه لم يستطع أن يذهب إلى القصر كعادته فى الوقت المحدد ، إلى أن أرسل إليه « المعتمد » فدخل القصر ، واستقبل أحسن

استقبال ، فسرى عنه حين علم أن « المعتمد » لايزال ناقما على « ابن عمار » وأن موقفه بازائه لم يتغير ، وقد كثر الإرجاف ، وتوالت الإشاعات حول مادار بين « المعتمد » و « ابن عمار » ونشروه فى المدينة أقبح نشر ، وعلقوا عليه بزيادات قبيحة أحفظت « المعتمد » . فأرسل لابن عمار ، وقال له :

« هل أخبرت أحداً بما كان بينى و بينك البارحة ؟ »

فأنكر « ابن عمار » كل الإنكار ، فقال «المعتمد» لأحد خصيانه : اذهب إليه ، وقل له :

« الحديث الذى دار بينى و بينك أمس كان بيننا سراً مكتما ، فما الذى أذاعه فى الخارج ؟ »

فذهب إليه الخصى وعاد يقول :

« يصر « ابن عمار » على إنكاره ، ويقول إنه لم يقل لأحد شيئاً »

فقال « المعتمد » عد إليه ، وقل له : الورقتان اللتان طلبتهما أمس كتبت فى إحداهما القصيدة . فماذا صنعت بالأخرى ؟

فعاد الخصى وقال :

« يقول : إنه سوّد فيها القصيدة »

فقال « المعتمد » : على بالمسودة إذن ! »

* * *

وهنا لم يستطع « ابن عمار » أن يتمادى فى إنكاره ، بل قال بصوت متهدج تخنقه العبرة : « الورقة الأخرى كتبت فيها إلى مولاى « الراضى » أذكر له فيها ماوعدنى به مولانا الملك من الإفراج عنى . »

وعلى أثر هذا الاعتراف الرهيب غلا الدم فى عروق « المعتمد » ، وقام مغضبا ، وصعد إليه وبيده أداة قاتلة من آلات الحرب كان أهداها له « الأذفونش » فلما عاينه « ابن عمار » على هذه الحال من الغضب والثورة العصبية أيقن أنه لاشك قاتله ، فزحف وقيوده تثقله إلى أن ارتمى على قدمى « المعتمد » يقبلهما ، ويبللهما بدموعه .

* * *

ولم تكن الشفقة لتعرف إلى قلبه سبيلا ، فعلاه بالسلاح فى يده ، ولم يزل يضرب به حتى برد .

هذه هى الفاجعة الأليمة التى ختمت بها حياة « ابن عمار » وقد أثرت هذه الكائنة المحزنة أثرها فى اسبانيا العربية

ولم تطل مدة « المعتمد » بعده ، فإن الحوادث الخطيرة التى وقعت فى « طليطلة » والانتصارات المتوالية التى أحرزتها جيوش القشتاليين حولت دفة السياسة إلى مجرى آخر [١]

---

(١) ارجع الى ماكتبناه عن أخبار «ابن عمار» مع «المعتمد» فى هامش الكتاب « من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ٢٠٠ »

الفصل الثانى عشر

اعتزم « الأذفونش » السادس ملك « ليون » و « قشتالة » و « غاليسيا » و « نافار » عزماقاطعا لاتردد فيه أن يفتح شبه الجزيرة، وقد كان من القوة وخصومه من الضعف بحيث يستطيع إتمام ما اعتزمه من ذلك. ولم يتعجل الفتح بل آثر الانتظار ، ريثما يجمع من الإتاوات والجزى التى كان يفرضها على ملوك الأندلس أموالا كثيرة يدخرها عنـده لتكون عدة للحرب ، ووسيلة لإدراك أطماعه الـكثيرة التى توجهت إليها أنظاره .

وعلى هذا أراد أولا أن يضع الملوك المسلمين تحت الآلة العاصرة ، ولم يكن همه أن يعتصر بهذه الآلة شراب التفاح والنبيذ ، بل أراد أن يأخذ من عصارة أولئك الملوك بعد سحقهم سائل الفضة والذهب .

وربما كان أضعف الملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية « القادر » ملك « طليطلة » فقد أضر بهذا الملك ترف الحياة ، ونعيم القصر حتى أصبح ألعوبة الخصيان ، وأضحوكة الجيران الذين كان ينافس الواحد منهم الآخر فى سلبه وتجريده و« الأذفونش » وحده هو الذى كان يظهر بمظهر من يحميه ويدافع عنه .

ولفداحة ما كان يرهق به رعيته من الظلم والمغارم ، لم يساس له

قيادهم ، فلجأ إلى « الأذفونش » يشكو إليه أنه لا يستطيع أن يملك زمامهم ، فوعده أن يبعث إليه بجنود لتأييده وحمايته مقابل مبلغ طائل من المـال ، وأراد « القادر » أن يجمع هذا المـال من كبار رجال المملكة ، فدعاهم لهذا الغرض وكاشفهم بالأمر ، فأبوا أن يعطوه شيئاً، فأقسم لتدفعن المـال ، أو لتكرهن غداً على دفع أبنائكم رهائن عند «الأذفونش» فأجابوه :«إننا حينئذ نخلعك قبل أن تتمكن من ذلك.»

وسلم « الطليطليون » من ذلك الحـين قيادهم « للمتوكل » ملك « بطليوس » واضطر « القادر » للهرب ليلا ، والتجأ من جديد إلى « الأذفونش » يخطب وده ، ويطلب مساعدته ، فاتفق معه على أن يذهب لحصار « طليطلة » ، ويعيد إليه ملكه ، ووجد أن ماحمله إليه من المـال قليل ، فلم يقبله ، واشترط أن يعطيه بعض الحصون ، ثم يطالبه فيما بعد بأزيد من هـذا القدر الذى معه . فالتزم « القادر » بكل هذه الأشياء ، وبدأت الحرب سنة (١٠٨٠) ودامت سنتين ، وبعث الإمبراطور كعادته رسله إلى « المعتمد » يطالبه بدفع الجزية السنوية ، وكانت البعثة مؤلفة من جماعة من الفرسان عهد إلى يهودى من بين الجماعة اسمه « ابن شبيب » بالسفارة بينه وبين « المعتمد » وذلك لأن اليهود لذلك العهد كانوا وسطاء بين المسلمين والنصارى ، وضربت البعثة خيامها بظاهر المدينة ، وأرسل « المعتمد » رسله إليهم

وعلى رأسهم ذو الوزارتين «أبو بكر بن زيدون» يحمل الإتاوة المطلوبة، وكانت أقل مما يجب دفعه ، لسوء الحالة فى ذلك الوقت على الرغم من أن « المعتمد » قد فرض على رعيته لسداد المبلغ ضرائب فوق العادة ،فلم يقبل اليهودى مادفعه إليه الوزير ، وقال له :

«أترانى من البلاهة والغباء بحيث أقبل هذه النقود الزائفة ؟ إنى لا أتسلم دون المبلغ المطلوب ، ولاأتسلمه إلا ذهباً عيناً، وسيكون المدفوع فى العام المقبل حصونا ومدناً لامالا زائفاً . »

***

واتصل « بالمعتمد » مافاه به اليهودى أمام سفرائه ، وكبار رجاله ، فاستشاط غضبا وأمر أن يحمل وصحبه إلى القصر، وما حصلوا عنده حتى أمر بالرسل من النصارى فأودعهم السجن، و باليهودى أن يصلب، فارتعدت فرائص اليهودى الذى كان قبل برهة يتيه على « المعتمد » ورجاله صلفا وكبراً . وقال :

«عفواً يامولاى ! إنى أفتدى حياتى منك بوزن جسمى ذهباً .»

فقال « المعتمد » :

«والله لو جئتنى بأسبانيا كلها على أن تفتدى نفسك ماقبلت منك فداء.»

وهكذا تم صلب اليهودى .

وبلغ «الأذفونش» ماحل بفرسانه ، فأقسم بإلهه وبأرواح القديسين لينتقمن لهم من عدوه انتقاماً مروعا ، وليغزونه فى « إشبيلية » وليحصرنه فى عقر داره . وكان الإسبانيون لهذا العهد قد اهتبلوا الغرة بما كان من تفرق كلمة المسلمين فتكالبوا عليهم واستولوا على حصونهم ؛ وسار « الأذفونش » بجيوشه يفتح المعاقل ويخرب القرى حتى بلغ فرضة المجاز من طريف على جبل طارق ، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى ، وفى مقدمتهم «المعتمد» كان يؤديها له —وهو صاغر— إلى أن طلب منه المعتاد فى كل سنة على يد أولئك الفرسان ومعهم وزيره اليهودى ، فصلب « المعتمد » اليهودى منكسا ، وأودع أولئك الفرسان فى غيابات السجن ، ولم يكن « الأذفونش » ليترك فرسانه القشتاليين وهم زهاء الخمسين ، يعذبون فى السجن على حساب خطئهم ، دون أن يعمل على خلاصهم ، ويتلطف فى طلب الإفراج عنهم خوفا على حياتهم . فأرسل إلى « المعتمد » فى ذلك ، فاشترط أن يرد إليه حصن « المدور » فى نظير إطلاق سراحهم ، فقبل الشرط ورد الحصن إليه ، وأطلقهم ، وما عاد جماعة الفرسان المسيحيين حتى قام «الأذفونش» بتنفيذ وعيده ، وإمضاء تهديده ، وسار فى طريقه لحصار « إشبيلية » فغنم وأحرق القرى ، وقتل وأسر من المسلمين من لم يتسع لهم الوقت للالتجاء إلى الحصون المنيعة ، وحاصر « إشبيلية » ثلاثة أيام ، وخرب

إقليم « شـذونة » وما زال يزحف بجيوشـه حتى وطئ الرمال وبلغ « طريف » ومس بحوافر فرسه أمواج البحر وهو يقول : نحن الآن فى أرض المجاز وبها قد وصلنا إلى آخر حدود «اسبانيا» ·

وبر بقسمه ، وأرضى طماعيته ، ووجه بجيوشه إلى « طليطلة » مقر مملـكة « القادر » وتسلمها منه ، وكان اتفق معه على أن يظاهره على أهل« بلنسية » ، فاضطر «المتوكل» أن يفر من وجه« القادر »ويتخلى له عن « بلنسية » ففتح أهلها أبوابها له على الرغم منهم عام (١٠٨٤) فجمع منهم أموالا طائلة ، وقدمها «للأذفونش» فلم يرتضها الإمبراطور، وقال له بفتور وامتعاض : « هذا لا يكفى »

فأضاف إليهـا فوق ذلك ما ورثة من الـكنوز والنفائس عن أبيه وجده،فقال أيضا : «هذا لا يكفى»،فرجاه أن يعطيه مهلة ريثما يجمع له ما يكفيه من المال. فقال له «الأذفونش» : «كلا حتى تعطينى حصونا أخرى أرتهنها كضمان لما هو مطلوب » وهكذا سلم « القادر » فى كل ما يملك ، وأضاع طارفه وتليده ، ومزق ثروته وميراثه،وبدد حصونه حصنا حصنا ، وذهبه ديناراً ديناراً ، وهو مستسلم مرغم ، وإلا فماذا عساه أن يصنع ؟ إن سيف « الأذفونش » المصلت يتهدده بالقتل ، وأقل حركة تبدر منه تدل على عدم الطاعة والإذعان تجعله يهوى به على رأسـه ، فلم ير بداً من أن يستنزف أموال الرعية ، ويرهقها بأنواع المظالم والمغارم

ويأتى على الثمالة الباقية فى أيديها . ورأى أهل « بلنسية » أنه لا قبل لهم بسد هذه المغارم الفادحة ، ففروا من وجه هذا الظلم الصارخ زرافات ووحدانا، وهاجروا إلى أرض « سرقسطة » وكان موقف « القادر » أمامه شاذاً وغريبا ، فإنه كلما حمل إليه قدراً من المال ظننا منه أن ذلك يجدى فى مرضاته ، كان ذلك سبباً فى تزايد طلباته الملحة ، إلى أن نضب معين المال ، ولم يجد ما يقدمه إليه ، وأقسم له أن ليس قبله شىء . فقام من فوره ، وخرب بسيط المدينة وما حولها ، كل هذا و « القادر » متعلق بعرشه بعد أن نخر فى قوائمه السوس، وتداعى للانحلال والسقوط ، ولكنه عدل فى النهاية عن هذا التعلق الكاذب.

***

وحدث مرة أن حضر « الأذفونش » وكان هو فى استقباله ، فصرح له بأنه مضطر أن يتخلى له عن « طليطلة » وأنه متنازل عن العرش ، فوضع « الأذفونش » الشروط التالية :

يتولى الإمبراطور حفظ حياة الطليطليين وحراسة المملكة، وللسكان حرية البقاء أو الهجرة إلى أى جهة شاءوا .

لا يطالبهم إلا بدفع الجزية المفروضة عليهم بشرط أن يعطوها مقدما .

يترك لهم القيام على شؤون المسجد .

يتعهد للقادر بأن يكون ملكا على « بلنسية »

وتم الاتفاق على هذه الشروط ، وقبلها الأمبراطور . وفى يوم ٢٥ مايو سنة (١٠٨٥) دخل عاصمة مملكة « القوط » القديمة[١] ، ومن ذلك

(١) سقطت «طليطلة» فى عهد «القادر» آخر ملوك «بنى ذى النون» من ملوك الطوائف وقد بلغت دولتهم فى إبانهامن الاستفحال أقصى غاية ، حتى غلبوا «المعتمد ابن عباد» على «قرطبة» وقتلوا ولده «عبادا» ونزعوا «بلنسية» من يد «ابن أبى عامر» إلى أن أدرك دولتهم الضعف والانحلال فى عهد «القادر بن ذى النون» هذا . واستولى « الأذفونش» منهم على «طليطلة » وفى ذلك يقول بعض شعرائهم فى التفجع على «طليطلة» :

« لثكلك كيف تبتسم الثغور	سرورا ، بعد ما بئست ثغور
أما وأبى مصاب هد منه	ثبير الدين ، فاتصل الثبور
لقد قصمت ظهور حين قالوا :	« أمير الكاشحين له ظهور »
ترى فى الدهر مسرور بعيش	مضى عنا لطيته السرور
أليس بها أبى النفس شهم	يدور على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقاب كن غلبا	وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل	وسامح فى الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الضد منها	حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى	ولا منها الخورنق والسدير
محصنة بعيد	تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلا للدين صعبا	فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعا	فصاروا حيث ساء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم	معالمها التى طمست تنير
مساجدها كنائس ! أي قلب	على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا	يكرر ما تكررت الدهور
وينشر كل حسن ليس يطوى	إلى يوم يكون به النشور

أديلت قاصرات الطرف كانت ... مصونات مسا كنها القصور
وأدركها فتور فى انتظـار ... لسرب فى لواحظه فتور
وكان بنـا وبالفتيات أولى ... لو انضمت على الـكل القبور
لقـد سخنت بحالتهن عـين ... وكيف يصح مغلول قرير
لـئن غبنـا عن الإخوان إنا ... بأحزان وأشجـان حضور
نذور كن للأيام فيهـم ... بمهلـكهم فقـد وفت النـذور
فإن قلنا : العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النـكير
فانا مثلهم وأشـد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور

ومنها :

« خذوا ثأر الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل عضب ... تهاب مضاربا عنـه النحور
وموتوا كلـكم ، فالموت أولى ... بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبرا بعـد سبي وامتحان ... يـلام عليهما القلب الصبور ؟
فأم الصبر مـذكار ولود ... وأم الصقر مقـلاة نزور »

ومنها :

« كفى حزنا بأن الناس قالوا : ... « إلى أين التحول والمسير »
أنـترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء ... فـلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طرى ... ويشرب من جـداولها نمـير
يؤدى مغرم فى كل شهر ... ويؤخـذ كل صائفة عشور
لقد ذهب اليقين فـلا يقين ... وغـر الفوم بالله الغرور

الأخرى اتضاع ملوك المسلمين واستكانتهم إذ لم يبق منهم أحد إلا بادر بإيفاد الوفود إليه يهنئونه ويحملون إليه الطرف والهدايا ، وصرحوا له بأنهم يكونون داخل حدود سلطانه كجباة للأموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزى. وكان « الأذفونش » — وهو ملك ملوك الديانتين الإسلامية والنصرانية — لايعيرهم أدنى اهتمام لهوانهم عليه ، حتى لقد كان يعلن الاستهانة بهم ، ولا يخفى احتقاره لهم . ومن ذلك أن « حسام الدولة » ملك البرزاليين وفد عليه ليقدم إليه بنفسه هدية فاخرة ، وصادف فى اللحظة التى دخل عليه فيها أن كان أمامه قرد يرقصه رائضه لتسليته بتنزيته وألاعيبه ، فقال له « الأذفونش » بلهجة هى غاية فى الزراية عليه والسخرية منه: « دونك هذا القرد فخذه من هديتك عوضا».
وكان الأمير المسلم بعيداً عن الإحساس بهذه الإهانة ، ورأى فى القرد لهذه المناسبة ذريعة إلى اكتساب الصداقة ، ودليلا على أن « الأذفونش » لايريد أخذ بلاده.

رضوا بالرق — يا لله — ماذا رأوه ؟ وما أشار به مشير ؟
مضى الإسلام فابك دما عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقا فى فلاة حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم ، وحارب عسى أن يجبر العظم الكسير
أنعمى عن مراشدنا جميعا وما إن منهم إلا بصير
ولو أنا ثبتنا كان خيرا ولكن مالنا كرم وخير
إذا مالم يكن صبر جميل فليس بنافع عدد كثير

وبعد « طليطلة » جاء دور «بلنسية» وكان ابنا عبد العزيز [(١)]

---

(١) جاء في كتاب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » لابن عذارى المراكشي عن «حيان بن خلف» قال : هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر ، وكان لقبه المنصور ، وكان الموالى العامريون عند ذهاب مجاهد عنهم قد أسندوا أمرهم إلى نفر من مشيختهم فتشاوروا في أن يقدموا أميرا من أنفسهم يعترفون له ، فاتفقوا على «عبد العزيز» ابن مولاهم ، إيثارا له على ابن عمه «محمد ابن عبدالملك» وكان مقيما بقرطبة ، و «عبد العزيز» بسرقسطة ، في كنف «منذر ابن يحيي » فأحكم له التدبير ، وخرج سرا ، فلحق ببلنسية ، فاستقبله الموالى أفواجا ، وقلدوه رياستهم ، وكان «عبد العزيز» هذا من أوصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقرابته ، ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته ، فآواهم ، وجبر الكسير ، ونعش الفقير طول مدته ، حتى بلغ من ذلك مبلغا أعيا ملوك زمانه ، وخاطب لأول حينه ، الخليفة بقرطبة « القاسم بن حمود» مع هدية حسنة ، وذكره بذمام سلفه ، فسماه المؤتمن ذا السابقتين ، فتوطد سلطانه . واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب ، حتى سماهم الناس ، الطبائع الأربع ، وهم : «ابن طالوت» و «ابن عباس» و «ابن عبدالعزيز» و «ابن التاكرني» كاتب رسائله ، ولم تزل حاله تسمو ، حتى اتصل بوزارته فنال جسيما من دنياه ، وطالت إمارة « عبد العزيز» إلى سنة اثنين وخمسين ، وأربعمائة فتوفي في ذي الحجة منها . وهو صاحب «بلنسية » و « مرسية » و « شاطبة » وجزيرة «شقر » وأعمالها .

وضعف أمر ولده «المظفر » ببلنسية ، فملك « ابن طاهر » «مرسية» واستبد بها إلى أن مات ، فورث ملكه بها ابنه «محمد بن طاهر » .

وبعد « عبد العزيز ابن أبي عامر » ولي ابنه « عبد الملك » . اجتمع أصحاب أبيه «عبد العزيز » على تأميره ، وقام له بأمره كاتب والده ، والمدير لدولته الوزير «ابن عبد العزيز» المشهور ، مع معرفته بابن « رونش الفرطي » وكان مشهورا

يتنازعان الملك ، وكل منهما له شيعة وأنصار ، وهناك فريق ثالث كان يعمل على إعطاء « بلنسية » لملك « سرقسطة » ، وفريق رابع يريد أن تعطى «للقادر» . وكان الفوز حليف الفريق الأخير دون هؤلاء جميعا ، ولم يكن « القادر » حائزاً على الصفات المطلوبة ، وكان خلفه جيش قشتالى بقيادة أحد رجال « الأذفونش » لايعوزه إلا أن يقوم أهل « بلنسية » بتقديم الطعام لجنوده ، مما يكلفهم فى اليوم الواحد ستمائة قطعة ذهبية نقداً. وحاولوا عبثا أن يقنعوا « القادر » بأنه ليس فى حاجة

بالرجاحة ، فأحسن هذا الكاتب معونته على شأنه ، وتولى تمهيد سلطانه ، واستقر أمره على ضعف ركنه ، لعدم المال ، وقلة الرجال ، وفساد أكثر الأعمال . وراعى هذا الكاتب النهم ، مدر تلك الدولة فى هذا المؤمر «عبد الملك» مكان صهره من الأمير « المأمون يحيي بن ذى النون» إذ كان صهر «عبد الملك» أبا امرأته ، المساهم له فى مصاب أبيه ، المعين له على سد ثلمه ، الذائد عنه كل من طمع فيه ، فانزعج عند نزول الحادثة من حضرته «طليطلة» الى قلعة « كونكة» ، من أعماله ، للدنو من صهره «عبدالملك» وبادر بإنفاذ قائد من خاصته ، وبالكاتب «ابن مثنى» إلى «بلنسية» فى جيش كثيف ، أمرهم بالمقام مع «عبد الملك» وشد ركنه ، فسكنت الدهماء عليه .

ومضى «عبد العزيز » أبوه ، غير فقيد المكان ، ولا عديم الشأن ، ولا مبك لسمائه وأرضه ، مافجع به إلا ذو رحمه من آل أبى عامر ، لتناهيه فى صلتهم ، حتى صار إسرافه فى ذلك ، من أضر الأشياء لجنده ، وأجلبها لذمه ، له فى ذلك أخبار مأثورة ، وتوفى وهو أطول أمراء الأندلس ، مدة إمارة ، وتملكها أربعين حجة ، فسبحان المنفرد بالبقاء ، الأول قبل الأشياء .

إلى هذا الجيش ماداموا يشدون أزره ويقومون بنصرته بكل أمانة .

***

ولكن « القادر » لم يكن من السذاجة بحيث يثق بهذه الوعود ، وهو يعلم أنهم يمقتونه ويبغضونه ، وأن الأحزاب القديمة لم تنس بعد أمانيها . ولهذا عول على إبقاء الجيش القشتالى ، ولكى يقوم بتوفير نفقات هذا الجيش أثقل كاهل المدينة ، والقسم الذى تقع فيه بضريبة فوق العادة ، وأخذ من النبلاء والعظماء مبالغ طائلة ، وعلى الرغم من أعمال الاضطهاد والإرهاق الفظيعة جاءه قائد الجيش القشتالى ، وطالبه –تحت تأثير ضغط شديد– أن يعطيه المتأخر من أعطيات الجند ، ولم يكن فى استطاعته أن يقوم بتحقيق هذا الطلب ، فاقترح حينئذ أن يظل القشتاليون مقيمين داخل حدود المملكة فى بسيط من الأرض يقطعه لهم ، فقبلوا ذلك ، وأخذوا يزرعون ما أقطعه لهم من هذه الأراضى الواسعة بواسطة العبيد ، ثم دأبوا بعد ذلك على الغارة على البلاد المجاورة ، واكتفوا بالغزو والسلب عن الزراعة واستنبات الأرض . وازداد عدد جنودهم بمن انضم إليهم من شذاذ العرب وحثالتهم ، وبمن انضوى تحت لوائهم من جماعات الأرقاء والفسدة ، ومعتادى الإجرام ، وارتد الكثير منهم عن دينه ، واعتنقوا الدين المسيحى . ولم يمض على هذه العصابات وقت طويل حتى اشتهرت بالفظاعة والقسوة شهرة تبعث على الأسف والحزن ، فمن فظاعة هذه العصابات

أنهم كانوا يقتلون الرجال ، ويعتدون على أعراض النساء ، وكثيراً ما كانوا يبيعون الأسير المسلم برغيف من الخبز ، أو بجرعة من النبيذ ، أو بشواء من السمك ، وكانوا يمثلون بالأسير الذى لايستطيع أن يفتدى نفسه بالمال تمثيلا فظيعاً فربما سلوا لسانه أو سملوا عينيه ، أو أطلقوا عليه الكلاب الضارية فمزقت جسمه.

وكانت « بلنسية » فى الحقيقة تحت سلطان ونفوذ « الأذفونش » ولم يكن « للقادر » سوى أن يحمل لقب ملك ، مع أن قسما كبيراً من أرض المملكة كان ملكا للقشتاليين ، وكان ضم هذه المملكة إلى ممالكه رهن كلمة واحدة ينطق بها فمه .

ويظهر أن « سرقسطة » أيضا أصبحت على شفا التسليم ، فإن الإمبراطور حاصر هذه المدينة وأقسم ليستولين عليها.

وكان فى الطرف الآخر من « أسبانيا » قائد من قواد « الأذفونش » اسمه « غرسية » مقيم فى حصن لايبعد كثيراً عن « لورقة » وهو يواصل غاراته على مملكة « المرية » ولم يغفل غزو « غرناطة » أيضا ، بدليل زحف عسكر القشتاليين فى ربيع عام (١٠٨٥) حتى أصبحوا على بعد ميل من شرقى « غرناطة » وقد أجروا معارك مع المسلمين هناك

وأيا كان ذلك فإن الخطر كان عظيما ، والبلاء كان محيقا ، والقوة

المعنوية عند المسلمين كانت تلاشت وذهبت ، ولا يمكن أن يتكافأوا مع المسيحيين حتى ولا بنسبة خمسة من المسلمين إلى واحد منهم ، ومن أمثلة ذلك أن كتيبة من عسكر « المرية » مؤلفة من أربعمائة جندى من صفوة الجند ، ولوا الأدبار أمام ثمانين جنديا من جنود القشتاليين .

ومما لاريب فيه أن عرب أسبانيا لو تركوا وشأنهم – مع ماوصلوا إليه من التفكك والضعف – لدار أمرهم بين أن يختاروا أحد أمرين : إما الخضوع للإمبراطور خضوعا يفقدون به كل شىء ، وإما الهجرة من البلاد طوائف وجماعات ، وكان الرأى السائد فى الواقع الهجرة من البلاد فراراً بالشرف والعرض والدين ، وقد حرض على ذلك كثير من شعرائهم ونظموا القصائد فى حض الناس على مغادرة البلاد وتحذيرهم أخطار البقاء ، وما يعرضهم له من الهلاك الذى لايرضاه لنفسه عاقل حصيف .

وكانت الهجرة هى آخر حيلة يلجأون إليها بعد أن سُدَّت فى وجوههم أبواب الحيل .

على أن يأسهم هذا لم يكن ثمة داع إليه ، فقد كان هنالك بصيص من نور الأمل فى الخلاص من ظلمة الخيبة والفشل ، وكشف هذه

الغمة الحالكة ، وكان فى وسعهم أن يلتمسوا النجدة والغوث من « إفريقية » ، وقد فكروا فى ذلك ، ورأوا فيه الأمل الوحيد الباقى لنجاتهم على يد أولئك البواسل الشجعان ذوى الطباع السليمة والعزائم القوية التى لم يفسدها الخور والهوان .

على أنهم لم يكادوا يسمعون هذا الاقتراح حتى عارضوه ، وخشوا عواقبه الوخيمة ، لأنهم كانوا يعرفون من وحشية أولئك العرب ماينسيهم بسالتهم وشجاعتهم ، وقد خشوا أن يلجأوا إلى سلب أموالهم ونهب دورهم قبل أن يفكروا فى مناوأة المسيحيين وقتالهم .

وثمة عدلوا عن إنفاذ هذا الرأى الخاطئ ، واتجه أملهم ورجاؤهم إلى المرابطين ، وهم جماعة من بربر الصحراء الذين قاموا بتمثيل أول دور على مسرح هذه البلاد .

وقد كان أولئك المرابطون حديثى العهد بالإسلام ، وقد بث فيهم الدعوة إلى هذا الدين الجديد أحد دعاة الإسلام وهو من « سجلماسة » فدانوا له وتحمسوا معه ، ووهبوا نفوسهم لطاعته ، وأقبلوا على الجهاد فتمت لهم الفتوحات فى أسرع وقت ، وأصبح ملكهم الفسيح ، فى هذا العصر الذى نتحدث عنه يترامى من «السنغال» إلى بلاد الجزائر .

وكانت فكرة استدعائهم إلى « إسبانيا » تفتر عن ثغور البشر

لاسيا لرجال الدين،أما الملوك والأمراء فكانوا على عكس ذلك ، فقد ترددوا فى هـذا الأمر طويلا ، على أن القليل منهم مثل « المعتمد » و « المتوكل » كانا قد دخـلا فى مكاتبات وعلاقات مع « يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين ، ورجواه غير مرة أن يساعدهما على مناوأة المسيحيين ، على أن ملوك الأندلس بلا استثناء ، وفى ضمنهم «المعتمد» و « المتوكل » كانوا قليلي الميل إلى دخول هؤلاء القساة القتلة المتعصبين من سكان الصحراء جزيرتهم ، وكانوا يرون فى (ابن تاشفين) منافسا خطيراً ، أكثر منه عونًا وظهيراً .

وأصبح خطر النصرانية يتفاقم و يتزايد يوما عن يوم ، وصار استدعاء المرابطين والالتجاء إلى هذه الوسيلة الوحيدة لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة أمراً لامناص منه ، ولامعدى عنه ، فمال « المعتمد » إلى هذا الرأى ، وذهب إليـه ، بالرغم من أن ابنه « الراشد » أبان له ماهو مستهدف له من الخطر إذاهم شركوه فى بلاده وظاهروه على عدوه ؛ فأراه أنه لايجهل هذه الحقيقة ، وقال له : أنا بقطع النظر عن أى أمر آخر لاأريد أن تتهمنى الأجيـال المقبلة بأنى تركت الأندلس غنيمة فى أيدى الكفار ، ولا أحب أن يلعن اسمى على منابر المسلمين ، ولو ترك لى الخيـار لآثرت من كل قلبى أن أكون جمّالا فى بلاد

« افريقية » على أن أكون راعى خنازير فى قشتالة [1] .

---

(١) عبارة «المعتمد» فى النص العربى هى : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » . وقد جاء فى كتاب آخر ملوك بنى سراج وقد بدأه بتلخيص مارواه صاحب كتاب «الروض المعطار» ثم عقب عليه بكلام من عنده فقال :

تأخر «المعتمد» فى دفع الضريبة لاشتغاله بغزو «ابن صمادح» صاحب «المرية» فلما أرسلها ، استشاط «الأذفونش» غضبا ، وأرسل يطلب منه ، بعض الحصون ، وأمعن فى التجنى ، وسأل فى دخول امرأته الحامل ، جامع «قرطبة» لتلد فيه حسب إشارة القسيسين والأساقفة لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى منه معظمة عندهم ، وأن تنزل فى قصر «الزهراء» غربى مدينة «قرطبة» و «الزهراء» ، هذه هى التى بناها «الناصر لدين الله» وأمعن فى بنائها ، وجلب اليها الرخام الملون ، والمرمر الصافى ، والحوض المشهور الخ ذلك لتلد الأذفونشة بين نسيم الزهراء ، وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان صاحب هذه السفارة يهوديا هو وزير «الأذفونش» فأبى «ابن عباد» إجابة التماسه ، فراجعه وألح عليه حتى أيأسه بما غلظ له من القول . فضربه «المعتمد» بمحبرة كانت بين يديه فأنزل دماغه فى حلقه ، وأمر به ، فصلب منكوسا بقرطبة ، واستفتى فى جواز الفعلة الفقهاء ، فبادر «محمد ابن الطلاع» الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة ، واحتج بأنه إنما بادر بذلك خوفا من أن يكسل «المعتمد» عن منابذة العدو ، وبلغ الخبر «الأذفونش» فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية ، وليحصرنه فى عقر داره ، وجرد له جيشين أحدهما زحف إلى «كورة باجه فلبلة» فإشبيلية ، والثانى تولى قيادته بنفسه ، حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عباد على ضفة النهر الأعظم وفى أيام مقامه هناك ، كتب الى ابن عباد زاريا «كثر بطول مقامى فى مجلسى الذباب ، واشتد على الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب عن وجهى» فوقع له «ابن عباد» بخطه فى ظهر الرقعة «قرأت كتابك ، وفهمت

خيلاءك ، وإعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية ، تروح منك . لاتروح عليك إن شاء الله تعالى . » .

وشاع توقيع «ابن عباد» وفشا فى الناس عزمه على استنفار البربر لمجاهدة العدو ، فلما علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف ، اهتموا وتشاوروا للأمر ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من شافهه ، قائلين : إن الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد. فأجابهم «ابن عباد» بكلمته السائرة : «رعى الجمال خير من رعى الخنازير . » أى أن يكون مأكولا ليوسف بن تاشفين ، يرعى جماله فى الصحراء ، خير من كونه ممزقا للاذفونش أسيرا عنده يرعى خنازيره فى « قشتالة» وقال لعذاله قولا آخر : «ياقوم إنى من أمرى على حالين ، حالة يقين ، وحلة شك ، ولا بد لى من إحداهما ، فأما حالة الشك ، فإنى إن استندت إلى «الأذفونش» أوإلى «ابن تاشفين» فمن الممكن أن يفى لى ، ويمكن أن لايفعل ، وأما حلة اليقين ، فإنى إن استندت إلى « ابن تاشفين» أرضى الله ، وإن استندت إلى « الأذفونش » اسخطت الله ، وهذه حالة يقين ، فلماذا أدع مايرضى الله إلى مايسخطه » .

***

ولما عزم «المعتمد» على الاستجاشة ، أمر كلا من «المتوكل بن الأفطس» صاحب « بطليوس» وعبدالله بن حبوس صاحب «غرناطة» أن يوفد كل منهما قاضى الجماعة بحضرته ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة «أبا بكر عبيد الله بن أدهم» وكان أعقل أهل زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية ، أضاف اليهم وزيره « أبا بكر بن زيدون » وأسند الى القضاة مايليق بهم من وعظ « ابن تاشفين » وترغيبه فى الجهاد . وأسند إلى وزيره « ابن زيدون» مالا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية «وقد وفى يوسف بالأولى ولم يف بالثانية » .

وكان «ابن تاشفين» منذ اعتراء الضعف دول الأندلس ، لم تزل تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر ، مستعطفين مجهشين بالبكاء . فلما وفدت رسل «ابن عباد»

حتى أسرع الإجابة » . وحشد العساكر ، وأنزلها بالجزيرة الخضراء ، وأجاز على أثرها، وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة. وعلى رواية « ابن خلـكان » أنه أمر بعبور الجمال ، فعبر منها ماأغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال، ومن رغائها . وكان ليوسف فى عبور الجمال رأى مصيب ، فـكان يحدق بها عسكره عند الحرب ، وكانت خيل الفرنج تجمع منها .

***

ولما نزل «يوسف» بحشوده فى الجزيرة ، وبلغ «الأذفونش» تألب أمراء المسلمين لمناهضته ، استنفر جميع أهل بـلاده ، وما يليها وما وراءها ، ورفع القسيسون والأساقفة صلبانهم ، واجتمع له من الإفرنجة والجلالقة مالا يحصى عـدده . وبعث «الأذفونش» الى «ابن عباد» : «ان صاحبكم «يوسف» تجشم المشقة ، وخاض البحار ، وانا أكفيه العناء فيما بقى ، وألقاكم فى بلادكم رفقا بكم » وكان مقصده فى الدلوف إلى ديار المسلمين أنه إن دارت عليه الدائرة ، كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم ، وإن كانت عليهم ، كان أقدر على النـكاية فيهم فى عقرتهم .

ومما قيل إنه كتب إلى « يوسف » كتابا أنشأه له بعض غزاة المسلمين ، يغلظ له فى القول ، ويتوعده ، فأمر « ابن تاشفين » ولم يكن أعلم بالعربية من «الأذفونش» كاتبه «أبا بكر بن القصيرة» أن يجاوبه ، وكان كاتبا مجيدا ، فـكتب وأجاد ، فلما قرأه « يوسف » استطاله ، وأخذ كتاب «الأذفونش » وكتب على ظهره: «الذى يكون ستراه » وأخذ «المعتمد» وأمراء الأندلس يجلبون لجيوش المرابطين الأقوات والضيافات .

ولما قرب أمير المسلمين من «إشبيلة» خرج «ابن عباد» للقائه فى وجوه أصحابه ، وعنـد ماتلاقيا ، تصافحا وتعانقا ، ثم شكرا أنعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وتوسلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه . ووافت الجيوش كلها « بطايوس»

وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ، ولما تدانى الفريقان ، أذكى «المعتمد» عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عيهم من المكايد لجهلهم المكان ، وكان «يوسف» قد كتب إلى «الأذفونش» يدعوه إلى إحدى الثلاث وهى الإسلام أو الجزية أو السيف ، كما هى السنة. فامتلأ «الأذفونش» غيظا ،وقامت الأساقفة ورفعوا صلبانهم ، وتبايعوا على الموت ، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ، ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات ، وصدعوا بقوارع الكتاب ، وأصبح يوم الخميس ، فبعث «الأذفونش» إلى « ابن عباد» يقول له :

« غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت » .

فأعلم «ابن عباد» السلطان «يوسف» بذلك وأنها خديعة ليفتك بالمسلمين يوم الجمعة ، فانتبه الجيش الإسلامى طول ليلة الجمعة ، واستيقظ الفقيه الناسك «أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي» فرحا مسرورا يقول : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى النوم ، فبشره بالفتح والشهادة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب . وانتهى ذلك إلى «ابن عباد» فبعث إلى «يوسف» يخبره .

وجاء فى الليل فارسان من طلائع « المعتمد » يخبران أنهما أشرفا على محلة «الأذفونش» وسمعا ضوضاء الجيوش ، وصليل الأسنة ، وجاءت العيون من داخل محلتهم ، يقولون : قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون ـ وإن كانوا ذوى حفاظ وبصائر فى الحرب ـ فهم جاهلون البلاد ، فاقصدوا ابن عباد ، وأصدقوه الحملة ، فإن انكشف لكم ، هان عليكم الصحراويون .

فأرسل « ابن عباد» يعرف أمير المسلمين ، وقبل ورود الجواب غشيته جنود «الأذفونش» من كل جهة ، وهاجت الحرب ، وحمى الوطيس ، وتبايع الناس على الموت ، وصبر «المعتمد» صبرا لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ «يوسف» فى النجدة ، وانكشف بعض أصحابه ، وأثخن جراحات ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس .

« المتوكل » قاضى « بطليوس » أبا اسحق بن مقانا ، وأوفد « عبدالله »[1]

وبينما هو على تلك الحال ، أقبل عليه — من قواد المرابطين — داود بن عائشة ، وكان من الأبطال ، فنفس عن خناقه ، وأقبل « يوسف » بجموعه ، وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء ، فنهد إليه « اذفونش » بمعظم جيشه ، فصدمهم « ابن تاشفين » بجنده ، فردهم إلى مراكزهم ، وانتظم — بيوسف — شمل « ابن عباد » وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد ، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم ، وأظلم الجو من العثير ، وتراجع المنكشفون من أصحاب « ابن عباد » وتجددت الحملة ، فانكشف « الأذفونش » وقيل : بل تصادم الجمعان ، وتناوبا الكر والفر ، الى أن أمر « يوسف » حشمه من السودان ، فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق اللمط ، وسيوف الهند ، ومزاريق الزان . وأدرك « الأذفونش » أسود لصق به ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرا أثبته فى فخذه ، فهتك حلق درعه ، وهبت ريح النصر ، وأنزل الله السكينة على المسلمين ، وانكشف العدو من كل جانب ، وقد فشا فيه القتل والأسر ، واعتصم « الأذفونش » — بخمسمائة فارس من قومه — بربوة عالية انسابوا منها بعد تخييم الظلام ، وقد أباد القتل من الأسبانيول أمة ، وجعل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها ، واستشهد فى ذلك اليوم « ابن رميلة » كما بشره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاضى مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودى ، وغيرهما من الأعيان .

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، فتعفف عنها أمير المسلمين ، إيثارا لأهل الأندلس ، وعادوا جميعا الى « إشبيلية » وحضرت الكتب من بر العدوة إلى ابن تاشفين ، تقتضى عزمه بالرجوع ، فعبر البحر وودعه « المعتمد » . وهذه وقعة « الزلاقة » الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والنصرانية .

(١) توفى « باديس » عام ١٠٨٣ م ، فقسمت مملكته بعد وفاته بين حفيديه « عبدالله » و « تميم » فكان نصيب الأول « غرناطة » و الثانى « مالقة »

« دوزى »

قاضى « غرناطة » أبا جعفر ، وانضم إليهما « ابن أدهم » وانضم إلى هؤلاء جميعًا الوزير « أبو بكر بن زيدون ».

وأبحر هؤلاء جميعًا إلى بر العدوة ، وذهبوا لمفاوضة « يوسف » ودعوته على لسان ملوكهم للعبور إلى « أسبانيا » على رأس جيش ، وكان عليهم أن يعرضوا عليه شروطا ، ويقطعوا عليه بذلك عهدا ، إلا أن ذلك بقى عندنا مجهولا ، كما كان واجبا أن يعين المكان الذى سينزل فيه « يوسف » من البحر ، فاقترح « أبو بكر » أن يكون المكان الذى ينزل فيه بعسكره جبل طارق ، وآثر « يوسف » أن يكون نزوله فى الجزيرة الخضراء بعد أن يتخلى له عنها ، ولم يرق فى نظر وزير « المعتمد » هذا الطلب ، الذى لم يكن مخولا إليه حق الاتفاق عليه ، وعلى أثر ذلك كان « يوسف » يعامل أولئك السفراء بفتور ، فكان يراوغهم ويجيبهم أجوبة مبهمة ، ولذلك عادوا إلى بلادهم وهم يجهلون تحديد المسائل التى وقع عليها الاتفاق ، واستقر عليها الرأى ، فهو لم يقطع عهدا بالاتفاق على دخول أسبانيا ، كما أنه لم يصرح بعدم الدخول .

وكذلك صار ملوك الأندلس يشكون فى نواياه ، ويرتابون فى مقاصده، وقد خرجوا من هذا المشكل بحالة تستنكرها دولهم ، وتستنكفها

رعاياهم ، على أن ارتيابهم فى الأمر كان قائما على أساس [١] .

---

(١) يوسف بن تاشفين والمعتمد

جاء فى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى مايأتى :

« ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز «المعتمد على الله» البحر ، قاصدا مدينة مراكش الى «يوسف بن تاشفين» مستنصرا به على الروم » فلقيه « يوسف» المذكورأحسن لقاء ، وأنزله أكرم نزل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم ، وأنه يريدإمداد أمير المسلمين إياه ، بخيل ورجل ليستعين بهم فى حربه ، فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته الى مادعاه إليه ، وقال له : وأنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى . »

فرجع «المعتمد» إلى الأندلس مسرورا بإسعاف أمير المسلمين إياه فى طلبته ، ولم يدر أن تدميره فى تدبيره ، وسل سيفا يحسبه له ، ولم يدر أنه عليه ، فكان كما قال «أبو فراس » :

« إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد »

فأخذأميرالمسلمين « يوسف بن‌تاشفين » فى أهبة العبور ، الى جزيرة الأندلس وذلك فى شهر جمادى الاولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد ، وأعيان الجند ، ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو سبعة آلاف فارس فى عدد كثير من الرجل ، فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة «ستة » فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه «المعتمد» فى وجوه أهل وطنه ، وأظهر من بره وإكرامه ، فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف ، والذخائر الملوكية مالم يظنه « يوسف »عند ملك .

فكان هذا أول ما أوقع فى نفس « يوسف » التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس ، ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصدا شرق الأندلس ، وسأله «المعتمد » دخول « إشبيلية » دار ملكه ليستريح فيها أياماً ، حتى تزول عنه وعثاء

وكان من عادة «يوسف» ألا يقدم على عمل إلا بعد مشورة الفقهاء ورجال الدين، فاستشارهم فيما يجب عمله ، فأشاروا عليه أن يبدأ أولا بقتال القشتاليين ، وإن كان يعوزه فى هذا السبيل أن يخلوا له الجزيرة الخضراء ، وان أبوا أن يخلوها له كان له الحق فى أخذها ، ولما تزود للأمر بهذه الفتوى أمر عدة من جيوشه بالإبحار من مدينة « سبتة » على بعض السفن،والعبور الى الجزيرة وأن تكون مكتنفة بجيش كثيف

السفر ، ثم يقصد قصده . فأبى عليه وقال :

« إنما جئت ناويا جهاد العدو ، فحيث ما كان العدو توجهت وجهه »

وكان « الأذفونش » محاصرا الحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن «الليط» . فلما بلغه عبور البربر ، أقلع عن الحصن راجعا إلى بلاده ، مستنفرا عساكره ، ليلتى بهم البربر . وتوجه «يوسف» المذكور إلى شرقى الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والإصلاح بين «المعتمد على الله» وبين رجل كان تغلب على «مرسية» يقال له «ابن رشيق» قد تقدم ذكره فى أخبار «ابن عمار» . فأصلح بينهما «يوسف» أمير المسلمين ، على أن يخرج له «ابن رشيق» عن «مرسية» ويعوضه «المعتمد» عن ذلك مالا جعله له ،ويوليه فى جهة «إشبيلية» أضخم ولاية، فأجابه «ابن رشيق» إلى ذلك . وتسلم «المعتمد» « مرسية » وأعمالها ، ولقى « يوسف » أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب « غرناطة » والمعتصم ابن صمادح صاحب « المرية » و « ابن عبد العزيز أبو بكر » صاحب « بلنسية» ثم إن « يوسف » المذكور استعرض جنده على حصن « الرقة » فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله :

من جنوده ، ورسم أن تقدم المؤن وما يحتاج إليــه الجيش من نفس المدينة ، وكان « الراضى »حاكما على الجزيرة ، فوقع فى حيرة وارتباك لا قبل له باحتمالها ، لأن الحالة التى تواجهه الآن لم يكن يتوقعها ، ولم يمتنع من تقديم ما يحتاجه جيش المرابطين من المؤن ، ولـكنه كان على استعداد لدفاع القوة بالقوة متى دعت الحال لذلك .

وعدا ذلك فقد كتب إلى والده رســالة ربطها فى جناح حمامة ،

« هلم لما جئنا له من الجهاد ، وقصد العدو . »

وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس، ويتشوق إلى مراكش ، ويصغر قدرالأندلس ، ويقول فى أكثر أوقاته : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها ، وقعت دون الوصف . »

وهو فى ذلك كله يسر حسوا فى ارتغاء ، فخرج «المعتمد» بين يديه قاصدا مدينة «طليطلة» واجتمع للمعتمد أيضا جيش ضخم من أقطار الاندلس ، وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمد ملوك الجزيرة « يوسف » و« المعتمد » بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتــكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة ، زهاء عشرين ألفا،والتقوا هم والعدو بأول بــلاد الروم ، وكان « الاذفنش » ــلعنه اللهــ قد استنفر الصغير والــكبير ، ولم يدع فى أقاصى مملــكته من يقدرعلى النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجر الشوك والشجر .وإنما كان مقصوده الأعظم ، قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس ، والتهيب عليهم .

فأما ملوك الأندلس ، فلم يكن منهم أحد إلا يؤدى إليه الإتاوة . وهم كانوا أحقر فى عينه ، وأقل من أن يحتفل لهم .

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى، رأى « يوسف » وأصحابه أمرا عظيما هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل ، وظهور قوة ، فقال للمعتمد .

وأطلقها صوب « إشبيلية » وتربص ريثما يتاقى منه الأوامر ، فورد إليه جواب أبيه على جناح السرعة ، وقد بت فى الأمر بلا تردد ولا إمهال ، ورأى أنه مهما يكن مسلك « يوسف » جافا ومثيرا ، فإنه يشعر بأنه قد أمعن فى المضى، حتى لايستطيع أن ينكص على عقبيه، ولم يبق إلا أن تقابل هذه اللعبة السيئة الجريئة بمظاهر الارتياح والاطمئنان ، وما هو إلا أن أصدر فى الحال أمره إلى ولده بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى « زندة »

« ما كنت أظن هذا الخنزير — لعنه الله — يبلغ هذا الحد . »

وجمع «يوسف» أصحابه، وندب لهم من يعظهم ويذكرهم ، فظهر منهم من صدق النية ، والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به «يوسف» والمسلمون ، وكان تراثيهم يوم الخميس وهو الثانى عشر من رمضان ، فاختلفت الرسل بينهم فى تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان، فكان من قول « الأذفونش » — لعنه الله —: « الجمعة لكم ، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا ، وأكثر خدم العسكر منهم ، فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فاذا كان يوم الاثنين ، كان ما نريده من الزحف . »

وقصد — لعنه الله — مخادعة المسلمين ، واغتيالهم ، فلم يتم له ماقصد. فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ، ولا أمارة عندهم للقتال ، وبنى « يوسف بن تاشفين » الأمر ، على أن الملوك لاتغدر، فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة للصلاة، فأما « المعتمد » فانه أخذ بالحزم، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح، وقال لأمير المسلمين:

« صل فى أصحابك ، فهذا يوم ماتطيب نفسى فيه ، وهأنا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين . » فأخذ «يوسف» وأصحابه فى

وتلاحقت الجنود بالجزيرة ، ووصلها « يوسف » نفسه أخيراً ، فعنى أولا بتحصين المدينـة حتى صارت فى حالة حسنة ، وزودها بالمؤن والذخائر ، وترك فيها حامية كافيـة ، ثم سار فى معظم جيوشه إلى «إشبيلية» وجاء «المعتمد» لاستقباله تحف به أعاظم رجال مملـكته، ولما تلاقيا،هم «المعتمد»أن يقبل يده فأبى وتعانقا عناقا تجلت فيه كل عواطف الإخلاص والحب والسرور ، بلقاء العدو المشترك ، ولم يغفل « المعتمد »

الصلاة . فلما قعدوا الركعة الأولى ، ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصاري ، وحمل «الاذفونش» — لعنه الله — فى أصحابه ، يظن أنه قد انتهز الفرصة ، وإذا «المعتمد» وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله ، وأخذ المرابطون سلاحهم ، فاستووا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ، فأظهر « يوسف بن تاشفين » وأصحابه من الصبر ، وحسن البلاء ، والثبات ، مالم يكن يحسبه «المعتمد» وهزم الله العدو،واتبعهم المسلمون يتعقبونهم فى كل وجه ونجا « الأذفونش » — لعنه الله — فى تسعة من أصحابه ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه ، وأعلى كلمته ، وقطع طمع « الأذفونش » — لعنه الله — عن الجزيرة ، بعـد أن كان يقدر أنها فى ملـكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين ، وتسمى هـذه الوقعة عندهم وقعة « الزلاقة » .

وكان لقاء المسـلمين عدوهم — كما ذكرنا — فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠ .

ورجع « يوسف بن تاشفين » وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم ، فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجـد ، وعلى المنابر وانتشر له من الثناء — بجزيرة الأندلس —

العادات الملكية المتبعة فى مثل هذه الظروف من تقديم هدايا فاخرة تليق بمقام ضيفه الكريم ورجال دولته ، وقد تقبلها شاكراً مغتبطا ، ووزعها على جنوده المرابطين ، ولم يخامره شك على أثر ماقدم إليه من سنى الهدايا أن « إسبانيا » فى الذروة ، من تزايد الغنى، ووفور الثروة

فوقف الملكان على مقربة من « إشبيلية » وقد وافاهما هناك ابنا « باديس » « عبد الله » ملك « غرناطة » و « تميم » ملك « مالقة »

مازاده طمعا فيها ، وذلك أن الأندلس ، كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها ، وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة .

فلما قهر الله العدو ، وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ، ونشأ له الود فى الصدور ، ثم إنه أحب أن يجول فى الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ، ونال من ذلك ما أحب ، وفى خلال ذلك كله ، يظهر إعظام « المعتمد » وإجلاله ، ويقول مصرحا :

« إنما نحن فى ضيافة هذا الرجل ، وتحت أمره ، وواقفون عندما يحده . »

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة ، وحظى عنده ، واشتد تقريب أمير المسلمين له « أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم » صاحب « المرية » . وكان « المعتصم » هذا قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسة عليه ، لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناوئه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة .

وكان « المعتصم » يعيبه فى مجالسه وينال منه ، ويمتنع « المعتمد » من فعل مثل ذلك مروءته ، ونزاهة نفسه ، وطهارة سريرته ، وشدة ملوكيته ، وقد كان « المعتصم » — قبل عبور أمير المسلمين بيسير — توجه إلى شرقى الأندلس يتطوف على مملكته ، ويطالع أحوال عماله ورعيته .

فلما دانى أول بلاد « المعتصم » خرج إليه فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلا ،

وانضما إلى المرابطين ، وكان مع الأول ثلثمائة فارس ، ومع ثانيهما مائتان ؛ وأرسل « المعتصم » ملك « المرية » كتيبة من الفرسان ، واعتذر عن مجيئه بنفسه لمجاورة نصارى البدو له ، وبعد مضى ثمانية أيام زحف الجيش عن طريق « بطليوس » حيث التقى « بالمتوكل » وجيوشه ، ثم زحفوا إلى « طليطلة » ولم يتقدموا قليلا إلا وقد فاجأهم العدو وكان « الأذفونش » لايزال محاصراً « سرقسطة » فى ذلك

وعزم عليه ليدخلن بلاده ، فأبى « المعتمد » ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة ، على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد « المعتصم » وآخر حدود بلاد « المعتمد » فكان ذلك واصطلحا — فى الظاهر — واحتفل « المعتصم » فى إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية، والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ، ماظنه مكمداً للمعتمد ، منيرا لغمه ، وقد أعاذ الله « المعتمد » من ذلك ، وصان خلقه الكريم عنه ، وعصمه بفضله منه ، ثم افترقا بعدأن أقام « المعتمد » عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع « المعتمد » إلى بلاده ، وبأثر ذلك عبر إلى « مراكش » . ولم يزل مابينه وبين « المعتصم » معمورا ، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه «المعتصم» بهدايا فاخرة ، وتحف جليلة ، وتلطف فى خدمته ، حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رجلا الجزيرة. يعنى «المعتمد» و « المعتصم» . وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ، ثناء « المعتمد » عليه عند أمير المسلمين ، ووصفه إياه عنده بكل فضل .

ولم يكن « المعتصم » بعيداً من أكثر ماوصفه به ، ولما اشتد تمكن «المعتصم» من أمير المسلمين ، بدا له أن يسعى فى تغيير قلبه على « المعتمد » وإفساد مابينهما ، حسن له ذلك سوء رأيه ، ودنس سريرته ، وضعف بصره بعواقب الأمور ، وليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وليبلغ القدر ميقاته ، وإذا أراد الله أمراً هيأ له

الوقت الذى علم فيه بدخول المرابطين « إسبانيا » وقد خيل إليه أن ملك هذه المدينة المحاصرة يجهل حادث دخول المرابطين إلى هــذه البلاد ، فبعث إليه يطلب منه أموالا كثيرة ليرفع عنه الحصار ، ولــكن « المستعين » كان قد وقف على هذا النبأ العظيم مثله ، فلم يعطه درهماً واحداً .

ثم عاد « الأذفونش » إلى « طليطلة » بعد أن أرسل إلى « ايڤارو »

أسبابا ، فشرع « المعتصم » فيما أراده من ذلك ، ولم يدر أنه ساقط فى البئر التى حفر ، وقتيل بالسلاح الذى شهر ، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يقرر عنده عجب « المعتمد » بنفسه ، وفرط كبره ، وأنه لايرى أحــدا كفؤا له ، وزعم أنه قال له فى بعض الأيام ، وقد قال له « المعتصم » :

« طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة ـــ يعنى أمير المسلمين ـــ ولو عوجت له أصبعى ، ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ، وأى شىء هــذا المسكين وأصحابه ، إنمــا هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم إلى هــذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب « يوسف » أمير المسلمين على « المعتمد » .

وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ، ولأصحابه أجلا ، وحد له ولهم مدة يقيمونها فى الجزيرة لايزيدون عليها ، وإنمــا فعل ذلك تطييبا لقلب « المعتمد » وتسكيناً لخاطره ، فلما انقضت تلك المدة ، أو قاربت ، عبر أمير المسلمين إلى العدوة ، وقد وغر صدره وتغيرت نفسه :

« وما النفس إلا نطفة فى قرارة   إذا لم تكدر كان صفوا غديرها »

وإلى مساعديه الآخرين أن يجيئوا بجيوشهم لينضموا إلى جيشه ، ولما تجمعت وحدات الجيش الذى كان به كثير من الفرسان الفرنسيين زحف ، إذ كان يريد أن تدور رحى القتال فى بلاد العدو ، والتقى بالمرابطين وحلفائهم فى مكان لايبعد عن «بطليوس» واقع بالقرب من مكان يعرف عند المسلمين « بالزلاقة » وعند المسيحيين باسم « سكر الياس »

هذا مع ماذكرنا من طمعه فى الجزيرة، وتشوفه إلى مملكتها، وظهرت «للمعتمد» — قبل عبوره — أشياء عرف بها أنه غير عليه ، ورجع أمير المسلمين إلى « مراكش » وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه :

« كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد ، صغرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟ »

فاتفق رأيه ورأى أصحابه ، على أن يراسلوا « المعتمد » يستأذنونه فى رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو ، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم ، إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى « المعتمد » بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك « ابن الأفطس المتوكل » صاحب الثغور ، وإنما أراد « يوسف » وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم ، أو إظهار لملكتهم ، وجدوا — فى كل بلد لهم — أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس — كما ذكرنا — قد أشربت حب « يوسف » وأصحابه ، فجهز « يوسف » من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى « بلجين » وأسر إليه ما أراده ، فجاز « بلجين » المذكور ، وقصد « المعتمد » من ملوك الجزيرة ، فقال له :

ولم يكن قد انتهى من ضرب خيامه حتى وافاه كتاب من « يوسف » يدعوه فيه إلى أحد خصال ثلاث : إما الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، فاستاء جد الاستياء من هذا الكتاب ، وكلف أحد كتابه من العرب أن يرد عليه بكتاب يقول فيه : إنى ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطوننى الجزية منذ سنين مضت ، أن يعرضوا على مثل هذه الاقتراحات الجارحة ، ومع هذا فإن لدى

« أين تأمرنى بالسكون ؟ »

فوجه معه « المعتمد » من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم . فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على « المعتمد » وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة « طريف » المقابلة لطنجة من العدوة ، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك . فتشعبت جموعه ، وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده ، وقلوب أهلها على محبته منتظمة . ولما أخذ المرابطون جزيرة « طريف » ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون فى الحصون إلى « قرطبة » فحاصروها ، وفيها « عباد بن المعتمد » الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البيت ، وقتل « عباد » هذا بعد أن أبلى عذرا ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلداً وصبراً ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ ، فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت — فى غلوائها — الفتنة ، وأجمعت على الثورة بحضرة « إشبيلية » طائفة ، فأعلم « المعتمد » بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن

جيشا فى استطاعته أن يُنزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء.

ولما وصل الكتاب اشتغل بالرد عليه أحد الكتاب الأندلسيين ، ولما سمعه « يوسف » رآه مطولا فاكتفى بأن يكتب فى حاشية كتاب الإمبراطور هذه العبارة : « الذى يكون ستراه »

وبعث بهذا الرد إليه (*)

ولم يبق بعد هذا إلا تحديد وقت المعركة ، وبذلك كانت تقضى

(*) رد الخليفة « هارون الرشيد » مثل هذا الرد تقريبا على كتاب للامبراطور « نقفور »

أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنسروا بغاثا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره سيفه بيديه ، وغلالته ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلق على باب من أبواب المدينة يسمى « باب الفرج » فارسا من الداخلين ، مشهور النجدة ، شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته ، وخرج من تحت إبطه، وعصمه الله منه ودفعه — بفضله — عنه، وصب هو سيفه على عاتق الفارس ، فشقه إلى أضلاعه ، فخر صريعا . وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل « إشبيلية » أن الخناق قد تنفس .

فلما كان عصر ذلك اليوم . عاودهم القوم . فظهر على البلد من واديه . ويئس من سكنى ناديه . وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه . وشبت النار فى شوانيه . فانقطع عندها العمل والقول . وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول . وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل يعرف بالقائد « أبى حمامة » مولى « بنى سجوت » والتوت الحال أياما يسيرة ، إلى أن ورد الأمير « سير بن أبى بكر بن تاشفين » وهو ابن أخى أمير المسلمين بعساكر متظاهرة . وحشود من الرعية

العادة فى ذلك العهد ، وقد ضربوا لها موعداً يوم الخميس ٢٢ اكتوبر سنة (١٠٨٦) ولكن « الأذفونش » أرسل فى نفس اليوم إلى المسلمين يقول :

« غداً الجمعة وهو يوم عيدكم ، والأحد عيدنا ، فأقترح إذن أن تكون المعركة يوم الاثنين ، فقبل يوسف هذا الاقتراح ، ولكن « المعتمد » رأى فيه حيلة سياسية .

وافرة . والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع . وخالط قلوبهم الهلع . يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهرسباحة ، ويتولون مجرى الأقدار ، ويترامون من سرفات الأسوار ، حرصا على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع « المعتمد » — رحمه الله — وباسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، مالامزيد عليه ، ولا تناه لخلق إليه ، وفى ذلك يقول « المعتمد » بعد ما نزل بالعدوة أسيرا حسيراً :

« لما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديع
قالوا : الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو	ع على فمى السم النقيع
إن تستلب عنى الدنى	ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع

وكان الأندلسيون فى مقدمة الجيش معرضين للهجمات الأولى ، أما المرابطون فكانوا فى المؤخرة تسترهم الجبال ، فلم يكن بد من أن تتخذ مقدمة الجيش الحيطة والحذر حتى لايباغتها العدو ، وأخذت طلائع المسلمين تترقب حركات العدو ، وكانت الأفكار والخواطر فى قلق وانزعاج ، والمعتمد لاينفك يستشير منجميه ، وأصبح الوقت حرجا ودنت الساعة الحاسمة التى ستدور فيها رحى المعركة الفاصلة التى

لم أستلب شرف الطبا ع،أيسلبالشرفالرفيع؟
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـــص عنالحشى شىءدفوع
وبذلت نفسى كى تسيـ ل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخشوع
ماسرت قط إلى القتا ل،وكان من أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع »

فشنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدا ولا لبدا ، وانتهبت قصور « المعتمد » نهبا قبيحا ، وأخذ هو قبضاً باليد ، وجبر على مخاطبة ابنيه « المعتمد بالله » و « الراضى بالله » وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما ، أحد الحصنين ، يسمى « رندة » والآخر « مارتلة » فكتب — رحمه الله — وكتبت السيدة الكبرى أمهما ، مستعطفين ، مسترحمين ، معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما ، فأنفا من الذل ، وأبيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس ، بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ، ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة .

يتوقف على نتيجتها مستقبل « أسبانيا » ، وكانت جيوش القشتاليين أوفر عدداً إذ كانت تتراوح – على مايظن – بين خمسين إلى ستين ألفا ، بينما جيوش خصومهم المسلمين لاتعدو عشرين ألفا .

ومع طلوع الفجر بدأت مخاوف « المعتمد » تتحقق . فقد أبلغه بعض طلائعه أن الجيش المسيحى يقترب ، وعلى هـذا يصبح مركزه على شفا الخطر ، ويستهدف جيشه لأن يسحق قبـل أن يقترب

فأما « المعتمد بالله » فإن القائد الواصل إليه ، قبض عند نزوله على كل ما كان علـكه .

وأما « الراضى بالله » فعند خروجه من قصره ، قتل غيلة ، وأخفى جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أمواله ، ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة « بطنجة » فأقام بها أياما ، ولقيه بها « الحصرى » الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قبح الـكدية ، وإفراط الإلحاف فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ، ولم يكن عند « المعتمد » فى ذلك اليوم مما زود به ، فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ، سقطت من حفظى ، ووجه بها إليه ، فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره ، وخفته عليه ، كان هذا الرجل ـــ أعنى الحصرى ـــ الأعمى أسرع الناس فى الشعر خاطرا ، إلا أنه كان قليل الجيد منه فحركه « المعتمد على الله » على الجواب بقطعة أولها :

« قل لمن قد جمع العلـ ... م وما أحصى صوابه

كان فى الصرة شعر ... فتنظرنا جوابه

قد أثبناك فهـلا ... جالب الشعر ثوابه ؟

المرابطون من ساحة القتال ، فبعث إلى « يوسف » يستحثه أن يتقدم بجيوشه على عجل ، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافى ، وقد كان « يوسف » قد وضع خطة لايستطيع التحول عنها ، فلم يبادر إلى تلبية طلبه ، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا : « وماذا يهمنى إذا كان نصيب هؤلاء جميعاً الهلاك ، إنهم جميعاً أعداء » .

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ، وملحق أهل الكدية ماصنع « المعتمد » رحمه الله — مع « الحصرى » تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله :

« شعراء طنجة — كلهم — والمغرب ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية طى الحشا ساواهم فى المطلب
قد كان إن سئل الندى يجزل وإن نادى الصريخ ببابه اركب يركب »

وله فى هذا المعنى رحمه الله

« قبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ظلما بمن عادته أن ينادى كل من يهوى لعا »

ومنها :

« قل لمن يطمع فى نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفاة الضيعا »

وأقام « المعتمد » بطنجة — رحمه الله — أياما على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة « مكناسة » فأقام بها أشهرا ، إلى أن نفذ الأمر ، بتسييرهم إلى « أغمات » فأقاموا بها إلى أن توفى « المعتمد » رحمه الله ودفن بهـا ، فقبره

ولم يسع الأندلسيين إلا الفرار حيث وجدوا أنفسهم وحدهم ، أما الإشبيليون ، فقد كانوا على غرار ملكهم الذى جرح فى وجهه ويده مثلا للشجاعة والبسالة والإقدام ، فصمدوا للعدو ، وقاوموا صدماته العنيفة ، إلى أن وصلت لمساعدتهم نجدة من عسكر المرابطين ، وحينئذ صارت المعركة أقل توازنا ، وقد دهش الإشبيلون أشد دهشة حين رأوا العدو يقاتل متقهقرا ، لأن المدد الذى وصل لم يكن من الكثرة

معروف هناك ، وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨ فالله أعلم ، وسنه يوم توفى إحدى وخمسون سنة

وجاء فى كتاب « نفح الطيب » مايأتى:

ثم إنه بقى مأسورا بأغمات إلى سنة ٤٨٦ فأخذ بمالقة رجل كبير يعرف « بابن خلف » فسجن مع أصحاب له فنقبوا السجن وذهبوا إلى حصن « منت ميور » ليلا فأخرجوا قائدها ولم يضروه .

وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل فسألوه ، فإذا هو « عبد الجبار بن المعتمد » فولوه على أنفسهم وظن الناس أنه الراضى ، فبقى فى الحصن ثم أقبل مركب من المغرب ويعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريبا من الحصن فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من طعام وعدة ، فاتسعت بذلك حالتهم ووصلت « أم عبد الجبار » إليه ثم خاطبها أهل الجزيرة وأهل « اركش » فدخلها سنة ٤٨٨ ، ولما بلغ خبر « عبد الجبار » إلى « ابن تاشفين » أمر بثقاف المعتمد فى الحديد وفى ذلك يقول :

« قيدى أما تعلمنى مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرنى فيك أبو هاشم فينثنى القلب وقد هشما »

وبقى إلى أن توفى رحمه الله سنة ٤٨٨ ، وقد ساق الفتح قضية ثورة «عبدالجبار

بحيث يزهى على سائر الجيش بأن يكون صاحب الفضل فى الانتصار على الأعداء ، والحقيقة أن الفضل فى تقهقر الجيش لم يكن لمجرد وصول المدد .

وإليك ماوقع :

لما رأى « يوسف » أن الجيش القشتالى التحم بالأندلسيين بدأ ينفذ خطة وضعها ، وهى مباغتته من الخلف ، ولذلك لم يرسل إلى

ابن المعتمد » بعبارته البارعة فقال : وأقام بالعدوة برهة لايروع له سرب ، وإن لم يكن آمنا ، ولا يثور له كرب ، وإن كان فى ضلوعه كامنا ، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش معقل كان مجاوراً لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهراً على بسائط وبطاح ، لايمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها بالمكاره وراح ، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح ، فسار نحوه الأمير «سيف بن أبى بكر» رحمة الله عليه، قبل أن يرتد طرف استقامته إليه ، فوجده وشره قد تشمر ، وضره قدتنمر ، وجمره مستعر ، وأمره متوعر ، فنزل عدوته ، وحل للحزم حبوته ، وتدارك داءه قبل عضاله ، ونازله وما أعد آلات نضاله ، واحتشدت إليه الجيوش من كل قطر، وأفرغ من مسالكه كل قطر فبقى محصورا لايشد له إلا سهم ، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم ، وامتسك شهورا حتى عرضه أحد الرماة ، بسهم فرماه فأصماه ، فهوى فى مطلعه ، وخر قتيلا فى موضعه ، فدفن الى جانب سريره ، وأمن عاقبة تغريره، وبقى أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه ، حتى اشتد عليهم الحصر ، وارتد عنهم النصر . وعمهم الجوع . وأغب أجفانهم الهجوع . فنزلت منهم طائفة متهافتة . وولت بأنفاس خافتة . فتبعهم من بقى . ورغب فى التنعم من شقى ، فوصلوا إلى قبضة الملمات . وحصلوا فى غصة الممات . فوسمهم الحيف . وتقسمهم السيف . ولما زأر الشبل . خيفت سورة الأسد .

« المعتمد » إلا المدد القليل الكافى حتى لايسحقه الأعداء ، ثم وفق إلى تنفيذ هذه الخطة الحربية حين زحف بأكبر جزء من جيشه على

ولم يرج صلاح الكل والبعض حتى فسد . فاعتقل « المعتمد » خلال تلك الحال وأثناءها . وأحل ساحة الخطوب وفناءها . وحين أركبوه أساودا . وأورثوه حزنا بات له معاودا . قال :

« غنتك أغماتية الألحان	ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك فى الوغى	فغدا عليك القيد كالثعبان
متمددا يحميك كل تمدد	متعطفا لا رحمة للعانى
قلبى إلى الرحمن يشكو بثه	ما خاب من يشكو إلى الرحمن
يا سائلا عن شأنه ومكانه	ما كان أغنى شأنه عن شانى
هاتيك قينته ، وذلك قصره	من بعد أى مقاصر وقيان

ولما فقد من يجالسه ، وبعد عن من كان يؤانسه ، وتمادى كربه ، ولم تسالمه حربه ، قال :

تؤمل للنفس الشجية فرحة	وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
لياليك فى زاهيك أصفى صحبتها	كما صحبت قبل الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ	وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

ولما امتدت فى الثقاف مدته ، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته ، وأقلقته همومه ، وأطبقته غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت لياليه الجون قال :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا	بل قدعممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم	حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة	وأغرق الدمع آماقا وأحداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها	وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا

معسكر « الأذفونش » وأجرى مذبحة هائلة فى الجنود الموكلين بحراسة المعسكر ، وأشعل النار فيه فاحترق ، وانقض على ظهر القشتاليين ، وهو

أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب   للغالبين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتنى طوارقها   وكان عزمى للأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة   إذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا

وقال لى من أثق به : لما ثار ابنه حيث ثار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار ، جزع جزعا مفرطا ، وعلم أنه قد صار فى أنشوطة الشر متورطا ، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول « عرض بى للمحن ، ورضى لى أن أمتحن ، ووالله ما أبكى إلا انكشاف من أتخلفه بعدى ، ويتحيفه بعدى ، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته ، وظللته مسرته ، ورأيته قد استجمع وتشوف إلى السماء وتطلع ، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى سلطانه ، وأوبة إلى أوطانه ، فما كان إلا بمقدار ماتنداح دائرة ، وتلتفت مقلة حائرة ، حتى قال :

كذا يهلك السيف فى جفنه   إذا هز كف طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله   ولم تروه من نجيع يمينى
كذا يمنع الطرف علك الشكيـ   ـم مرتقبا غرة فى كمين
كأن الفوارس فيه ليوث   تراعى فرائسها فى عرين
ألا شرف يرحم المشرفـ   ـى مما به من سمات الوتين
ألا كرم ينعش السمهرى   ويشفيه من كل داء دفين
ألا حنة لابن محنية   شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة   تبوئه صدر كف معين

وكانت طائفة من أهل « فاس » قد عاثوا فيها وفسقوا ، وانتظموا فى سلك الطغيان واتسقوا ، ومنعوا جفون أهلها السنات ، وأخذوا البنين من حجور أمهاتهم والبنات ، وتلقبوا بالإمارة ، وأركبوا السوءى نفوسهم الأمارة ، حتى كادت تقفر

يحتوش أمامه الجنود الفارين

وإذ قد وجد « الأذفونش » نفسه بين نارين ، ورأى أن الجيش

على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم،إلى أن تدارك أميرالمسلمين ـ رحمه الله ـ أمرهم، وأطفأ جرهم،وأوجعهم ضربا ، وأقطعهم ماشاء حزنا وكربا،وسجنهم « بأغمات » وضمتهم جوانح الملمات ، « والمعتمد » إذ ذاك ، معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مذنبة أوبرية ، فرغبوا إلى سجانهم ، أن يستريحوا إلى « المعتمد » من أشجانهم فخلى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم فى ذلك عينه ، فكان « المعتمد » رحمه الله يتسلى بمجالستهم ، ويجد أثر مؤانستهم ، ويستريح إليهم بجواه ، ويبوح إليهم بسره ونجواه إلى أن شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم ، وبقى «المعتمد» فى مجلسه يشتكى من ضيق الكبل ، ويبكى بدمع كالوبل ، فدخلوا عليه مودعين ومن بثه متوجعين ، فقال :

أما لانسكاب الدمع فى الخد راحة	لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى	بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن «أغمات» والتوت	على قيود لم يحن فكها بعد
من الدهم أما خلقها فأساود	تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد
فهنئتم النعمى ودامت لكلكم	سعادته إن كان قد خاننى سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا	ولله فى أمرى وأمركم الحمد

ومر عليه فى موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح ، ولا تعلق بها من الأيام جناح ، ولا عاقها عن أفراخها الأشراك ، ولا أعوزها البشام ولا الأراك ، وهى تمرح فى الجو ، وتسرح فى مواقع النو ، فتنكد مما هو فيه من الوثاق ، ومادون حبته من الرقباء والأغلاق ، وما يقاسيه من كبله ، ويعانيه من وجده وخبله ، وفكر فى بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه ، وحبور حضرنه وشهدنه ، فقال :

الذى باغته من الخلف ، أضخم عديداً من الجيش الذى فى مواجهته ، اضطر أن يحول قوته الرئيسية إليـه ، وحمى وطيس المعركة ، وكانت

بكيت إلى سرب القطا إذمررن بى ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ... ولـكن حنينا أن شكلى لها شكل
فاسرح لا شملى صديع ولا الحشا ... وجيع ولا عيناى يبكيهما ثكل
هنيئا لهـا أن لم يفرق جميعها ... ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
وأن لم تبت مثلى تطير قلوبها ... إذا اهتزباب السجن أوصلصل القفل
وما ذاك مما يعتريه وإنمـا ... وصفت الذى فى جبلة الخلق من قبل
لنفسى إلى لقيا الحمـام تشوف ... سواى يحب العيش فى ساقه حبل
ألا عصم الله القطا فى فراخها ... فان فراخى خانها المـاء والظل

وفى هذا الحال زاره الأديب «أبو بكر بن اللبانة» وهوأحد شعراء دولته المرتضعين درها، المنتجعين دررها ، وكان « المعتمد » رحمه الله يعزه بالشفوف والاحسان ، ويجوزه فى فرسان هذا الشان ، فلما رآه وحاقات الـكبل قد عضت بساقيه عض الاسود ، والتوت عليه التواء الاساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يريق دمعا إلا ممزوجا بدم ، بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير ، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية ، وتـكف الامطار من راحته ، وتشرف الاقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيـه ، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه ، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد ، ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد ، أبدع من أناشيد معبد، وأصدع للـكبد من مراثى أربد، أو بكاء ذى الرمة بالمربد، سالك فيها للاختفاء طريقا لا حبا ، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحبا ، فمن ذلك قوله :

« انفض يديك من الدنيا وسا كنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمهـا السفلى قد كتمت ... سريرة العالم العـلوى أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات

الحرب سجالا بين الفريقين المتحاربين ، وكان « يوسف » يجول على صهوة جواده بين صفوف المقاتلة من المسلمين ، وهو يهيب بهم

من كان بين الندى والبأس أنصله هندية وعطاياه هنيدات
رماه من حيث لم تستره سابغة دهر مصيباته نبل مصيبات
أنكرت إلا التواءات القيود به وكيف تنكر فى الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له وبينها فإذا الأنواع أشتات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذؤابات
حسبتها من قناة أو أعنته إذا بها لثقاف المجد آلات
دروه ليثا فخافوا منه عادية عذرتهم فلعدوى الليث عادات
لو كان يفرج عنه بعض آونة قامت بدعوته حتى الجمادات
بحر محيط عهدناه تجىء له كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفى على آل عباد فإنهم أهلة ما لها فى الأفق هالات
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة كانت لنا بكر فيها وروحات
أرض كأن على أقطارها سرجا قد أوقدتهن فى الأذهان أنبات
وفوق شاطى واديها رياض ربى قد ظللتها من الأنشام دوحات
كأن واديها سلك بلبتها وغاية الحسن أسلاك ولبات
نهر شربت بعبريه على صور كانت لها فى قبل الراح سورات
وربما كنت أسمو للخليج به وفى الخليج لأهل الراح راحات
وبالغروسات لا جفت منابتها من النعيم غروسات جنيات »

ولم تزل كبده تتوقدبالزفرات ، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تتقسم بين الأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته ، فدفن بأغمات وأريح من تلك الأزمات ، وعطلت المآثر من حلاها ، وأفردت المفاخر من علاها

« أن تشجعوا أيها المسلمون أعداء الله أمامكم ، والجنة تنتظركم ، وطوبى لمن أحرز الشهادة »

ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمره عبرة فى عصره ، وصار أبدا عبرة فى مصره ، وبعد أيام وافاه أبو بكر بن عبد الصمد شاعره المتصل به ، المتوصل إلى المنى بسببه ، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحا ، وظهر كل متوار وضحا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم ، واختيا لهم بزينتهم وحلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على تربه ولثمه :

« ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عوادى
لما خلت منك القصور فلم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا ... وتخذت قبرك موضع الإنشاد »

وهى قصيدة أطال إنشادها، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس إليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين للبكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم بفيض شؤونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حيا ، ولا تألو كل نشر طيا ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتفرق مناياها كل جمع ، وتصمى كل ذى أمر ونهى، وترمي كل مشيد بوهى ، ومن قبله ما طوت النعمان بن الشقيقة، ولوت مجازها فى تلك الحقيقة .

انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح مما يدخل فى أخبار « المعتمد ابن عباد » المناسبة لما مر، وكلام الفتح كله الغاية وليس الخبر كالعيان ولذا قال بعض من عرف به أنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكرهم فى كتبه بنثره — سامحه الله — وأخبار المعتمد رحمه الله تحتمل مجلدات ، وآثاره إلى الآن بالغرب مخلدات .

وكان من النادر الغريب قولهم فى الدعاء للصلاة على جنازته « الصلاة على الغريب » بعد اتساع ملكه ، وانتظام سلكه ، وحكمه على « إشبيلية » وأنحائها ، وقرطبة

وسرعان ماعاد الأندلسيون الفارون فنظموا صفوفهم ، وأخذوا[1] أمكنتهم من ميدان القتال لشد أزر « المعتمد »

وزهرائها ، وهكذا شأن الدنيا فى إغرائها ، وقد توجه لسان الدين الوزير ابن الخطيب إلى « اغمات » لزيارة قبر المعتمد — رحمه الله — ورأى ذلك من المهمات ، وأنشده على قبره أبياته الشهيرة التى ذكرتها فى جملة نظمه الذى هو أرق من النسيم ، وأبهج من المحيا الوسيم .

قلت وقد زرت أنا قبر « المعتمد » و « الرميكية » أم أولاده — رحمهما الله — حين كنت بمراكش المحروسة بالله عام عشرة وألف وعمى على أمر القبر المذكور وسألت عنه من تظن معرفته له ، حتى هدانى إليه شيخ طعن فى السن ، وقال لى هذا قبر ملك من ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التى كان قلبه بحبها خفاقا غير مطمئن فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله بالأبيات، وحصلت لى فى ذلك المحل خشية وادكار، وذهبت بى الأفكار فى ضروب الآيات، فسبحان من يؤتى ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وما أحسن قول الوزير « ابن عبدون » فى مطلع رائيته المشهورة :

« الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور »

وهو القائل :

«يانائم الليل فى فكر الشباب أفق فصبح شيبك فى أفق النهى بادى
عضت عنانك أيدى الدهر ناسخة علما بجهل وإصلاحا بإفساد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة وعبدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خانتها قوادمها بكوكب فى سماء المجد وقاد»

ومنها :

« ومالك كان يحيي شول قرطبة أستغفر الله لا بل شول بغداد

ثم جرد « يوسف » حرسه الاحتياطى من السودان فحملوا على القشتاليين من ناحية أخرى حملة منكرة أتوا فيها بالعجائب.

شق العلوم نطاقا والعلا زهرا فبتن ما بين رواد ووراد»

وأين هذه القصيدة فى مدحهم من قصيدة العظة منهم وهى قول أبى الحسن جعفر ابن إبراهيم بن الحاج اللورقى .

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عدم المعروف فى آل عباد

حللت بهم ضيفا ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وهذا يدلك على أن الشعراء لم يسلم من لسانهم من أحسن فضلا عمن أساء، من العظماء والرؤساء ، وما أمدح قول أبى محمد بن غانم فيهم :

ومن الغروب غروب شمس فى الثرى وضياؤها باق على الآفاق

وجاء فى المطمح حين عرض لذكر المعتمد وبنى عباد قوله :

« هذه بقية منتماها فى لخم ، ومرتماها إلى مفخر ضخم ، وجدهم المنذر بن ماء السماء ، ومطلعهم من جو تلك السماء ، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر ، وتنفس منهم عن أعبق الزهر ، وعمروا ربع الملك ، وأمروا بالحياة والهلك ، و « معتضدهم » أحد من أقام وأقعد ، وتبوأ كاهل الإرهاب واقتعد ، وافترش من عربسته ، وافترس من مكائد فريسته ، وزاحم بعود ، وهز كل طود ، وأخمل كل ذى زى وشاره ، وختل بومى وإشاره ، و « معتمدهم » كان أجود الأملاك ، وأحد نيرات تلك الأفلاك ، وهو القائل وقد شغل عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل :

« لقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر

فهاتها خلعا أرض السماح بها محفوفة فى أكف الشرب بالبدر»

وهو القائل وقد حن فى طريقه ، إلى فريقه :

« أدار النوى كم طال فيك تلذذى وكم عقتنى عن دار أهيف أغيد

حلفت به لو قد تعرض دونه كماة الأعادى فى النسيج المسرد

وتمكن زنجى من الدنو من « الأذفونش » وطعنه بخنجر فى يده فجرحه فى فخذه ، وأقبل الليل ، والفريقان المتحاربان يتنازعان المعركة

لجردت للضرب المهند فاقتضى مرادى وعز ما مثل حد المهند . »

والقاضى أبو القاسم هذا جدهم ، وبه سفر مجدهم ، وهو الذى اقتنص لهم الملك النافر ، واختصهم منه بالحظ الوافر ، فإنه أخذ الرياسة من أيدى جبابر ، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر ، عند ما أناخت بها أطماعهم ، وأصاخت إليها أسماعهم ، وامتد إليها من مستحقيها اليد ، وأتاعوا أجيادا زانها الجيد ، وفغر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى ، وتصدى لها من تحضر وتبدى ، فاقتعد سنامها وغار بها ، وأبعد عنها عجمها وأعاربها ، وفاز من الملك بأوفر حصة ، وغدت سمته به صفة مختصة ، فلم يمح رسم القضاء ، ولم يتسم سمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، ومازال يحمى حوزته ويجلو غرته ، حتى حوته الرجام ، وخلت منه تلك الآجام ، وانتقل إلى ابنه « المعتضد » وحل منه فى روض نمق له ونضد ، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه ، وتسمى « بالمعتضد » بالله ، وارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش فى اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل ، وتصور أثناء ذلك القل والنهل ، ومازال للأرواح قابضا ، وللوثوب عليها رابضا ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه « المعتمد » فاكتحل منه طرفه الرمد ، وأحمد مجده ، وتقلد منه أى باس ونجده ، وندى به لحق مناه . وجر رسنه ، وأقام فى الملك ثلاثة وعشرين سنة ، لم تعدم منه فيها حسنة ، ولا سيرة مستحسنة ، إلى أن غلب على سلطانه ، وذهب به من أوطانه ، فنفل ، إلى حيث اعتقل ، فأقام كذلك إلى أن مات ، ووارته برية أغمات .

وكان للقاضى جده أدب غض ، ومذهب مبيض ، ونظم يرتجله كل حين ، ويبعثه أعطر من الرياحين ، فمن ذلك يصف النيلوفر :

« ياناظرين ندى النيلوفر البهج وطيب مخبره فى الفوح والأرج
كأنه جام در فى تألقه قد أحكموا وسطه فصا من الثبج »

التى حمى وطيسها ، ثم كان النصر فى النهاية حليف المسلمين ، وكان الفريق الأعظم من المسيحيين ملقى فى ميدان القتال بين قتيل وجريح ، ولاذ الباقون بالفرار ، وتمكن « الأذفونش » نفسه من الفرار مع كبير عناء يحيط به خمسمائة فارس من جنده (٥) أكتوبر سنة (١٠٨٦)

وكان « يوسف » معتزما أن يتعقب الفارين ، ويزحف بجيوشه إلى بلاد الأعداء ليجنى ثمرات انتصاره ، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نبأ وفاة ابنه الأكبر ، وعاد إلى إفريقية مع عامة الجند ، وترك تحت إمرة « المعتمد » جيشا من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندى .

ملوك الطوائف وعواصمهم

« اشبيلية » (بنو عباد)

أبو القاسم محمد بن إسماعيل (القاضى)	١٠٢٣ — ١٠٤٢
أبو عَمْرو عباد بن محمد : المعتضد	١٠٤٢ — ١٠٦٩
أبو القاسم محمد بن عباد : المعتمد	١٠٦٩ — ١٠٩١

« قرطبة » (بنو جهور)

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور	١٠٣١ (ديسمبر) — ١٠٤٣
أبو الوليد محمد بن جهور	١٠٤٣ — ١٠٦٤
عبد الملك	١٠٦٤ — ١٠٧٠

ثم ضمت « قرطبة » إلى حكم ملوك « إشبيلية »

« مالقة » (بنو حمود)

(١) إدريس الأول ١٠٣٥ ـ ١٠٣٩

(٢) يحيى بن إدريس الأول ١٠٣٩

(٣) حسن بن الخليفة يحيى بن على ١٠٣٩ ـ ١٠٤١

الصقلبي : نجاء ١٠٤١ ـ ١٠٤٣

(٤) إدريس الثانى ١٠٤٣ ـ ١٠٤٧

(٥) محمد الأول الابن الثانى لإدريس الأول ١٠٤٧ ـ ١٠٥٣

(٦) إدريس الثالث ١٠٥٣

(٧) إدريس الثانى (للمرة الثانية) ١٠٥٣ ـ ١٠٥٥

(٨) محمد الثانى (رابع أنجال إدريس الأول) ١٠٥٥ ـ ١٠٥٧

ثم ضمت «مالقة» إلى مملكة «غرناطة» .

« الجزيرة » (بنو حمود)

محمد بن الخليفة القاسم بن حمود ١٠٣٥ ـ ١٠٤٨ (٩)

القاسم ابنه ١٠٤٨ (٩) ـ ١٠٥٨

ثم ضمت «الجزيرة» إلى مملكة « إشبيلية » .

« غرناطة » (بنو زيرى)

زاوى بن زيرى حتى سنة ١٠١٩

حبّوس ١٠١٩ ـ ١٠٣٨

باديس ١٠٣٨ ـ ١٠٧٣

عبد الله ١٠٧٣ ـ ١٠٩٠

« قرمونة » بنو برزال

أسماء الملوك تبعا لابن خلدون (عباد جـ ٢ ص ٢١٦) هى كما يلى :

إسحاق

عبدالله ابنه

محمد بن عبد الله حتى سنة ١٠٤٢ (٣)

العزيز المستظهر ١٠٤٢ (٣) ـ ١٠٦٧

(عن ابن حيان وابن بسام)

ابن عبد الله أى محمد بن عبد الله ، حكم «قرمونة» فى العهد الذى كان فيه « هشام الثالث » متوليا « قرطبة » ١٠٢٩ ـ ١٠٣١ وعلى مايقول المؤلف نفسه الذى كان أهلا للثقة أكثر من «ابن خلدون» وكان خليفته « محمد بن عبد الله » .

ابنه إسحاق الذى حكم سنة ١٠٥٠

ويظهر أن ابن الأبَّار « فى أبحاثى ص ٢٨٦ الطبعة الأولى » قد أخطأ إذ قال : إن محمد بن عبد الله ، كان لا يزال حياً سنة ١٠٥١ .

رُندة

أبو نور بن أبى قرّة ١٠١٤ (٥) ـ ١٠٥٣ !

أبو النصر (ولده) ١٠٥٣

ثم ضمت « رُندة » إلى مملكة « إشبيلية »

مورور

نوح	١٠١٣ (٤) ـ ١٠٤١ (٢)
أبو مناد محمد وابنه	١٠٤١ (٢) ـ ١٠٥٣

ثم ضمت « مورور » إلى مملكة « إشبيلية »

أركش

ابن خزرون	حتى سنة ١٠٥٣

ثم ضمت « أركش » إلى مملكة « إشبيلية »

ولبة

أبو زيد محمد بن أيوب	من سنة ١٠١١ (٢)
أبو المصعب عبد العزيز	إلى سنة ١٠٥١

ثم ضمت « ولبة » إلى مملكة « إشبيلية »

نبلة

أبو العباس أحمد بن يحيى اليعقوبى ١٠٢٣ ـ ١ ٤١ (٢)

محمد ، شقيقه

فتح بن خلف بن يحيى بن أخى السابقين حتى سنة ١٠٥١

ثم ضمت « نبلة » إلى مملكة « إشبيلية »

شلب ـ بنو مزين

أبو بكر بن سعيد بن مزين ١٠٢٨ — ١٠٥٠

أبوالاصباغ عيسى إلى سنة ١٠٥١ (٢)

وقد ضمت « شلب » إلى مملكة « إشبيلية »

شنتمرية

أبو عثمان سعيد بن هارون ١٠١٦ ـ ١٠٤٣

محمد (ولده) ١٠٤٣ — ١٠٥٢

ثم ضمت « شنتمرية » إلى مملكة « إشبيلية »

مرتلة

ابن طيفور إلى سنة ١٠٤٤

ثم ضمت « مرتلة » إلى مملكة « إشبيلية »

بَطَلْيَوْس

سابور

وبعدئذ بنو الأفطس

أبو محمد عبدالله بن محمد بن مسلمة المنصور الأول

أبو بكر محمد المظفر حتى سنة ١٠٦٨

يحيى المنصور الثاني

عمر المتوكل حتى سنة ١٠٩٤

طليطلة

يعيش بن محمد بن يعيش	حتى سنة ١٠٣٦
و بعدئذ بنو ذى النون :	
اسماعيل الظافر	١٠٣٦ — ١٠٣٨
أبو الحسن يحيى المأمون	١٠٣٨ — ١٠٧٥
يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر	١٠٧٥ — ١٠٨٥

سَرَقُسْطَة

المنذر بن يحيى (١)	حتى سنة ١٠٣٩
و بعدهم بنو هود :	
أبو أيوب سليمان بن محمد المستعين الأول	١٠٣٩ — ١٠٤٦ (٧)
أحمد المقتدر	١٠٤٦ (٧) — ١٠٨١
يوسف المؤتمن	١٠٨١ — ١٠٨٥
أحمد المستعين الثانى	١٠٨٥ — ١١١٠
عبد الملك عماد الدولة	١١١٠

---

(١) يؤخذ من رواية صحيحة لابن حيان أنى كنت على حق إذ قلت إنه لم يكن « لسرقسطة » سوى ملك واحد من هذه الأسرة ، وهو المنذر، وأن الملك هو الذى قتل سنة ١٠٣٩ وليس ابنه . (دوزى)

السهلة . بنو رزين

أبو محمد هذيل الأول بن خلف بن رزين ، من سنة ١٠١١
أبو مروان عبدالملك الأول بن خلف، شقيقه ،
أبو محمد هذيل الثانى عز الدولة ، نجل السابق ،
أبومروان عبد الملك الثانى حسام الدولة يحيى إلى سنة ١١٠٣

الفُنْت . بنو قاسم

عبد الله الأول بن قاسم الفهرى نظام الدولة إلى سنة ١٠٣٠
محمد يُمن الدولة
أحمد عضد الدولة إلى سنة ١٠٤٨ (٩)
عبد الله الثانى جناح الدولة ، شقيق السابق ١٠٤٨ (٩) ـ ١٠٩٢

بلنسية

الصقلبيان : مبارك ، والمظفر
الصقلبي « لبيب » صاحب « طُرطُوشة »
عبد العزيز المنصور ١٠٢١ — ١٠٦١
عبد الملك المظفر ١٠٦١ — ١٠٦٥
ثم ضمت « بلنسية » لمملكة « طليطلة »
المأمون (طليطلة) ١٠٦٥ — ١٠٧٥

ثم انفصلت « بلنسية » عن « طليطلة » .

أبو بكر بن عبدالعزيز ١٠٧٥ — ١٠٨٥

القاضى عثمان (ولده) ١٠٨٥

القادر (ملك طليطلة سابقا) ١٠٨٥ — ١٠٩٢

ثم صارت « بلنسية » جمهورية رئيسها ابن جحاف ١٠٩٢ — ١٠٩٤

دانية

أبو الجيش مجاهد موفق إلى سنة ١٠٤٤ (٥)

على إقبال الدولة ١٠٤٤ (٥) — ١٠٧٦

خلعه المقتدر صاحب « سرقسطة » وضمت « دانية » إلى مملكة « سرقسطة »

المقتدر (سرقسطة) ١٠٧٦ — ١٠٨١

المقتدر يقسم مملكته بين ولديه . فكان نصيب « الحاجب منذر » :

لاردة ، وطرطوشة ، ودانية .

الحاجب المنذر ١٠٨١ — ١٠٩١

ولده تحت وصاية بنى بطير

مرسية

خيران (المرية) ١٠١٦ (٧) — ١٠٢٨

زهير (المرية) ١٠٢٨ — ١٠٣٨

عبدالعزيز المنصور « بلنسية » ١٠٣٨ — ١٠٦١

عبد الملك المظفر « بلنسية » ١٠٦١ — ١٠٦٥

كان « أبو بكر أحمد بن طاهر » حاكما لمرسية فى عهد هؤلاء الملوك الثلاثة وتوفى سنة ١٠٦٣ وخلفه ولده أبو عبد الرحمن محمد ١٠٦٣ — ١٠٧٨

المعتمد (إشبيلية)

ابن عمار

ابن رشيق إلى سنة ١٠٩٠

المرية

خيران إلى سنة ١٠٢٨

زهير ١٠٢٨ — ١٠٣٨

عبد العزيز المنصور (بلنسية) ١٠٣٨ — ١٠٤١

وبعدهم بنو صمادح :

أبو الأحوص ١٠٤١ — ١٠٥١

محمد المعتصم ١٠٥١ — ١٠٩١

عز الدولة ١٠٩١

٢

نظرات فى تاريخ الاسلام

« ديانة العرب فى الجاهلية »

كان كل شيء سائراً فى طريقه المعتادة فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى سواء فى الإمبراطورية البيزانطية أو الإمبراطورية الفارسية .

ولاجرم كانت هاتان المملكتان فى نزاع دائم ، سببه الرغبة والطمع فى تملك آسيا الغربية ، وكانتا — فى ظاهرهما — مزدهرتين ، تجبى لهما الضرائب والخراج فتمتلىء الخزائن بالمال ، وتتضخم ثروة الحكام ، حتى أصبح الترف والأبهة — اللذان انغمس فيهما سكان العواصم — مضرب الأمثال .

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهراً كاذباً ، فقد كان يسرى فى كيان هاتين المملكتين داء كمين ، وظل السوس ينخر فى عظامهما دائباً على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين ، هذا إلى ماحدث من الفواجع التى نجمت من تلك الأسرات ، وما لعبته من الأدوار المفجعة التى كانت — على الحقيقة — سلسلة متصلة الحلقات ، من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء .

وثم رأينا شعباً يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التى لايكاد يعرفها أحد ، شعباً جديداً بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة ، بعد أن ظل

نهباً مقسما ، تنـاوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى ، فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة . هاقد رأيناه يتحد ويجمع شمله الشتيت للمرة الأولى .

ذلكم هو الشعب الناهض الذى تملك نفسه حب الحرية وساعدته على النجاح صفاته النبيلة ، فقد كان متقشفا فى طعامه ، مخشوشنا فى لباسه ، نبيلا فى أخلاقه ، كما كان طروبا سريع البديهة حاضر النكتة .

ولقد كان شريف النفس أريحيا ـ فإذا استثرته مرة ـ فهو قاس غضوب شرس [1] لاينى عن أخذ ثأره ، ولا يرده عن انتقامه شىء .

ذلكم هو الشعب الذى قاب ـ فى لحظة واحـدة ـ إمبراطورية الفرس بعد أن ظل السوس ينخر فى عظامها قرونا عدة ؛ وانتزع من خلفاء « قسطنطين » أجمـل ضواحيهم . ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه ، وشرع يهدد ـ بعد ذلك ـ بقية أوروبا .

بينما كان فى ذلك الوقت نفسه يوالى فتوحه وانتصاره فى الجانب الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا .

لم يكن ذلك الشعب فاتحا فحسب ـ كغيره من الشعوب الأخرى ـ بل كان داعياً إلى دين جديد ومبشراً به أيضا . كان داعياً إلى دين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف ـ إن لاينته ـ لان متنه ، وحداه ـ إن خاشنته ـ خشنان »

« ديانة العرب فى الجاهلية »

كان كل شىء سائراً فى طريقه المعتادة فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى سواء فى الإمبراطورية البيزانطية أو الإمبراطورية الفارسية .

ولاجرم كانت هاتان المملكتان فى نزاع دائم ، سببه الرغبة والطمع فى تملك آسيا الغربية ، وكانتا – فى ظاهرهما – مزدهرتين ، تجبى لهما الضرائب والخراج فتمتلىء الخزائن بالمال ، وتتضخم ثروة الحكام ، حتى أصبح الترف والأبهة – اللذان انغمس فيهما سكان العواصم – مضرب الأمثال .

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهراً كاذباً ، فقد كان يسرى فى كيان هاتين المملكتين داء كمين ، وظل السوس ينخر فى عظامهما دائباً على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين ، هـذا إلى ماحدث من الفواجع التى نجمت من تلك الأسرات ، وما لعبته من الأدوار المفجعة التى كانت – على الحقيقة – سلسلة متصلة الحلقات ، من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء .

وثم رأينا شعباً يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التى لايكاد يعرفها أحد ، شعباً جديداً بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة ، بعـد أن ظل

نهبًا مقسما ، تنــاوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى ، فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة . هاقد رأيناه يتحد ويجمع شمله الشتيت للمرة الأولى .

ذلـكم هو الشعب الناهض الذى تملك نفسه حب الحرية وساعدته على النجاح صفاته النبيلة ، فقد كان متقشفا فى طعامه ، مخشوشنا فى لباسه ، نبيلا فى أخلاقه ، كما كان طروبا سريع البديهة حاضر النكتة .

ولقد كان شريف النفس أريحيا ـ فإذا استثرته مرة ـ فهو قاس غضوب شرس (١) لاينى عن أخذ ثأره ، ولا يرده عن انتقامه شىء .

ذلـكم هو الشعب الذى قلب ـ فى لحظة واحــدة ـ إمبراطورية الفرس بعد أن ظل السوس ينخر فى عظامها قرونا عدة ، وانتزع من خلفاء « قسطنطين » أجمــل ضواحيهم . ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه ، وشرع يهدد ـ بعد ذلك ـ بقية أوروبا .

بينما كان فى ذلك الوقت نفسه يوالى فتوحه وانتصاره فى الجانب الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا .

لم يكن ذلك الشعب فاتحا فحسب ـ كغيره من الشعوب الأخرى ـ بل كان داعياً إلى دين جديد ومبشراً به أيضا . كان داعياً إلى دين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف ـ إن لاينته ـ لان متنه ، وحداه ـ إن خاشنته ـ خشنان »

جديد ، فقام يناوئ الثنوية [١] الفارسية والمسيحية التى أفسدتها الخرافات والبدع ، حاملا إلى الناس توحيداً خالصاً لم يلبث أن دان به الملايين من الناس حتى بلغ عددهم فى أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها .

* * *

ذلك هو الدين الذى أخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفى تاريخه العام . ولعل أول مايعرض لنا هو هذا السؤال :

« مم نشأ ؟ وكيف تفرع من الديانة التى سبقته ، ثم نما حتى وصل إلى ماوصل إليه ؟ »

فكيف نجيب على هذا السؤال الذى يجدر بنا الأجابة عليه قبل كل شىء ؟ الحق أننى لم أكد أعرض لهذا حتى وقعت فى حيرة لامثيل لها ، فقد اعترضتنى — حتى فى هذه الخطوة الأولى — صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع . وإليك البيان :

---

(١) الثنوية دين المجوس الذين أثبتوا — كما يقول الشهرستانى — أصلين اثنين مؤثرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما : النور ، والثانى : الظلمة . وبالفارسية : «يزدان» و« إهرمن» وهذا رأى من يدينون بالثنوية والمانوية ، وقد أشار المتنبى إلى ذلك فى قوله من قصيدة مدح بها « سيف الدولة »

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب . »

* * *

إننى — على إجلالى وتقديرى لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام ، وعلى إعجابى بفطنتهم واجتهادهم — أقرر ولا أرى بدا من المصارحة : أن هذه البحوث الطريفة لا تكفينى قط ، لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل .

لذلك رأيتنى مضطراً إلى إعادة البحث — من جديد — سالكا طريقا أخرى مخالفة لما نهجه غيرى من الباحثين إلى اليوم ، وقد وصلت إلى نتيجة ، أنا أول المدهوشين لها ، وليس فى وسعى أن أسردها فى بضع صفحات ، إلا أنها — فى جوهرها وأساسها — مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطرها وأهميتها .

ولما كانت نتائج بحوثى مناقضة — على طول الخط — كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها ، والعلم يقضى على الإنسان ، ألا يلقى للناس قضايا مسلمة لا يدعمها برهان ، ولا تقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة ، والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية .

« والدعاوى — مالم يقيموا عليها بينات — أصحابها أدعياء ! »

ولما كانت المصادر الأصلية التى أعنيها هى مصادر أجنبية بالنسبة

لقارىء هذا السفر [١] رأيتنى مضطرا إلى تفصيل ذلك الرأى فى سفر مستقل آخر [٢] . ولـكن ماذا نصنع الآن فى هذا الفصل ؟

* * *

أما أن نجتزئ ببعض الآراء التى وصلتنا ، مبدلّين فيها رغبة فى أن نوائم بينها و بين آرائنا الخاصة ، فهذا محال ، لأن منهجين متباينين من مناهج البحث لاسبيل إلى التقائهما والتوفيق بينهما ، هذا فضلا عن عقم هذه الطريقة التى لاغناء فيها ، فليس ثم أية فائدة من تعرف جزء من الحقيقة .

لذلك أعملت الفكر ، فلم أجد إلا مخرجا واحداً من هذا المـأزق ، هو أن أتبع الفكرة المقررة ، مقتصراً على سردها وذكر ماوصل إليه الباحثون من النتائج فى هذا الصدد ، لاسيما « سپرنجر » أقرب الباحثين وأوفاهم درساً واستيعاباً للتاريخ الإسلامى وترجمة النبى .

على أننى جدير أن أقرر ــ منذ الآن ــ فى أسلوب صريح لايحتمل لبساً ولا تأويلا ، أنني إن استطعت بهذه الطريقة ، أن أرفع عن عاتقى عبء التبعة والمؤاخذة ، بما أقرره فى هـذا الفصل من وصف الحال الدينية التى كان عليها العرب فى القرن السادس الميلادى ، فلن يكون

---

(١) يعنى الأوربيين .

(٢) ارجع إلى كتاب « دوزى » : « الإسرائيليون فى مكة »

ذلك شأنى فيما أقرره فى بقية الفصول .

* * *

وقد دفعتنى هذه الاعتبارات السابقة ، كما دفعني غيرها من الأسباب التى لا يصعب على القارئ فهمها إلى الاقتصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى ما فى قدرتى من الإيجاز الذى التزمته فى تبيان ديانة العرب الأولى ونشأتها فى بلادهم ، فلم أحد عن هذا الشرط قيد أنملة .

ديانة العرب الاولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى ـ هو الله تعالى ـ ويعتقدون أن له ذاتا لا كذواتهم وأنه محيط بالعالم، ومايحويه من كائنات ـ هو بارئها ـ وإن اختلفت حظوظها من الطاعة والعصيان. وكانوا يدينون بأنه خالق السموات والأرض [١]. وأنه الذات المنزهة التى لا حد لحكمتها، ولا يمارون فى أنه مدبر العالم، وأنه هو الذى يرسل عليهم المطر من السماء [٢]:

كانوا يعتقدون هذا ويعتقدون أيضا أن ليس له كهان ولا هياكل، كتلك التى خصوا بها أوثانهم.

---

(١) كان العرب يعتقدون بوجود الله ويعتقدون أن شؤون الكون كلها بيده كما ترى فى الكتاب الكريم فى قوله: « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله. » وقوله فى آية أخرى: « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله، قل: أفلا تذكرون، قل: من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون لله، قل: أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله، فأنى تسحرون؟ »

(٢) قال تعالى: « قل من يرزقكم من السماء والأرض، أم من يملك السمع والأبصار. ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون؟ ».

العرب والجن

فإذا تركنا ذلك إلى سواه رأيناهم يعظمون الجن ويمجدونهم ، وقد دفعتهم إلى ذلك صحاريهم وجبالهم التى كثيراً ما يضلون فيها أسابيع كاملة ، فيتمثلون رؤية هذه العوالم الغريبة . ويُثَبِّتُ فى نفوسهم هذه التصورات ما يكابدونه فيها من ألم الجوع والعطش ، وما يحتملونه من شمس الصحراء المحرقة ، وهوائها اللافح ، وسوفيها المهلكة ، هذا إلى ما يعانونه من تقلبات الجو الفجائية ، حتى ليصل بهم الروع إلى حد أن يتخيلوا أنهم يسمعون أصوات الجن ويبصرون ذواتهم فى أشكال عدة ، وعلى صور شتى ، منها السخيف ومنها المعجب [١] ، وكانوا يعتقدون بأن أجسامهم تشغل جزءا من الفضاء — كما تشغله أجسامنا — وأنهم ينتشرون ، ولكنهم يختلفون عنا فى تكوينهم ، لأن أجسامهم مخلوقة من النار أو الهواء [٢] ، ومن ثم لا تراها العين الإنسانية إلا

---

(١) قال « أبو العلاء » على لسان جنى ، فى رسالة الغفران :

« فتارة أنا صل فى نكارته ورُبما أبصرتنى العين عصفورا
نلوح للإنس حولا أو ذوى عور ولم نكن قط لا حولا ولا عورا »

(٢) بعض الأساطير عن الجن

افتن رواة العرب وشعراؤهم فى رواية الأساطير الرائعة عن الجن ، ولعل أجمل ماقرأناه فى ذلك هو تلك القصة البديعة التى تخيلها « أبو العلاء » في رسالة الغفران بين « ابن القارح » وشيخ من أدباء شيوخ الجن وقد أثبتناها فى كتاب

شـذوذا . وفى قدرتهم أن يأتوا كثيراً من ضروب الشر والخير ، ومن كانوا كذلك فقد وجب عليهم أن يتحببوا إليهم ويمجدوهم

أساطير « ألف يوم » ، وفى هذه القصة يرى القارئ حوارا ممتعا لانغالى إذا قلنا إنه منقطع النظير فى العربية كلها . ومن أجمل مانختاره من تلك القصة قول الجنى — وهو يقص على ابن القارح بعض ماحدث له فى الدار الأولى .

« وكنت آلف من أتراب قرطبة خودا، وبالصين أخرى بنت « يغبورا »
أزور تلك وهذى غير مكترث فى ليلة قبل أن أستوضح النورا
ولا أمر بوحشى ولا بشر إلا وغادرته ولهان مذعورا . »

إلى أن يقول :

« وأحضر الشرب أعروهم بآبدة يزجون عودا ومزمارا وطنبورا
فلا أفارقهم حتى يكون لهم فعل يظل به إبليس مسرورا
وأصرف العدل مختلا عن أمانته ، حتى يخون وحتى يشهد الزورا . »

إلى آخر القصيدة .

ومما ذكره ذلك الجنى لابن القارح قوله .

« ولسنا مثلكم يابنى آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة لأنكم من حمأ مسنون وخلقنا من مارج من نار . »

وقوله :

« وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ، وإنما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قل مايعدوها القائلون ، وإن لنا لآلاف أوزان ماسمع بها الإنس . »

وقوله :

« ولابد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسية وانا بعد ذلك لسان لايعرفه الأنيس . »

ويقدسوهم . ومما سهل عليهم الوصول إلى تحقيق هـذه الغاية اعتقادهم[١] أن لـكل جنى موطنا خاصا به .

وقد قص الجنى على ابن القارح — فى قصيدة أخرى — شيئا كثيرا مما ينسبه الناس إلى الجن ، فمن ذلك قوله :

« ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس
تقول : « لاتقنع بتطليقها واقبل نصيحا لم يكن بالدسيس »
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجـد بجد تعيس
نذكره منها — وقد زوجت — ثغرا كدر فى مدام غريس . »

وفى هذه القصيدة يقول : —

« ونفترى جن « سليمان » كى نطلق منها كل غاو حبيس
صير فى قارورة رصصت فلم تغادر منه غـير النسيس »

يعنى بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبي الله « سليمان » فى قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لايجدوا سبيلا إلى الفرار ، فلم يبق منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق .

وقد أشرنا — فى رسالة الغفران — إلى ذلك إشارة موجزة لابأس من إثباتهـا هنا لفائدة القراء :

أساطير الجن وسليمان النبي

شاعت أخبار « سليمان » والجن ، وانتشرت — منذ أقدم أزمنة التاريخ — فنسب إليه من الخوارق القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، ونسب إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش معجزات لاتحصى ، كما عزى إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران بما يحمله فى الجو بسرعة لايكاد يتصورها العقل .

وقد كادت تجمع تلك الأخبار على عدة أمور أنضجها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبي » كان يهيمن على الجان ويتطلب منهم خدمات شتى

فهذا فى حجر وذلك فى نصب وثالث فى شجرة (١)

وكانت تجمع قبيلة — أو عدة قبائل أحيانا — على تمجيد جنى بعينه ، وتكل العناية به إلى أسرة بعينها منوط بها أمر رعايته وتلبية رغباته — تتفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يعن له أمر هام لايستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون مشهورا بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبي دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش — الذى على خاتمه — فأحرقه توا ، أو سجنه فى قارورة مرصصة أو قمقم من النحاس ، وربمـا سجنه فى عمود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه .

وقد اشتهروزيره الحـكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره .

وقد ذاع من تلك الأساطير — بين العامة والخاصة — شىء كثير ، وافتن الناس فى رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذه الأساطير مصادر عدة — نخص بالذكر منها — عدا روايات وأقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسيين نعدهما من أخصب المصادر وأغناهـا وهما « أساطير ألف ليـلة وألف يوم » وأسطورة « سيف بن ذى يزن » .

(١) ومن الأشجار التى كان يعظمها العرب ، فى الجاهلية شجرة « ذات أنواط » وفيها يقول بعض الشعراء :

« لنا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط . »

وفى هذه الشجرة يقول « أبو العلاء » فى لزومياته :

« والحظ يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ولم تباين — على علاتها — الشجرا . »

وفى هذين البيتين أيضا إشارة إلى ما ذكره « دوزى » من عبادة العرب للحجر .

وكانت هـذه الفئة تقوم بحراسته وتعظيم شأنه ، سواء فى الحجر أو الشجرة أو الصورة التى تمثله ، كما تؤدى له حقه من المراسيم الـكهنوتية والطقوس الدينية التى تقيمها فى محرابه ، وربمـا سمع لذلك النصب صوت ـ كما يحدث ذلك فى كثير من الأحيان ـ ومن الواضح أن الـكهنة القائمين بحراسة الوثن قد مرنوا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتـكلم ـ وكان لـكل منها صوت خاص به يميزه عن غيره ـ وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التى يعزونها إلى أوثانهم .

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنمها ، وتشيد بذكره ، وتفرده بأقصى ماتستطيع من حب ، لأنهـا ترى فيه نوعا من الملـكية ، وكان الـكهان ينضحون عنه ، ولا ينون فى طلب القرابين لذلك النصب ، وإن كانوا ـ على الحقيقة ـ يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغانم لهم باسم الله تعـالى .

هذا مانستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن ، وأقوال المفسرين على وجه الإجمال . على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا فى درس ترجمة حياة النبى، يعزون ذلك إلى قبيلة « خولان » وحدها ، وهى التى كانت تقطن اليمن فى ناحية منه تعرف باسمها .

وكان من عادتهم ، حين تقدم القرابين إلى الآلهة ـ وهى من البر أو الفصال [١] ـ أن يقسموها قسمين ، أحدهما وقف على الله ، وهذا من نصيب المعوزين وأبناء السبيل الذى يحلون ضيوفا على أهل القبيلة ، والآخر وقف على النصب ، وهو من نصيب الكهنة وحدهم .

فإذا وقع فى القسم الأول ـ بطريق المصادفة ـ بعض النفائس ، استأثروا به وجعلوه من نصيب الوثن ، ووضعوا مكانه النصيب الأدنى لله [٢] .

ولكن ماعلاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله ؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله [٣] ، وأن مثلها منه كمثل الفروع من

---

(١) الجمال الصغيرة ، قال الشاعر :

« لا أمتع العوذ بالفصال ، ولا أبتاع إلا قريبة الأجل . »

(٢) قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء مايحكمون . »

(٣) ومما جاء فى القرآن الكريم قوله : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم مايشتهون » وقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . »

الأصل تماماً . فهى تحكم الناس كما يحكم حاكم الإقليم بعد أن يخوله مليكه سلطان الحكم ، وثمة كانوا يرون فى تلك الأرباب وسائط بين الناس وبين الله [١] .

---

(١) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها — كما يتوهم بعض الناس — وقد ذكر «عبدالله بن عباس» فى تفسير قوله تعالى : « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً » إن هذه الأسماء التى أطلقوها على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين ، ماتوا ، فقالت عشائرهم : لو أنا صورناهم ليكون فى ذلك تذكير لنا ، وتنشيط على العبادة ، وحسن الاقتداء بهم ، فصوروهم حتى إذا تطاول بهم الأمد عبدوهم . » « المترجم »

مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة فى أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، فى واد رملى شديد الضيق ، حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة ـ أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة ـ وتكتنفه جبال جدّ عارية يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة .

فى هذه المدينة المحراب الذى يفخر به كل من يملكه ويقع فى حوزته ، ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن [١] وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وإن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصقل ، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخللها الملاط ، وقد غطيت بريطة [٢] أو بقطعة من القماش ، أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل ، وأما مساحتها فتبلغ مائتى قدم .

وكان « هبل » [٣] اسم الصنم الكبير الرئيسى بين أصنامها ، منذ

---

(١) سميت كذلك لأنها ترى من بعيد على شكل مكعب منتظم الأضلاع « دوزى » .

(٢) ملاءة

(٣) قال ابن الكلبى : « كان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هبل » « المترجم »

النصف الأول من القرن الثالث ، وهو تمثال عقيق [١] جلبه من الخارج بعض الرؤساء [٢] ، وكان « هُبَل » فى ذلك العهد ربا لقبيلة قريش . أما الكعبة نفسها فلم تكن ملكا للقرشيين ، بل كانت — على الحقيقة — ملكا مشاعا لأكثر القبائل التى تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة ، وكان للكعبة صبغة عالمية عندهم .

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذى تعبده فى ذلك المحراب (الكعبة) حتى بلغ عدد الأرباب التى بها ثلثمائة وستين ربًا ، وكان التسامح الدينى سائداً ، وقد وصل بهم إلى أعظم حدوده ، فقد كنت ترى فى الكعبة — زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام — صورة إبراهيم الخليل وصورة الملائكة ، وصورة العذراء مع طفلها عيسى .

* * *

---

(١) روى ابن الكلبي :

« انه كان من عقيق أحمر ، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يدا من الذهب » « المترجم »

(٢) قالوا :

« وكان أول من نصبه « خزيمة بن مدركة » وكان يقال له « هبل خزيمة » « المترجم »

الحجر الاسود

على أنهم كانوا لايقدسون شيئًا ، كما يقدسون « الحجر الأسود » وهو الحجر الذى يزعم المسلمون ، أنه كان فى أول أمره أبيض ، ثم اسودّ من توالى الحريق الذى حدث فى الكعبة ، وقد لعب هـذا الحجر فيما بعد – فى قابل الإسلام – دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى، ولا زال يعده المسلمون – حتى أيامنا هذه – حجراً مقدسًا ، وسنذكر فى بعض الفصول التالية بعض أقاصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر .

وقد وصفه لنا بعض السائحين الأوروبيين الذين شاهدوه ، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركانى ، تلمع فى أنحائه نقط بلورية ، وتبدو فى بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذى يطلقون عليه اسم « فيلسبار » لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قاتمة ، وتارة أسمر يميل إلى السواد .

وقد تعاورته ظروف مختلفة ، فكسر أكثر من مرة حتى غدا فى هـذه الأيام مؤلفا من اثنتى عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض ، والكثيرون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء .

* * *

أما احترامهم الـكعبة ، فقد بلغ بهم حد التقديس (١) وزاد إجلالهم لها ، فقدسوا ماجاورها من البقاع – التى خلعت عليها الـكعبة مسحة القداسة – وثم أصبح ما يكتنفها – إلى بُعد عدة فراسخ – حراما لايجوز لـكائن من كان أن يفتك بسواه فيها ، أو يصطاد من حيوانهـا ، احتراما لها .

ويؤم الـكعبة فى كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء ، لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها .

عبادة الاصنام (٢)

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول فى القرن السادس من الميلاد ،

---

(١) روى ابن الكلبي فى كتابه الأصنام : « أنه لمـا سكن إسماعيل بن إبراهيم (ص) مكة ، ولد له بها أولاد كثيرون حتى ملأوا مكة ، ونفوا من كان بها من العماليق ، وضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضا ، فتفسحوا فى الأرض التماس المعاش . »

قال : « وكان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للـكعبة وصيانة وصبابة بمكة ، فحيثما حـلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالـكعبة ، تيمنا منهم بها ، وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الـكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون ، على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار . »

« المترجم »

(٢) قالوا : « إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو « عمرو بن لحى » ، وإنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان ، وقد جاء فى كتاب الأصنام . أن السبب

ودب فيها الفساد وتغير جوهرها ، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام ـ التى يمجها العقل ـ تدين بها طائفة من المبطلين .

قال أحد معاصرى « محمد » [1] (ص) ـ :

« كنا ـ إذا عثرنا على حجر جميل ـ عبدناه ، فإذا عز علينا أن نجده ، أنشأناه من الرمل إنشاء ، ثم سقيناه لبن ناقة درور مدة من الزمن ، ومتى تم لنا ذلك ، عبدناه ، ثم لانزال نفعل ذلك مادمنا فى ذلك المكان ! »

* * *

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت ـ على العكس من ذلك ـ على جانب عظيم من الرقىّ والحضارة ، فلم يكن عندهم عقيدة فى أرباب هى من صنع أيديهم ، من الحجارة أو الخشب !

ولقد كان الناس ـ فى ظاهر أمرهم ـ يمجدون تلك الأرباب ، ويحجون إلى محرابها ، ويحتفون بمواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين

فى ذلك أنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن البلقاء من الشام « حمة » إن أتيتها برأت ، فأتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : « ماهذه ؟ » فقالوا : « نستسق بها المطر ، ونستنصر بها على العدو » فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . » « المترجم »

(١) هو « أبو رجاء العطاردى » تجد ترجمته فى كتاب « ابن قتيبة » ص ١١٩ وفى مسند الدارمى ص ٣٦٤. « دوزى »

فى هيا كلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التى يعبدونها ، سواء أكانت من الحجر أم من الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما حزبهم أمر ، ليلتمسوا منها البركات ، ويتكشفوا بوساطتها مستقبل أمرهم الغامض .

على أن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لايترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها ، أو إذا جرؤت على إذاعة شىء يكرهونه ويخشون إذاعته مما اقترفوه من الدنايا .

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قربانا له إذا تكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر[1] حتى يستبدل النعجة — وهى قيمة عنده — بغزال لايكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده ، يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لايكاد يفرق بين

---

(١) هذا هو حال أغلب الناس — على اختلاف أديانهم وأزمانهم — وليس أبلغ فى أداء هذا المعنى من قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر ، دعانا لجنبه ، أو قاعدا ، أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ! »

وفى ذلك يقول « ابن دريد » فى مقصورته الرائعة .

« نحن — ولا كفران لله — كما قد قيل للسائق أخلى فارتعى
إذا أحس نبأة ريع ، وإن تطامنت عنه ، اطمأن ولها . »

النعجة والغزال ! [١]

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم ، مالم توافق رغباتهم ، وتعبر عما يقصدون إليه من التفاؤل ، بما هم قادمون عليه من الأمور .

يؤيد ذلك أن أعرابيا اعتزم أن يثأر لأبيه ممن قتله ، فأتى « ذا الخلصة » [٢] وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض – ليستشيره فيما هو قادم عليه ، و بدأ يقترع – على عادة العرب فى ذلك – فرأى فى السهم الأول أمراً بالمضى فى طريقه ، وفى الثانى نهياً عن ذلك ، وفى الثالث أمراً بالانتظار والتريث ، فلم ترضه هذه النتيجة ، وأعاد الكرة مرة بعد أخرى ، فكانت النتيجة واحدة فى المرات

---

(١) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها وصوفها ولحمها ، وما أجمل قول أحد العرب يهدد زوجته متهكما . —

« غضبت على لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لأشربن بنعجة كوماء مائلة الإناء سحوف . »

(٢) كان « ذو الخلصة » ــ فيما يقول ابن الكلبي ــ مروة بيضاء ، منقوشا عليها كهيئة التاج ، وكانت « بتبالة » بين مكة واليمن ، على مسيرة سبع ليال من مكة ــ وكان سدنتها بنو أمامة من « باهلة بن أعصر » وكانت تعظمها وتهدى لها « خثعم » و « بجيلة » و « أزد الشراه » ومن قاربهم من بطون العرب من « هوازن » ومن كان ببلادهم من العرب بتباله. قال . وكانت العرب جميعا تعظمه »

« المترجم »

الثلاث ، فغضب وألقى بالسهام فى وجه الصنم وقال له :

« مصصت بظر أمك ، لو كان أبوك قتل ماعوقتنى ! » (١)

كذلك كانوا يغضبون لأتفه الأسباب ، وكلما تعارضت أوامرها مع رغباتهم ، ولم تعبر عما يودون سماعه من الكلام ، انهالوا عليها بالسباب والتحقير .

وأقبل رجل من بنى ملكان (٢) على « سعد » صنم قبيلته المعبود ، ـ وهو صنم فى الصحراء ـ وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه

---

(١) قالوا : إن امرأ القيس بن حجر ، لما أقبل يريد الغارة على بنى أسد ، مر بذى الخلصة ـ وكانت له ثلاثة أقداح ، « الآمروالناهىوالمتربص » ـ فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج الناهى ، فكسر القداح ، وضرب بها فى وجه الصنم ، وقال هذه الجملة ، وتروى ـ فى رواية أخرى ـ بأشنع من ذلك .

قالوا . فكان امرؤ القيس أول من أخفره ، ثم غزا بنى أسد فظفر بهم !

وفى رواية أخرى أن رجلا كان أبوه قد قتل ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال .

« لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلى ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا . »

(٢) قال ابن الكلبي . « وكان لمالك وملكان ابنى كنانة ، بساحل جدة ، وتلك الناحية ، صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت منه ـ وكان يهراق عليه الدماء ـ فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجرا ، فرماه به ، وقال . « لابارك الله فيك إلها أنفرت على إبلى . » ثم خرج فى طلبها وانصرف وهو يقول (الأبيات) .

يريد التبرك به ، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العتائر [١] ـ حسب عادتهم ـ نفرت الإبل وولت هاربة . فغضب صاحبها ، وتناول حجراً ، فرمى به وقال :

« لابارك الله فيك إلهـاً أنفرت على إبلِي » ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

« أتينا إلى « سعد » ليجمع شملنا
فشتتنا « سعد » فلا نحن من « سعد »
وهل « سعد » إلا صخرة بتنوفة
من الأرض لايدعى لغى ولا رشد ؟ »

* * *

وكان « بنو حنيفة » أنفسهم أقل الناس احتراماً لآلهتهم ، إذ كانوا يأكلونها . ونحن جديرون أن نقرر عذرهم فى ذلك ، فقد كانوا يصنعون آلهتهم من نوع ـ بعينه ـ من العجوة ومن اللبن والزبد ، فلما وقعوا فى قحط ومجاعة أكلوها .

* * *

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد فى تلك الأرباب اعتقاداً

---

(١) هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التى يذبحونها عند أصنامهم .

جديا ، فقد كان أكبر شىء يحترمونه هو الله تعالى . على أن الله لم يكن له عندهم أيضا عقيدة قوية راسخة فى قرارة نفوسهم ، لأنهم كانوا لايعرفون عنه شيئاً كثيراً ، إذ لم يكن له كهان يدعون الناس إليه ، ويرغبونهم فى عبادته وطاعته ، ويذيعون إرادته ويوضحون لهم ماقدره من خير وشر .

عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة ، بل كانوا شديدى الاختلاف ، فمنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ، ويدين باليوم الآخر ، ولا يقف عند حد الاعتقاد فى بعث الإنسان ، بل يدين ببعث الحيوان أيضا .

ومن ثم كان يدفن راحلته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره ، ليركبها يوم القيامة ، فلا يتكبد عناء السير على قدميه .

على أن سوادهم كان يستهزىء بفكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا يدينون فى كل مكان برأى القائل :

« حياة ، ثم موت ، ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو . »

* * *

وليس فى هذا موضع للعجب ، فإن هذه الفكرة ـ فكرة البعث ـ

لمحببة إلى نفوس الآريين ، شديدة الغرابة عند الساميين ، وآية ذلك ، أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم [١] ، إن لم نقل فى أوائل التاريخ الميلادى ، على أن جماعة الصدوقيين نفسها ـــ وهى كبيرة العدد ـــ قد رفضت فكرة البعث ، ولم تقبلها قط [٢] .

---

(١) يعرف تشريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جــلاء بابل ! فقد تولى « بختنصر » فى عام (٦٠٦ ق . م) وأجلى اليهود عن بيت المقدس ، وضربه وأخذ آنيته الثمينة وقد مكث مخربا نحو مائة عام ، وشرد اليهود كل مشرد ، وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وبلاد « مادى » . وفى عام (٢١ ب . م .) جاء « طيطوس » فنكب اليهود مرة أخرى وهدم « بيت المقدس » وشتت شملهم ، وحرم عليهم الاقامة فى « فلسطين » وقد كتب « يوسيفوس » المؤرخ كتابه عن اليهود ، وما حدث لهم فى تلك الموقعة . « المترجم »

(٢) الصدوقيون

فرقة من اليهود ظهرت فى وقت العهد الجديد ، وهى تنسب ـــ فى رأى بعض المؤرخين ـــ إلى « صدقيا » وهو من أسرة أرستقراطية ، من أحبار « بيت المقدس » فى زمن « سليمان » عليه السلام ، وفى رأى آخرين أنهم منسوبون إلى الكلمة العبرية التى معناها « الحق » وهى قريبة الحروف من الـكلمة العربية . وأهم مميزات الصدوقيين هى : أنهم كانوا حزب الأرستقراطية . وأنهم كانوا لا يعترفون بغير التوراة المـكتوبة ، ويرفضون كل ماعداها مما زيد عليها من الأحاديث الشفوية المروية عن « موسى » ـــ عليه السلام ـــ كما كانوا يرفضون كل ما أضيف إليها من التفاسير والشروح ، التى أدخلها فيها النساخ .

ولهذا رفض الصدوقيون الإيمــان بأهم الأسس التى بنيت عليها الديانة اليهودية ، فلم يؤمنوا بالبعث ، ولم يقبلوا فكرة الخلود ، ولا فــكرة الجزاء فى الدار الآخرة ،

وكانوا — إلى ذلك — ينكرون الملائكة ويجحدون الأرواح ، ويقررون — تقرير الجازم المستيقن — أن الإنسان مخير — بأوسع ماتحويه هذه الكلمة من معان — وأنه متمتع بحرية الإرادة فى كل مايفعله من خير أو شر ، وأن سعادته وشقاوته — على هذا — ثمرة غرسه ونتاج عمله .

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين ، لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين ، كما يتبادر إلى الذهن من أقوالهم ، وأن هـذا الوهم سببه عدم تحرى الدقة فى فهم عبارتهم التى التبس على الكثيرين فهمها ، وإنما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل فى أعمال الإنسان ، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يتعرف المناسبة التى قيلت فيها والقرينة التى اقترنت بها .

ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الايمان وقوة العقيدة اللتان امتاز بهما الفريسيون الذين كانوا يعقدون آمالهم على الدار الآخرة ، ومايتوقعونه فيها من الجزاء . فلم يحفلوا بالاعتبارات الدنيوية ، على أن الانصاف يقضى علينا أن تقرر أن ذلك لم يكن إلا فى ظاهر معتقداتهم ، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادىء ، واتخذوها وسيلة إلى المداهنة والرياء ، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا — على سبيل المجاز — صفة لكل من ينافق أو يعنى بظاهر اللفظ ويستغنى بالقشور عن اللباب ، ويفضل المصطلحات والمظاهر ، على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها .

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوبا بالقضاء على الصدوقيين وقد ورد ذكرهم فى « التلمود » ولكن عبارة « التلمود » غامضة لايسهل اجتلاؤها لمن يريد تعرف الحقيقة .

وقد قسم « ابن حزم » — فى كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق ، وهى :

١ — السامرية : وهم يقولون إن مدينة « القدس » هى نابلس — وهى من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلا — ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ، ولهم

إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة ، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها ،

توراة غير التي بأيدى سائر اليهود ، ويبطلون كل نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشم — عليه السلام — فيكذبون بنبوة « شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليشع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا » وغيرهم ، ولا يقرون بالبعث البتة ، وهم بالشام لايستحلون الخروج عنها .

٢ — الصدوقية : وينسبون إلى رجل يقال له « صدوق » وهم يقولون من بين سائر اليهود إن العزير هو ابن الله — تعالى الله عن ذلك — وكانوا بجهة اليمن .

٣ — والعنانية : وهم أصحاب عانان الداودى اليهودي ، وتسميهم اليهود العراس والمس ، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء فى كتب الأنبياء ويتبرأون من قول الأحبار ويكذبونهم ، وهـذه الفرق بالعراق ومصر والشام ، وهم من الأندلس بطليطلة وطليبرة ،

٤ — والربانية : وهم الأشعنية — : وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود .

٥ — والعيسوية ، وهم أصحاب أبى عيسى الأصبهانى — رجـل من اليهود كان بأصبهان — وبلغنى أن اسمه كان « محمد بن عيسى » وهم يقولون بنبوة « عيسى ابن مريم » و « محمد » (ص) .

ويقولون إن « عيسى » بعثه الله — عز وجل — إلى بنى إسرائيل - على ماجاء فى الإنجيل - وإنه أحد أنبياء بنى إسرائيل ، ويقولون إن « محمدا » (ص) نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بنى إسماعيل عليهم السلام ، وإلى سائر العرب كما كان « أيوب » نبيا فى بنى عيص ، وكما كان « بلعام » نبيا فى بنى « مواب » بإقرار من جميع فرق اليهود .

« المترجم »

وما زال البدوى – إلى أيامنا هذه – لايعنيه أمر البعث ، ولا يكترث له [1] .

---

(١) قال « أبو العلاء » فى رسالة الغفران :

وبعض العلماء يقول : « إن سادات قريش كانوا زنادقة » وما أجدرهم بذلك ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

« ألمت بالتحية أم بكر	فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوى – طوى بدر –	من الأحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لاتكرى	على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخى أبيه وكان قرما	من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عنى	بأنى تارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زايل منكبيه	فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا « ابن كبشة » أن سنحيا	وكيف حياة أصداء وهام ؟
أتترك أن ترد الموت عنى	وتحيينى إذا بليت عظامى ؟ »

ولا يدعى مثل هذه الدعاوى إلا من يستبسل وراءها للحمام ، ولا يأسف له إلا عند إلمام . ا . هـ . » « المترجم »

المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية ، لاترتكز على أساس متين ، ومتى أقررنا ذلك ، سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر – غير دينهم هـذا – فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلا .

وهذا كلام صحيح ، ولـكن إلى حد ما . فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه فى جهتين ، انتشرت فى بلاد الحبشة ـ جنوبا ـ وفى سوريا ـ شمالا ـ حيث لقيت شيئًا من القبول ، وقد انتصرت كذلك فى مدينة « نجران » فى وقت مبكر ، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية، كما تنصر عرب سوريا ، وأصبح علم النصرانية خفاقا على كثير من الأديرة والـكنائس.

على أن هذا النجاح كله لم يكن ـ فى أى مكان تقريبًا ـ إلا مظهرا من المظاهر لاحقيقة من الحقائق .

أما فى أواسط بلاد العرب ، وفى قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربى القح وأرومته ، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحى ، ولم نكن لنرى ثم إلا أثراً ضعيفاً له ـ إن لم نقل ـ معدوماً .

وكانت المسيحية فى ذلك الزمن ـ على وجه عام ـ بما تحويه من

معجزات ، وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب ــ قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى.

وآية ذلك ماتراه واضحا فيا حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير « المنذر » الثالث ملك « الحيرة » ــ حوالى عام ٥١٣ من الميلاد ــ وإن المنذر ليصغى إلى مايقولون بانتباه ، إذ دخل عليه أحد قواده ، فأسر إليه بضع كلمات ، ولم يكد ينتهى منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق ، فتقدم إليه أحد القساوسة يسأله متأدبا متلطفا عما أشجاه ، فأجابه الملك :

« ياله من خبر سىء ! لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتا عليه ! »

فقال القسيس :

« هـذا محال أيها الأمير ، وقد غشك من أخبرك بذلك ، فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ! »

فأجابه الملك :

« أحق ماتقول ؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت ؟ »

* * *

أما حظ اليهودية فى اجتذاب العرب إليها ، فهو أكثر من حظ المسيحية ، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الإمبراطور

« أدريان » الذى ثاروا عليه ، فألحق بهم الأذى ، وشتت شملهم ، فوجدوا فى بلاد العرب ملجأ لهم ، وبثوا دعايتهم فيها ، فدان باليهودية قبائل عدة من سكان الجزيرة العربية .

ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهودون الذين أخلصوا لليهودية حقًا ، وقد صارت اليهودية نفسها ـ فى زمن ما ـ دين اليمن الرسمى .

على أنها ضعفت ـ على مرور الزمن ـ وقل إقبال العرب عليها ، لأن اليهودية لاتلائم إلا شعبًا مختاراً ، أما أن تكون دينًا عامة للناس قاطبة فلا ! ذلك أنهـا ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعـد أن خرب « بيت المقدس » . وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد !

وليس من أصالة الرأى أن نقول إن سواد العرب ، كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر ، فإن العربى ـ ذلك البدوى الحر كما سنراه فى كثير من المناسبات التى ستتيحها لنا الفرص أثناء دراسته ـ ليس متدينا بطبعه ، كما أن كل محاولة بذلت فى سبيل جعله كذلك كان نصيبها الفشل التام .

فالعربى رجل عملى مادى ، لايعنى بغير الحقائق حتى فى شعره ، فهو لايسبح فى الخيال والوهم ، ولا يميل إلى الأخـذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية . التى يعتمد الإنسان فى استيعابهـا على التخيل

أكثر من اعتماده على التعقل .

* * *

إن ديانة العرب التى ألفوها ، لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم، بل كانت ضعيفة الأثر، قليلة الخطر، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال ، فإذا كان من الحق علينا أن نعترف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب ، فمن الحق علينا أن نقرر أيضا أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافيا للقضاء عليها .

والحق أن أحداً لم يكن مضطراً إلى العقيدة ، فقد كان البدو لايبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التى يعبدونها ، ولا يترددون فى إلحاق الأذى والضرر بها ، بقلوب جد مغتبطة ، بيد أن القضاء — بعد كل هذه الاعتبارات — على عبادة يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل ، كان يثير فى نفوسهم كبرياءهم القومى ، أنفة من أن يتركوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار .

وجماع القول أن الديانة كانت فى نظر العربى القديم — كما هى فى نظر البدو فى أيامنا هذه — أمراً لاخطر له . وآية ذلك أن شعراء الجاهلية ، لانكاد نراهم يذكرون دينا أو عقيدة فى أشعارهم ، ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — إذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر

المختلفة ـ إلا عبارات مقتضبة ، لاتكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة .

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة ، ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل وراء الطبيعة ، وكان مؤمنوهم يتابعونهم فى ذلك الشعور ويصدرون عنه .

ومع كل هذه الاعتبارات ، فقدوجدت لهذه القاعدة شواذ ـ شأن كل قاعدة ـ فإن وجود جماعات شتى من متألهى العرب الذين يدينون بوحدانية الله وإن اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم ـ لِتَدَيُّن بعضهم باليهودية أو المسيحية ـ كان أمرا له خطره عند العرب ، وله أثره فى نفوسهم ، إذ كان أولئك المتألهون لايفتئون يبثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

الحنيفية

ومن ثم رأينا فى أواخر القرن السادس الميلادى لبعض الشعراء دلائل وآثارا لإيمان عميق بوحدانية الله ، ورأينا منهم شعورا يقظا بالتبعة المترتبة على ماتصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة — التى ترى هذا الرأى — هى طائفة الحنفاء [١] ، وقد كانوا فى شتى الأنحاء ،

---

(١) يذهب الأستاذ « سبرنجر » إلى أن كلمة « حنيف » معناها فى الأصل ملحد ، أو كافر وعندى أن فى هذا التفسير إسرافا ومغالاة لا يقبلها باحث ، وليس يتسع المقام لاظهار حقيقة الحنيفية والحنفاء التى سأبينها فى بعض الفصول الأخيرة من هذا الكتاب ، فلأكتف الآن باحالة القارىء على ما كتبته فى أوائل هذا الفصل»

« دوزى »

الحنيفية

اختلف الناس فى تفسير هذه الكلمة واضطرب الشراح فى معانيها اضطرابا شديداً . بلغت مسافة الخلف فيه من النقيض إلى النقيض ، ولهم العذر فى ذلك فقد تطورت معانى هذه الكلمة — بمرور الزمن — فكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيهما أكثر المفسرين ، وقد ذكر صاحب « لسان العرب » وغيره معانى مختلفة لهذه الكلمة لا تربطها صلة ، وليس هنا مجال التوسع فى سرد ما قالوه ، وكتبوه فى ذلك ، فلنجتزىء بشرح معناها الذى نفهمه بايجاز ، وهو فهم يلائم بين تلك الآراء كلها :

« كلمة الحنيف أصل معناها المائل عن الطريق المعبد السوى الذى ألفه سواد الناس إلى طريق آخر ، وهذا هو ما فعله « ابراهيم » عليه السلام — فقد خالف ما كان عليه قومه من الشرك والوثنية ، ومال عن سنتهم الى طريق التوحيد ،

لا تربطهم أية آصرة ، ولا يضمهم مذهب بعينه كما يفعل الصابئة المنتسبون إلى « ابراهيم » الذين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضا ! .

فأطلق عليه قومه اسم « الحنيف » ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه فى حنيفيته ولكن مذهب «ابراهيم» وشريعته دخلهما كثير من الضلالات والأوهام والبدع ، ومن ثم تباين اتباعه فى نحلهم وعقائدهم ، فوجد منهم المؤمن الحق والمشرك والوثنى ، ولكن كلا منهم احتفظ لنفسه باسم الحنيفية ، وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء . فلما جاء الاسلام وجد لفظة الحنيفية فى حاجة إلى تحديد ، فلم يكتف بوصف ابراهيم — عليه السلام — بالحنيفية ، بل احترس ، فقال عنه إنه كان حنيفاً مسلما .

ولعل خير ما نختم به هذه الكلمة هو قول الأستاذ الامام « محمد عبده » فى تفسير الآية : « قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . »

وإليك ما قال :

« قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج : إن الحنيفية هى ما كان عليه العرب من الشرك ، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى — فى زمن الجاهلية — « إن فعلت هذا أكون حنيفا . » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة ، وقد ناظرت بعض علماء الافرنج فى هذا ، فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصرانى . وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ولا دليل فى كلمة النصرانى العربى على أن الكلمة تدل — لغة — على الشرك ، وإنما مراده بكلمته ، البراءة من دين العرب مطلقا ، وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضاً . والسبب فى هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ، ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها ، فنسوا بعضها بالمرة ، وخرجوا ببعض آخر عن أصله ، ووصفه كالحج .

وكان لهاتين الطائفتين — من الحنفاء — رأى واحد فى رفض اليهودية والمسيحية معًا ، والاعتراف بدين « ابراهيم » . وإبراهيم هذا — الذى عرفوه من اليهود والنصارى — هو الأصل الذى ينسبون إليه ، فهو والد جدهم « إسماعيل » وهو الذى بنى الكعبة فى مكة .

وكانت شريعته الحنفاء سمحة رشيدة ، واضحة المحجة ، سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العمليين — وهى فى جوهرها — صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة ، ولم ينقصها لبلوغ هذه الغاية — إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة ، وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزلة من السماء ، أو تفهم على أنها كذلك .

***

وهذا هو العمل العظيم الذى أخذ «محمد» (صلى الله عليه وسلم) على عاتقه القيام به ليتمم نقص الحنيفية. ولكن هذا العمل — على مافيه من صعوبة — قد ضوعفت مصاعبه ، لأن العرب لم يكونوا فى غير حاجة إلى الدين فحسب ، بل كانوا — إلى ذلك — ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسمها ، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعميات التى تتصل بما وراء الطبيعة .

ولابد من إقناع جازم ، و يقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات.

ونفى الشرك عن إبراهيم — فى آخر الاية — احتراس من وهم الواهمين وتكذيب لدعوى المدعين . » ا . هـ . « المترجم »

بعد وفاة النبي[1]

مات النبي ولم يترك ولداً له ، ولم يعين خليفة يخلفه ، فكانت الساعة غاية فى الحرج ، وأصبح كيان الإسلام نفسه مهدداً نهب الحوادث والظروف ، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها ، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخلصين ، وكأنما أصابتهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع ، وكان الناس قسمين : قسما يحسبه خالداً لن يموت ، وقسما لا يتوقع موته بهذه السرعة ، بل يؤمل له حياة طويلة وعمراً مديداً ، وكان « عمر » ـ خاصة ـ ممن يؤمل هذا الأمل .

و بعد أن مات النبي ، وأسلم آخر أنفاسه بزمن يسير ، دخل « عمر » مخدع « عائشة » فرفع الغطاء ـ الذى كانت جثة النبي مسجاة به ـ وتأمل محيا سيده مليًا ـ وهو فى نومته الأبدية ـ فرأى كل شيء هادئا ونظر إلى ما حوله ، فرأى سكونا طبيعيًا ، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع ، وصاح ـ :

« كلا لم يمت النبي ، بل هو فى غيبوبة ! »

وكان « المغيرة » حاضرا ، فحاول عبثا أن يرشده إلى خطئه ، فقد صرخ فيه « عمر » ـ :

« كلا ، بل تكذب ، إن رسول الله لم يمت ، ولكن خبث طويتك

(١) فصل آخر من كتاب : « الاسلام » لدوزى .

وفساد نفسك الشريرة ، قد أدخلا فى روعك هذا الوهم الخاطىء ، ولن يموت النبي قبل أن يقضى على المنافقين ، و يبيد أهل الشرك . »

ثم ذهب « عمر » من — توه — إلى المسجد ، فصاح فيمن تجمهر من الناس : —

« لقد زعم الزاعمون ، وأرجف المرجفون ، أن محمداً قد مات ، و بئس مايتقولون ، ألا إن محمداً لم يمت و إنما ذهب للقاء ربه ، كما فعل « موسى » إذ غاب عن قومه أربعين يوما ، ثم رجع إلى أصحابه — بعد أن يئسوا من عودته — ووالله ليعودن النبى كذلك ، ثم ليعاقبن كل من اجترأ على هذا القول ! »

ولم يكد يسمع الحاضرون قوله حتى أمنوا عليه ، ولاغرو فى ذلك ، فقد كانوا — إلى زمن يسير جداً — يرون محمدا فى نفس المكان الذى يخطبهم فيه « عمر » فلم يكن أحب من تصديق ما يقوله « عمر » .

وجاء « أبو بكر » فى هذه اللحظة فاخترق المسجد ، وأصغى هنيهة قصيرة إلى كلام « عمر » المتأجج عاطفة وحماسة ، ثم أسرع إلى مخدع « عائشة » ووقف أمام جثة النبي أيضا ، فرفع الغطاء عنها ، وقبل وجه صاحبه — وهو مستغرق فى نومته الأبدية — ثم صاح قائلا :

« طبت حياً وميتاً . »

ورفع رأس النبي بتؤدة وأناة ، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذي طالما تملى به من قبل ، ثم قال : —

« نعم ، لقد مت ، فوا أسفاه عليك أيها الصديق المحبوب ، بأبي أنت وأمي ، فقد قاسيت من غمرات الحمام ما قاسيت ، وتجرعت من غصص الموت ما تجرعت . وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذا الكأس مرة أخرى ! »

ثم وضع رأس النبي برفق — على وسادته — وقبل رفيقه مرة أخرى ، ثم سجاه بغطائه ورجع — أدراجه — إلى المسجد ، فوجد « عمر » لايزال يتأجج حماسة . وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت ، فصاح فيه — :

« حسبك ياعمر ؟ هدىء من ثائرتك واجلس حيث أنت ! »

فلم يصغ إليه « عمر » وطفق يخطب الناس ، فولى « أبو بكر » وجهه شطر الناس ، فأقبلوا عليه ، وتركوا « عمر » فقال لهم « أبو بكر » :

« أما قال تعالى — في محكم آياته — لنبيه : « إنك ميت وإنهم ميتون ؟ »

أما قال تعالى في آية أخرى — بعد موقعة أحد — :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ »

ألا إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيّ لايموت . ! »

* * *

وكأنما كان الناس فى حلم ، فأفاقوا منه بعد ماسمعوه من قول « أبي بكر » . فقد ذهل الناس من فداحة الخطب عن هذه الآيات القرآنية حتى إذا ذكرهم بها « أبو بكر » الرزين أيقنوا جميعاً أنهم لن يروا النبى بعد .

انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لابد من حلها ، وهى أن « محمداً » قد مات ، ولم يعين من يخلفه ، فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم . ولكن من الذى يعيِّن هذا الأمير ؟

أيعيِّنه كل المسلمين ؟ هذا حسن ، فهل من سبيل إلى تحقيقه ؟

لقد كان الوقت عصيبا ، وكان من السهل أن يرى الإنسان أمامه أزمة رهيبة وشيكة ، وجمهرة من القبائل لن تلبث أن ترتد عن الإسلام ؟ إذن يتعين أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التى لها الصدارة والسلطان بين قبائل العرب قاطبة ، وثم اجتمع الأنصار « أهل المدينة » الذين عز بهم الإسلام وانتصر ، فمن يختارون ؟

لامجال للتردد والحيرة ، فأمامهم الفارس النبيل « سعد بن عبادة » رئيس « الخزرج » ، وقد كان من الطبيعى المألوف أن يختاروه ـ ولم يكن حينئذ قد تم شفاؤه من مرض خطير كان قد ألم به ـ فحملوه مُدَثَّراً مُدَوَّجاً إلى جمهور المدنيين ـ وكان ضعيفاً من أثر المرض ، فلم يستطع إبلاغهم صوته ، فقام أحد أصحابه يردد مايقول .

وقد ذكر « سعد بن عبادة » أصحابه بأنهم أول من دخل الإسلام من القبائل ، وأن نصرته لم تتم إلا بهم بعد ، وأنهم لذلك

جديرون بالزعامة على العرب قاطبة ؟

فقابلوا كلامه بالاستحسان والتحبيذ ، وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة ، ونادوا به ــ فى الحال ــ خليفة لرسول الله ، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض المهاجرين هذا الرأى ، وعدم رضائهم عنه ، فأجابهم أصحابهم :

« لاعلينا من ذلك ، سنقول لهم حينئذ : « لقد اخترنا لنا أميراً ، فاختاروا لكم أميراً ، وافترقوا عنا ، فلن ندعن ــ بحال ما ــ لغير أميرنا الذى اخترناه . »

ولم يكد يبلغ « أبا بكر » هذا النبأ ، حتى أقبل عليهم بأقصى مافى قدرته من سرعة ــ ومعه عمر وأبو عبيدة ــ وما كادوا يصلون ، حتى انبرى « عمر » للكلام ، فمنعه « أبو بكر » ــ وله كل الحق فيما فعل ــ خشية من تحمسه واندفاعه ، وقال له :

« تريث حتى أتكلم ، ثم قل ماشئت بعدى ؟ »

* * *

وبدأ « أبو بكر » يخطب الناس ــ بكل تواضع ــ فاعترف للمدنيين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام ، ثم أظهر لهم ــ إلى هذا ــ جدارة المهاجرين بالخلافة ، لقرابتهم من الرسول وكونهم من أسرته ، ثم لأنهم أول من دان بالإسلام ، وقد لقوا فى سبيله ألوانا من العسف ،

وضروبا من النكال ، واحتملوا ذلك كله صابرين .

ثم قال :

« فأنتم تلوننا فى هذه المرتبة ، فليكن الأمير منا ، والوزراء منكم . »

فأجابوه :

« بل منا أمير ، ومنكم أمير ! »

فصاح « عمر » :

« كلا ، ومحال أن تولى أميرين ، ولن تعترف العرب بمن تختارون، فليس نبيهم من قبيلتكم ، ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريباً للنبى ، ومن رفض ذلك ، أرغمناه على قبوله إرغاماً . »

وحمى وطيس الكلام ، وكاد اللجاج ينقلب خصومة ، لو لم يقل لهم « أبو عبيدة » :

« لقد كنتم أول ناشر للإسلام ، وأول معين للنبى ، فلا تكونوا الآن أول ساع فى التفرقة ، وتشتيت الوحدة الإسلامية ! »

وهنا قام « بشير » ـ قريب « سعد » ومنافسه ـ فقررما للمهاجرين المكيين من الحقوق فى أعناق المسلمين ، فأثر كلامه فى نفوس فئة من الخزرج ، ولكن الأثر لم يبلغ أشده ، إلا فى نفوس القبيلة المدنية الأخرى ، وهى قبيلة « الأوس » بسبب ما كان بينها وبين قبيلة « الخزرج » من نفور قديم ، جعلهم لايرتاحون إلى « سعد » ،

ولا يرضون به أميراً عليهم ، وكانوا ـ منذ لحظة ـ يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة ، فلما سمعوا كلام أبي عبيدة ثبتوا على رأيهم وظاهروا المهاجرين على الأنصار .

وبذلك سنحت فرصة ملائمة ، فأسرع « أبو بكر » إلى انتهازها وأمسك بيده ـ عمر وأبا عبيدة ـ داعياً المدنيين إلى اختيار واحد منهما لمبايعته بالخلافة ، فصاحا فى نفس واحد :

« بل أنت خير منا ، فامدد يدك نبايعك ، ونقسم لك على الخضوع والطاعة » .

وامتدت بين يديهما يد ثالثة إلى يد أبي بكر ، وهي يد « بشير » الذى أسرع بمبايعته معهما ، ثم نهج « الأوس » منهجه ، وأقبل المسلمون يبايعونه أفواجاً ، واشتد الزحام ، وعلت صيحات الفرح ، فاختلطت بأصوات الدهشة ، وأراد « حباب » الخزرجى أن يناوىء الدعوة ، فصرخ مهدداً بالحرب ، واستل سيفه ، فانتزعه « عمر » من يده .

ورأى « سعد » آماله فى الخلافة تتبدد هباء . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد أصبح « سعد » نفسه فى خطر حين تكأكأت عليه الجموع ، فكادت تسحقه ـ وهو فى محفته التى كان محمولا عليها ـ وعبثا حاول أصحابه أن يقنعوا جمهرة المسلمين بوجوب احترامه ،

فإن « عمر » نفسه لم يتورع عن إهانته ، ووصـفه بأقبح النعوت ــ على الرغم من أنه خصم أعزل جليل القدر ــ وقد تداركه « أبو بكر » فصد هذه الجموع عنه ، وأنقذه من أذاهم وشرهم .

* * *

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة ــ خليفة النبي ــ وسط هذه الفوضى الشاملة ــ كما اعترف بهذه الحقيقة « عمر » نفسه ، على ملأ من الناس في المسجد المدني فيما بعـد . وقد كسب المكيون بهذا الفوز أمرين : « زعامة العرب ، وحسن اختيار الخليفة » .

فقد ولوا أمورهم رجلا كان أخلص صديق لنبيهم ، ولو ترك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول ، فقد لا يختار سواه ، ذلك أنه جمع ــ إلى حبه الرسول ــ متانة الإيمان ، وقوة اليقين ، وصدق العزيمة في إعزاز الإسلام ونصرته . وبهذه الصفات نجح « أبو بكر » في التغلب على المصاعب والعقبات التي كانت تكتنفه . وفي الحق أن الوقت كان عصيبًا ، وكانت الظروف غاية في الحرج ، فقد كان موت النبي ــ الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر ــ مؤذنا بالثورة في كل مكان ، ولقد كنت ترى الثائرين ــ حيثما ذهبت ــ رافعين علم الثورة والتمرد ، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان ، حتى لقـد طردوا

ولاتهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم .

وكان لا يمر يوم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به ، بعد أن أرسل جيشه إلى « سوريا » ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي — برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم .

« لن أخالف ماأمر بهالنبي؛ ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين ، ولابد لى من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم باديًا ، علىأنه — على الحقيقة — خطرأقل مما تدل عليه ظواهره ، فإن قوة الخصم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدة ورجال ، بل بما عنده من قوة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها ، باذلا فى سبيلها النفس والنفيس .

فما هى الغاية التى يسعى إليها الثائرون ؟ وأى حافز يدفعهم إلى إضرام الحرب ؟

أهو إيمان وثيق متوشج فى أعماق قلوبهم ، كإيمانهم القديم الذى

كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك ، لما كان ثمة شك فى انتصارهم الحاسم ! .

ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فإنهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوى الذى يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الإتيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذى يخلق البطولة والأبطال ، فقد كان رؤساء القبائل المتمردة – أنفسهم – شاعرين كل الشعور ، بضعف المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخيل إليهم أن « محمدا » لم ينجح إلا بهذه الفكرة ، فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمراً واحد – هو سر نجاحه فى بث دعوته – ذلك أنه كان مؤمنا بمايدعو إليه إيمان المستيقن الجازم ، وهذا هو الذى يعوزهم و بغيره لا يتم نجاح .

وكانت تلك الثورة الهائلة ، وتلك الحرب الشعواء – على ما أريق فيهما من دماء غزيرة – إذا قورنت بما أتاه المسلمون فى غزواتهم التى عز بها الإسلام – ظاهرة سخيفة مضحكة ؛ يتمثل فيها الإنسان – عن غير

قصد – كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية التي مثلها النبي وأصحابه مهزلة وعبثاً !

ألا ترى « مسيلمة » الذى مثل دور النبي فى اليمامة ؟

ألا ترى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لايصلح لغير التدجيل و إدخال بيضة فى زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا تراه ينشىء قرآنا سخيفاً يقلد به محمداً ، ثم يرخص لأتباعه فى شرب الخمور أنى شاءوا، ولا يكاد ينشر دعوته ، حتى يصادفه سوء الحظ ،فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

***

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت فى «بلاد النهرين» وجاءت تبث الدعوة لنفسها – على رأس جيش عظيم – فماذا يصنع « مسيلمة » ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة – وقد فعل – فأرسل إليها هدايا فاخرة ، ودعاها إلى محادثته ، وطال بينهما الحوار [1] .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها فى « مسيلمة » فقالت لهم : –

---

(١) لهذه المحادثة التي أقنع بها مسيلمة سجاحا بنبوته قصة طريفة يعرفها أكثر القراء ولا حاجة لذكرها فى هذا المقام . « المترجم »

« لقد رأيته نبيًا حقا فتزوجت منه ! »

فسألها التميميون :

« وهل أهدى إلينا شيئا من مهر الزواج ؟ »

فقالت : « لا » . فقالوا لها :

« عار علينا أن تزوج نبيتنا بلا مهر ! ولن تقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليـه بذلك – وكان مسيلمة خائفا متحصنا – فلما جاءه الرسول لم يأذن له ، حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله ، فاطمأن إليه ، وقال له :

« عد إلى قومك ، فأخبرهم أن « مسيلمة بن حبيب » رسول الله قد رفع عن التميميين – من الصلوات الخمس – صلاتى الصبح والعشاء »

ولقد فرح التميميون بذلك ، وساروا عليه حتى بعـد أن عادوا إلى الإسلام من جديد .

* * *

ومن ثم ترى أن هؤلاء التائبين ، ليس لهم عقيدة جـدية يدافعون عنها ، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبى بكر وثيق الإيمان قوى الإرادة ، صلب العزيمة ، لايعرف هوادة – فى إرغام أنوفهم – ولا رحمـة ! ولو شاء «أبو بكر» أن يهادنهم ، لتنازل لهم عن قليل من مطالبه ، فـكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل – أو ضمن حيادهم على الأقل – فقد

وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم . على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم ، فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم [١] :

« إن الإسلام قانون واحد لايتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الإصرار الحازم ، وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سبباً فى منحه قوة أكبر مما نتصور .

* * *

ولم يكد ينتهى من إخضاع القبائل المجاورة له ، حتى بدأ يهاجمه « طلحة » الذى كان بطلا من قبل ، وقد جاء يدعى النبوة كغيره ، ثم يجبن عن دخول المعركة ، فيرقب الحرب ـ وهو بعيد عن الميدان ـ مدثراً فى عباءته ، كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء ، أوتحدث معجزة

---

(١) قال له « عمر » :

« أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله . فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ! »

فقال له « أبو بكر» : « ألم يقل «إلا بحقها ؟» وهذه الزكاة من حقها والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة ، وقد جمع الله بينهم ، والله لومنعونى عقال بعير ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لقاتلتهم عليه . » (المترجم)

خارقة ، وقد ترقب ذلك زمناً طويلا ، ثم وقعت المعجزة ـ إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام ـ وحينئذ صاح فى جنده :

« احتذوا حذوى إن استطعتم . »

ثم امتطى جواده ، وأطلق له العنان ، وأمعن فى فراره .

* * *

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون ، معركة مروّعة هائلة ، وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب ، كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت فيما بعد بين المسلمين والفرس ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب « حرب الردة » شُنُعاً لم يعرفها الإسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به ، لأن الردة جزاؤها القتل ، لاهوادة فى ذلك ، ولا رحمة . وقد بعث « أبو بكر » إلى « خالد » يأمره بقوله :

« عليك بإبادة الكفرة بالحديد والنار ، ولا تأخذنك فيهم رحمة قط . »

* * *

ولقد انهزم أصحاب «مسيلمة» ـ وكان عددهم زهاء عشرة آلاف

مقاتل ـ ومزقهم المسلمون شر ممزق ، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء !

ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك ـ الناشبة في كل مكان ـ مؤيداً منصوراً ، ودان به العرب بعد ذلك ـ طوعا أو كرها ـ فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الإسلامي ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن ، فاعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لاتجدي معها أي مقاومة .

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار « أبي بكر » حتى وجه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس والإمبراطورية الرومانية ، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها جرأة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل .

وإنما سار « أبو بكر » فى هذا على خطة النبي التى كان يتبعها ، وهى أن يشغل العرب عن التفكير فى خضوعهم ، ولا يدع لهم وقتا كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير مايربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية ، وما يجره ذلك من الغنائم .

***

وهكذا انتهت حروب الردة ، ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد . ونحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين ، ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية فى القلة ، أما العرب الذين استوطنوا أفريقية ، فقد ظلوا — حتى بعد مضى قرن من الهجرة — لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر ، فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط ، وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية ، وعهودها الطيبة بالثناء والحنين .

***

ولما انتصر العرب على الفرس فى موقعة « القادسية » (٦٣٥ م) وأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم ، بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد ، فكتب الخليفة « عمر » ـ أمير المؤمنين حينئذ ـ يأمر القائد بتوزيع باقى الغنائم على من يحفظ أوفر قسط من القرآن .

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز ، فسأل « عمرو بن معد يكرب » النبيل عما يحفظه من القرآن فأجابه :

« لا شىء ، لأننى دنت بالإسلام فى بلاد اليمن ، ثم صرفتنى الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به » [1]

فالتفت القائد إلى « بشر بن طائف » يسأله ، فكان جوابه :

« ليس حظى من ذلك بأوفر من حظ عمرو : « بسم الله الرحمن الرحيم »

---

(١) وفى هذا يقول « عمرو بن معد يكرب » :

« نعطى السوية فى طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطي الدنانير »

« المترجم »

وقد كان هذا هو كل ما يحفظه من القرآن ! .

***

زد على ذلك ، أن الإسلام ـ وإن لم يلق معارضة قوية فى أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة ـ فإن سراة مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هـذا الفوز الذى أحرزوه ، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذى أراد الموحدون أن يبسطوا ظله عليهم .

ولقد كانت تقوم المنازعات بين الشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة . وهى ـ فى حقيقتها وجوهرها ـ غير ذلك ، فقد كان يتخذ النزاع غرضا يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكأة يبرر بها غايته من الشغب .

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان ـ ثالث الخلفاء ـ حين تولى الخلافة بعد وفاة « عمر » (٦٤٤ م) وكانت سن « عثمان » حينئذ سبعين عاماً . وكان حليما لين العريكة ، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بنى أميـة ، أى أنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا « محمداً » العداء عشرين عاما ، ثم أسلموا ، فكان فى إسلامهم مجال واسع للظنون والحذر ، ولقد نالوا بفضل « عثمان » أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل خليفتهم الشيخ المسن « عثمان » .

ثم ولى الخلافة بعده « على » ابن عم « محمد » ولكن لم يتم الاعتراف به فى كل مكان، فقد هبت « سوريا » متحمسة إلى امتشاق الحسام — وعلى رأسها واليها « معاوية بن أبى سفيان » — وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام ، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم ، على أن المسلمين حقا لم يخضعوا لهم ، فقد أشعلوا نيران الحرب — من جديد — فى زمن « يزيد الأول » ابن معاوية الذى ولى الخلافة من بعده . ولقد قام « الحسين » — وهو الابن الأصغر لعلى — يطالب بالخلافة ، ولكنه صرع هو وفئته القليلة التى كانت تناصره فى موقعة « كربلاء » [١] ومن ثم قام « عبد الله بن الزبير » — وهو ابن صحابى من صحابة الرسول — إلى « مكة » رافعاً علم الثورة ، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة ، ولا يلتفت إليه استصغاراً لشأنه . ذلك أنه لما يغادر « مكة » إلى غيرها من البلدان ، فلم ير له الخليفة خطراً يستحق أن يناوئه من أجله . ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه ، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل — بلا حاجة — فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء فى بقاع كانت — حتى

---

(١) وفى ذلك يقول « الكميت » :

« يحلئن من ماء الفرات وظله « حسينا » ولم يشهر عليهم منصل
كأن حسينا والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلى المبقل ! »

« المترجم »

فى زمن الوثنية ـ حرماً مقدساً لا يمسه أحد بسوء .

ولكن لكل شىء حدا ، فقد صبر « يزيد » حتى عيل صبره ، فلما لم يبق فى قوس الصبر منزع ، طلب إلى « عبد الله بن الزبير » ـ للمرة الأخيرة – أن يبايعه ، فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم إنه لن يقبل من هذا الثائر طاعة حتى يؤتى به بين يديه مكبلا بالأغلال . ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه – وكان طيب السريرة – ففكر فى وسيلة يبر بها فى قسمه دون أن يمس كبرياء « عبد الله » ـ ثم استقر على أن يرسل إليه غلا من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها ـ إذا شاء ـ وبعث إليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة ، فساروا من مقر ملكه « دمشق » حتى بلغوا « مكة » ولكن « عبد الله » رفض ـ بطبعه ـ أن يقبل تلك الهدايا ، وعبثا حاول الرسل أن يتوصلوا إلى اقناعه وإنزاله عن رأيه . فقد أصر « عبد الله » على عناده، لأنه كان يعتقد أن كائنا من كان لن يفكر ـ بحال ما ـ أن يلجأ إلى العنف والشدة معه وهو فى تلك البقاع المقدسة ، وكان هذا سر طمأنينته ، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل .

على أن « عبد الله » لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته ، فقد سبقه إلى ذلك ثوار « المدينة » . وكانت روح الشر مهيمنة عليهم

فى ذلك الحين ، فقد وقعت بينهم وبين الوالى ـ حينئذ ـ خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضى ، وأراد الوالى إزالة أسباب الخلاف ـ وكان ابن أخت الخليفة يزيد ـ فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة ، فلما ذهبوا ، قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة فى أن يستميلهم إليه ، ولكن «يزيداً» كان ـ على أدبه ونبله ـ غير مشبع بروح احترام الدين الذى كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم ـ فبدرت منه آراء ـ عن غير قصد ـ صدمت بعض أصول الدين التى يقدسها أهل المدينة ، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بالخليفة ويذمونه عند مواطنيهم متأثرين بعامل الغضب وقالوا لهم :

« إنه يشرب الخمر ، ويعزف على الأوتار ، ويصرف نهاره بين كلاب الصيد ـ وقد كان « محمد » يمقت ذلك أشد المقت ـ فإذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق »

يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم « يزيد » وترعرع ، فلما كبر أدناهم من مجلسه .

* * *

وزادوا على ذلك أنه لايصلى قط ، وأنه جاحد ، وعزوا إليه ـ فوق هذه التهم التى بنوها على أساس واه أو متين ـ تهما أخرى لا أساس لها ولا وجود ، وإن كان ذكرها مما يثير فى نفس خصومه من أهل

المدينة حفائظ وأحقادا بعيدة الأثر .

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلصق بكل أموى . ومن ثم انقلب المسجد مسرحا عجيبا تصب فيه اللعنات على « يزيد » وأتباع « يزيد » واجتمع أهل المدينة قاطبة – وهم صاخبون – فشرع كل واحد منهم يتجرد من شيء من ملابسه فيلقى به صائحا :

« إنى أخلع يزيد كما أخلع قبائى هذا . »

أو « عمامتى »

أو « نعلى »

ثم طردوا كل من فى المدينة من الأمويين وصدوا عن تعيين خليفة جديد لهم ، فقد كان القرشيون الذين فى المدينة لايحبون أن يعترفوا بأهلها ، كما كان أهلها كذلك لايحبون أن يعترفوا بهم ، فقر رأيهم على أن يتريثوا فى تعيين الخليفة حتى يتم خلع « يزيد » !

واستحوذ عليهم عداء جنونى ــ لايحدوه رشد ــ فلم يتبصروا عواقب هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الإمبراطورية الإسلامية العظيمة كلها .

ولقد حاول عبثا أحد المدنيين ــ وكان قد عاش فى بلاط الخليفة ، ثم أوفده سيده إلى المدينة ــ أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه ولكن

الغضب أعماهم فأصبحوا لايعيرون الناصحين التفاتا ولا يصيخون إلى أية موعظة تقدم إليهم بحسن نية .

* * *

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة ، فأرسل إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى « مسلم » وكان « مسلم » أقرب إلى الوثنية منه إلى الإسلام ـ فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها ، فإذا أبوا أن يخضعوا ـ بعد ذلك ـ هاجمهم ودمر مدينتهم تدميراً فى ثلاثة أيام أخرى ، ثم أخذ على من فيها المواثيق بأنهم عبيد « يزيد » وأمرهم أن يقسموا على ذلك فإذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته .

ولم يكد يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أنفة من الخضوع وأعدوا عدتهم للقاء العدو ، وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين ـ وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٣ م ـ وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة ، وكان أهل المدينة متحمسين يذكى فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون ، وأن أعداءهم ـ من جيش سوريا ـ هم عند الله كالوثنيين سواء ـ وكانوا على يقين من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وباءوا بغضب من الله ، أماهم

فإنهم سالكون ـ بلا شك ـ مسالك الشهداء والأبرار .

وبقى مصير الحرب معلقا فى كف الأقدار زمناطويلا ، حتى كشفت الخيانة عنه ، فقدارتشت أسرة من المدنيين ففتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيش العدو ، فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم ـ فجأة ـ صيحات النصر من أفواههم ، فضاع كل أمل لديهم فى الفوز والغلبة ، وأصبحت المدينة فى قبضة العدو ، وصار كل هجوم عبثا أومستحيلا ، على أن جمهرتهم لم تفكر فى الخطر المحدق بها فهجم أهل المدينة على أعدائهم فرادى و باعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به !

وكان من بين القتلى سبعمائة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة ، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبى قد حارب ـ بعد أن نصروه فى حرب بدر على المكيين حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم .

ودخل « المدينة » فرسان « سوريا » فلما لم يجدوا مكانا يربطون فيه خيلهم ربطوها فى مسجد المدينة ـ بين قبر النبى ومنبره ـ أى فى نفس المكان الذى طالما سماه النبى نفسه : « جنة من جنان الفردوس »

* * *

ثم نهبوا المدينة فى ثلاثة أيام وسبوا كل من فيها من نساء وأطفال ،

ولم ينج أحد ممن بقى من أهلها ـ وقد فر أكثرهم ـ إلا بعد أن أقسم أن يكون عبداً من عبيد « يزيد » . وهكذا أقسموا جميعاً على أن يكون الخليفة « يزيد » سيدهم ومولاهم ، وأن يكون فى حل من التصرف فيهم بما شاء ، من عتق أو بيع ، كما أقسموا أن يكون له الحق فى كل ماتملك أيمانهم من نساء وأولاد وأزواج .

ولما رأى أبناء مؤسسى الإسلام أنهم مضطهدون معذبون وأن بنى أمية قد أرهقوهم إرهاقا ، لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا المهاجرة ، فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش إفريقية ، ثم انضم أغلبهم ـ فيما بعد ـ إلى جيش العرب فى أسبانيا .

وكان « مسلم » مكلفا أيضا بإخضاع « مكة » . ولكن الموت عاقه عن تحقيق إربته ، فأخذ « الحصين » ـ وهو أحد رجال جيشه ـ على عاتقه أن يحقق ذلك ، فتولى قيادة الجيش ، و بدأ يحاصر « مكة » و يقذف الكعبة بالحجارة والصخور ، حتى حطم عمدها وقواعدها ، ثم نجح أخيراً فى إحراقها جملة ، ولقى الحجر الأسود فى هذه المرة أول نكبة حاقت به ، لأنه لم يطق مقاومة النار ، فتحطم أر بعة أجزاء .

على أن « مكة » لم يتم إخضاعها ، فقد حال دون ذلك موت « يزيد » وما أعقبه من الفوضى التى اضطرت الجيش إلى رفع الحصار والرجوع بالجيش توا إلى « سوريا » . و بهذا استعاد « عبد الله بن

الزبير » قوته ، واستتب له أمر الخلافة فى « مكة » وخارجها أيضا .

ولكن الأمويين مالبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة « عبد الملك » وخضعت البلاد كلها له ، ولم تبق إلا « مكة » وحدها ثائرة ، وفيها « عبد الله بن الزبير » فلما رأى « عبد الملك » ذلك وجه إليها جيشاً بقيادة « الحجاج » . فذهب إلى تلك البقاع المقدسة . وحاصر المدينة . وطفق يرمى الكعبة بالصخور والحجرة ليدكها دكا ، وبينما كان يقذفها بالنار – ذات يوم – هبت عاصفة شديدة. فأحرقت النار اثنى عشر جنديا ، فرأى الجيش فى ذلك عقابا من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس ، فأحجم رجال « الحجاج » وكفوا عن ذلك .

* * *

فاغتاظ « الحجاج » وخلع بعض ملابسه ، وتقدم إلى المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه . ثم حرك حباله بعد ذلك ، وهو يقول .

« لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ما حدث هو مافهمتموه ، ألا إنى لخبير بطبيعة هذه البلاد ، ففيها ولدت ، وكم رأيت هذه العاصفة أشباها لاتحصى ! »

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر ، ثم أخذت بعد أن مات « عبد الله بن الزبير » سنة ٦٩٣ م .

وهكذا لم تهدأ ثائرة هذه الفئة المناوئة للإسلام ولم تثلج صدورهم إلا بعد أن تمت لهم الغلَبة على أنصار هذا الدين وظفروا بتقويض معالمه وإذلال أهل المدينتين المقدستين ، وتحويل مسجد المدينة إصطبلا لخيلهم وإحراق الكعبة ، وتحقير سلالة المجاهدين الأولين الذين عَزّ بهم الإسلام وانتصر .

* * *

وقد عرفت تلك الأقلية العربيـة — التى اضْطُرّت إلى الإسلام اضطرارا وأكرهت على الدخول فى هذا الدين إكراها — كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضتهم ثمن ذلك الفوز مضاعفا وشفت به غلة صدورها المكلومة .

أنصار الرجعية

ولم يكن عهد الأمويين إلا عهداً تتمثل فيه الرجعية والانتصار للوثنية ، وكان خلفاء بنى أمية أنفسهم – إلا القليل النادر منهم – لا يعنَوْن بنُصرة هذا الدين ولا يخلصون له . وقد تجاوز الوليد الثانى ـ وهو أحد هؤلاء الخلفاء ـ كل حد فى الإزراء بهذا الدين ، وطوح به استهتاره إلى أبعد مَدى ، فاعتاض عن صَلاة الجماعة بِصِلاتِ جواريه، ومغازلة سراريه ، ولم يحجم عن تخريق كتاب الله بالنشاب (١) ولم يكن راضيا عن إسلام الشعوب الجديدة التى دخلت فى هذا الدين أفواجاً من سوريين وأقباط وفرس وبربر شمال إفريقية، لأنه كان يرى فى ذلك شراً مستطيراً على خزانة الدولة ، فقد كان القانون يفرض الضرائب على غير المسلمين الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامي ، فإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية وأعفوا من أداء تلك الضريبة التى فرضها عليهم القانون .

وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام ، وشجع الناس على الدخول فى هذا الدين ، وتغلبت المصلحة على العقيدة ودان بالإسلام ملايين من الناس الذين آثروا المال على كل شيء .

---

(١) ارجع إلى «مصرع الوليد» فى كتابنا «مصارع الخلفاء» . «المترجم»

والحق أن انتشار الإسلام بين هذه الجماهير والشعوب قد رهق بيت المال ، فقل الإيراد حتى اضطر الخليفة إلى مضاعفة الجزية تقريباً ، فقد كان الخراج فى مصر فى عهد الخليفة « عثمان » أكثر من نصف ما وصل إليه بعد زمن قليل فى خلافة « معاوية » وكان السبب فى ذلك أن جمهرة كبيرة من الأقباط دخلوا فى الإسلام ، وكان فريق منهم يتظاهر بالإسلام من غير أن يعتقده ، وفريق آخر ارتضاه ديناً له هرباً من دفع الجزية المفروضة عليه ، وثمة رأى الخلفاء ألا يعفوهم من تلك الضريبة متعللين بأنهم لم يدخلوا حظيرة هذا الدين إلا طمعاً فى إعفائهم منها ، وأنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه .

عمر بن عبد العزيز

ولم يشذ من بين هؤلاء الخلفاء إلا الخليفة « عمر الثانى » ـ عمر بن عبد العزيز ـ ذلك المسلم الورع التقى الذى آثر نصرة الإسلام على كل شىء ، والذى احتقر المال ، وزهد فيه كل الزهد ، بعد أن امتلأ قلبه بالإيمان ، فأصبح لا يهمه إلا أن ينتشر الإسلام ويدين به كل إنسان . ولم يكن عماله يرتضون النزول على هذا المبدأ الجديد لأنه يهدم النظام الذى ألفوه ، ويقوض صرح بيت المال .

وقد كتب إليه أحد عماله ـ فى هذا المعنى ـ يقول :

« لو دامت الحال على هذا المنوال لدان بالإسلام كل مسيحى ، ولم يشذ منهم أحد ، وبذلك تفقد الدولة كل دخلها . »

فأجابه « عمر » :

« لو تم ذلك لتمت لى أسباب السعادة كلها ، فليست لنا غاية نسعى إليها إلا نشر هذا الدين بين الناس كافة ، وقد بعث الله نبيه مبشراً بالإسلام وداعياً إليه ولم يبعثه محصلا للمال ، ولا جابيا للضرائب . »

وهكذا أجاب عامله كما أجاب عامل « خراسان » الذى شكا إليه إقبال الفرس على هـذا الدين لا عن رغبة فيه ، بل فراراً من دفع

الضرائب ، وآية ذلك أنهم يدخلون الإسلام ولا يختتنون .

فأجابه « عمر » :

« لقد أرسل الله نبيه ليهدى الناس إلى الدين الحق ، ولم يرسله ليفرض عليهم الختان . »

وهو بهذا لم يكن صارما فى تطبيق أصول الشريعة ، ولم يكن يجهل أن أكثر من دانوا بالإسلام كان ينقصهم الإخلاص والصدق . ولكنه على ذلك كان يرى — وهو على حق فيما رآه — أن أبناء هؤلاء المتظاهرين بالإسلام وأحفادهم سينشئون فى ظل الإسلام والمسلمين . ويشبون فى أحضان هذا الدين ، وتشربه دماؤهم فيصبحون مسلمين يخدمون الإسلام وينصرون كلمته ، وربما ظهر منهم من هو خير من المسلمين أنفسهم .

قواعد الاسلام

أما سواد هؤلاء الذين دخلوا فى الدين أفواجا ، فقد كان فى عهد الأمويين لم يتعد أولى مراتب هذا الدين وهى الإسلام فإن لهذا الدين ثلاث مراتب يفسرها الحديث المأثور عن النبى .

فقد حدّث : أن « جبريل » جاءه ــ ذات يوم ــ فى زى عربىّ ، وحياه وجلس إليه ، وأدنى ركبته حتى مست ركبة النبى ، وسأله :

« ما الإسلام يارسول الله ؟ » (١)

---

(١) عن « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه قال :

« بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ذات يوم ــ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد ، أخبرنى عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . »

قال : « صدقت » .

قال : « فعجبنا منه يسأله ويصدقه . »

قال : « فأخبرنى عن الإيمان . »

قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . »

فأجابه « محمد » (ص) :

قال : « صدقت »

قال : « فأخبرنى عن الإحسان »

قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فانه يراك . »

قال : « فأخبرنى عن الساعة »

قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . »

قال : « فأخبرنى عن أماراتها »

قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيب ، ويعلم مافى الأرحام » .

ثم أدبر ، فقال « ردوه » . فلم يروا شيئا . فقال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

***

وفى بعض روايات الحديث : « بينما نحن ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، فقال : ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث ، قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ، ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تره فانه يراك ، قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ، إذ ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لايعلمهن إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام ، ثم انصرف الرجل ، فقال ردوه على ، فلم يروا شيئا ،

فقال هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم . »

والمعنى أن جبريل عليه السلام جاء وتخطى الناس حتى انتهى إلى النبي عليه السلام، وجلس كهيئة المتعلم بين يدى من يتعلم منه تأدبا ، أو فعل ذلك من باب المبالغة فى فى تعمية أمره على الحاضرين حتى يظنوا أنه من جفاة الأعراب ، ولذلك استغربوا منه أنه تخطى الناس . وأنه جاء ماشياً وليس عليه أثر السفر مع أنه ليس من أهل البلد ، وقد نظر بعضهم إلى بعض حين رأوه فقالوا: « مانعرف هذا » والمقصود من هذه القصة أن يسأل جبريل ويجيبه النبي عليه الصلاة والسلام ليتعلم الصحابة أمورا هى جملة الدين وجماعه ، وذلك لأنه بدأ أولا بسؤاله عن الإيمان ، ومعلوم أن الايمان هو التصديق بوجود الله تعالى ، وأنه لا يجوز عليه العدم ، وأنه موصوف بكل صفة من صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة منزه عن أضداد هذه الصفات ، وعن الجسمانية والتحيز ، وعن كل صفات النقص ، وبأنه سبحانه واحد فرد حق صمد، وأنه خالق جميع المخلوقات يتصرف فيها بما شاء من التصرفات ، يفعل فى ملكه مايريد ويحكم فى خلقه ما يشاء ، ثم التصديق بجميع الملائكة تفصيلا بمن عرف تعيين أسمائهم ، وإجمالا بمن لم يعرف اسمه ، وكذلك التصديق بجميع الرسل تفصيلا بمن علمنا اسمه ، وإجمالا بمن لم نعلمه ، واعتقاد أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى ، وأنه أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه للخلق ، وأنهم بينوا للمكلفين ما أمرهم ببيانه ، نؤمن بهم جميعاً ولا نفرق بين أحد منهم ، ونصدق بلقاء الله تعالى ورؤيته فى الآخرة ، وبالبعث ، وبالقدر خيره وشره . هذا هو الايمان فالايمان هو الاعتقاد بالباطن ، والتصديق الجازم بأصول الشريعة الاسلامية ، وقواعد الشرع الشريف ، فهو يتعلق بأعمال القلب . أما الاسلام فهو الانقياد وامتثال الأعمال الظاهرة المتعلقة بالجوارح كالصلاة بما فيها من خشوع القلب والجوارح وكالزكاة والصيام والحج ،

الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . »

والحديث قد فرق بين حقيقة الايمان والاسلام كما فرقت بينهما الآية في قوله تعالى « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » على أن الاسلام الذى هو اسم للأعمال الظاهرة ، والايمان الذى هو إسم للاعتقادات الباطنة كل منهما بما يتناوله ويشتمل عليه يصح أن يطلق عليه اسم الآخر وهما معا بكل ما يصدقان عليه من أعمال واعتقادات كالأجزاء التفصيلية التى تتركب منها جملة الدين وبها يكون جماعه وقوامه ، ولهذا جاء فى الحديث : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم . »

(والاحسان) من أحسنت العبادة إذا حسنتها وكملتها وذلك أن العبد إذا قوى إيمانه تمثل دائما عظمة المولى ، وأيقن أنه مطلع عليه فى كل أحواله شهيد على عمله فى كل وقت ، فاذا هم بفعل معصية من المعاصى على إختلاف أنواعها ، علم أن الله يراه على أى حالة ارتكب فيها المعصية وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فيكف عن المعصية ويرجع عنها لقيام الدليل اليقينى الذى يجعله يحس فى قرارة نفسه أن الله تعالى موجود حق وأنه ناظر إليه فى كل عمله وفى كل ما يصدر منه من حركة أو سكون فيحول علمه بذلك بينه وبين جميع المنكرات ، وكذلك لا يستطيع أن يترك العبادات الواجبة عليه تهاونا بها فان المضيعين للفرائض إنما ضيعوها لجهلهم بمقام الألوهية وعدم معرفتهم بقدر الآمر وقدر الأمور ، وجحدهم وعدم إقرارهم بالربوبية ، ولذلك يقول الحديث أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تره فانه يراك أى تعبده عبادة من يرى الله تعالى ويراه الله تعالى ، ومن هذه حاله وتلك صفته مادام فى عبادته لا يترك شيئا من الخضوع والاخلاص وحفظ القلب والجوارح ومراعاة الآداب إلا فعله ، وفى الحديث أيضا الايمان بالغيب ، وباليوم الآخر . والسؤال عن الساعة ، وبيان شىء من أشراطها وعلاماتها ، فأصبح هذا الحديث — بما اشتمل عليه — كالجامع لعلوم الشريعة كلها . «المترجم»

فقال له :

« صدقت ، وما الإيمان ؟ »

فقال له :

« الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقضائه فى الخير والشر »

فقال له :

« صدقت ، وما الإحسان ؟ »

فقال له :

« هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن كنت لاتراه فإنه يراك . »

* * *

وثمة ترى أن الإسلام يدل على إيمان خارجى بحت ، وهو مراعاة قواعده الخمس الجوهرية .

وقد كان المسلمون فى عهد بنى أمية قد وصلوا إلى هذه المرتبة ، على أن كثيراً منهم كان يؤمن بالله ، ولكنه ينكر الوحى .

وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله :

« قالت الأعراب : آمنا ، قل[1] : لم تؤمنوا ولكن قولوا :

---

(١) لا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن القرآن هو كلام الله وأنه جعل الجواب على لسان نبيه « محمد » (ص) « دوزى »

أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »

وعلى كل خلاف فى ذلك بين العرب وخلفائهم وعلى مابذلوه من جهد قليل فى نشر هـذا الدين للتغلب على عادتهم فى محاربة انتشاره وإذاعته ، بدلا من الترويج له ، فإننا نرى أن الإسلام قد انتشر بسرعة مدهشة بين تلك الشعوب التى غزوها ،وهذه ظاهرة لم ير لها العالم مثيلا من قبل ، وهى تبدو ـ لأول وهلة ـ لغزا مستسرا لاسبيل إلى حله وتعليله ، لاسيما إذا عرفنا أن هذا الدين الجديد لم يُكرِه أحداً على الدخول فيه .

وقد كان « محمد » (ص) يأمر بالتسامح والإغضاء ، وقد وضع للمسلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدن به من أهل الكتب المنزلة من يهود ونصارى ، فمنحهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا مافرضه عليهم من الجزية ، وزاد فى تسامحه فمنح هذه الميزة لمن يقطنون إقليم البحرين من المشركين

وجاء من بعده « عثمان » فخطا خطوة جديدة أخرى ، فاعتبر بربر شمال افريقية كاليهود والنصارى وسكان إقليم البحرين .

ولسنا نعرف – على الحقيقة – شيئا عن ديانة هؤلاء البربر القديمة إلا معلومات تافهة ضئيلة لاتغنى شيئًا ، ولن نعدو الصواب إذا قلنا إننا نجهل كل شىء عن هذه الديانة القديمة .

على أننا إذا أخذنا بالحكم على طبع الشعب وخلقه واتخذنا من ذلك مقياساً للحكم على ديانته استطعنا أن نستنتج أن ديانة البربر القديمة كانت أقرب الى أن تكون كهنوتية منها الى أن تكون إلهية .

ومهما يكن من أمر . فليس ثمة مجال للشك فى أن البربر لم يكونوا أهل كتاب مقدس قط . وعلى هذا نرى — فى جلاء ووضوح — أن التسامح الدينى قد وصل فى هذه الطريق إلى آخر مداه . إن لم نقل إنه أربى على ما كان يرمى إليه النبى .

أضف إلى هـذا أن الحكم الإسلامى كان يتوخى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة لاسيما النصارى . فقد كان سواد المسيحيين فى الشرق ينتمى إلى مذاهب لقيت من اضطهاد حكومة القسطنطينية وإعناتها ما أرهق أصحابها إرهاقا . فلما جاء الإسلام — ومن طبيعته التسامح والإخاء — ترك لهم الحرية التامة فى البقاء على دينهم ماداموا يؤثرونه على غـيره من الأديان ، وظللهم بحمايته ، وسوى بينهم فى الحقوق ، على اختلاف مذاهبهم وشتى نِحلهم .

ولا تنس أنهم كانوا مضطرين الى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الرومانى ، فلما جاء الإسلام أعفاهم منها ، ولم يفرض عليهم إلا جزية معتدلة لا ترهق أحداً . ومتى عرفت هـذه الأسباب زالت دهشتك وعجبك من إيثارهم حكم المسلمين على حكم الرومان واندفاعهم الى مساعدة العرب فى فتوحاتهم بكل قلوبهم وقواهم بدلا من مناوأتهم والتألب عليهم

أسباب انتشار الاسلام

وإذا كان ذلك كذلك ، فما بالهم لم يبقوا على دينهم ؟ وأى شىء حفزهم إلى الدخول فى هذا الدين الجديد من غير أن يكرهوا على الدخول فيه ، وهم يعلمون أن إسلامهم لا يرتاح إليه ملوكهم ؟

لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هـذه النتيجة ، وقد ألمعنا ـ آنفا ـ إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا ، لأن إعفاءهم من الجزية ـ على اعتدالها ـ كان مما يرغبهم فى الإسلام .

أضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشخصية إذا أسلموا وأصبح لهم من الحقوق ما للمسلمين .

نعم كان المسلمون متسامحين ، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك شيئا ، فقد كانوا ـ على تسامحهم ـ لا يضعون المسيحى والمسلم فى صف واحد بل ينظرون إلى النصرانى كما ينظرون إلى جنس منحط .

وقد سن « عمر » لهم قانونا يحوى إذلالهم ومهانتهم بين طياته ، فلم يسمح لهم بإنشاء الكنائس والمعابد ، بل حرمهم حتى بناء الأديرة الصغيرة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه – بعد قليل – إلى ما هو شر

منه، فقد حظر عليهم تجديد بناء الكنائس التى تهدم ـ وإن لم يتمسك المسلمون بتنفيذ هذا الشرط دائما ـ وقد أباح القانون للمسلمين أن يدخلوا الكنائس فى أى وقت شاءوا ليلا أو نهاراً ، وحتم على المسيحيين أن يفتحوا أبوابها للمسافرين من المسلمين ليل نهار ، وشرط عليهم أن يقدموا الطعام لضيوفهم ثلاث مرات فى كل يوم ، وحظر عليهم أن يرفعوا الصلبان على كنائسهم ، وأن يبيعوا الكتب المقدسة فى شوارع المسلمين ، كما حظر عليهم إقامة الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية فى الكنائس بصوت مرتفع إذا كانت قريبة من بيوت المسلمين ، وأمرهم أن يشيعوا موتاهم إلى قبورهم فى صمت وسكون ، وألا يوقدوا شموعا أمامهم متى وصلوا إلى الأحياء الإسلامية .

كما حرّم عليهم التعصب لدينهم والتعرض بأى سوء لمَن يتحول عنه إلى الإسلام ، وفرض عليهم احترام المسلمين فى كل فرصة أو مناسبة فإذا جلس المسلم وجب على المسيحى أن يقوم .

وشرط عليهم أن يحتفظوا بأزيائهم ولا يتزيوا بزى المسلمين ليتميزوا للناظر عنهم ، ولم يُعْفِ مسيحيًا من شد الزنار إلى وسطه ، وحرم عليهم أن يتحدثوا بالعربية أو ينقشوها على أختامهم .

ولم يبح لهم أن يتخذوا لخيولهم سروجًا أو يتقلدوا سلاحا أو يستخدموا مسلما عندهم .

***

ولا ريب أن هذه الشروط لم تـكن تطبق بحذافيرها ـ فى أول الأمر ـ إلا فى أحوال استثنائية نادرة ، لأن الولاة المنوط بهم تنفيذها كانوا على جانب كبير من التسامح والعدل والرحمـة ، فلم يبالوا بتنفيذ هذه الشرائط القاسية ، وقد وصل بهم التسامح إلى حـد أنهم كانوا يبرمون معاهدات ـ فى بعض الأحايين ـ بينهم و بين المسيحيين تعفيهم من تنفيذ أكثر هذه الأمور .

***

ومهما يكن من أمر فقد كان مركز المسيحيين عند المسلمين يكاد يكون مماثلا لمركز اليهود فى أوروبا إبان القرون الوسطى .

وهو المركز الذى لا يزال يضعهم فيـه السواد الأعظم من الناس . فقد كان سادتهم ينظرون إليهم باشمئزاز واحتقار ويعدونهم من الأنجاس ، فلا يتحدث مسلم إلى مسيحى أو قسيس ـ على الأخص ـ إلا عن بعد حذرا من ملامسته كيلا يدنس ثوبه .[1]

***

ومتى دان المسيحى بالإسلام تطهر من رجسه كما يتطهر اليهودى

---

(١) ارجع إلى كتاب «دوزى» «تاريخ المسلمين فى أسبانيا» (ج ٢ ص ١٠٩)

عندنا حين يدين بالمسيحية بعد أن نعمده ، ثم يصبح إلى حد ما على قدم المساواة مع المسلم .

أقول إلى حد ما لأن مسلمى العرب دائما أرستقراطيون لا ينظرون إلى المسيحى ـ حتى بعد إسلامه ـ إلا نظرة السيد ، ولا يخاطبونه إلا من حالق . على ان إسلام المسيحى كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشعور بالعزة ، والزمن وحده كفيل بتحقيق ما يليها من الخطوات ، ولن يلبث ابن المسيحى أن يصبح مسلما أصيلا يتمتع بكل ما يتمتع به العربى من عزة وكبرياء .

معجزة الاسلام

أضف إلى هذا أن انتقال السوريين والمصريين من المسيحية إلى الإسلام لم يكن عسيراً شاقا فقد كانوا ــ على الحقيقة ــ يجهلون من أمور دينهم كل شيء، لأن الجهل فى تلك العصور كان ضارباً بجرانه ، وقد اقتبس الإسلام كثيراً من أصول المسيحية ــ اقتباساً مباشراً أو غير مباشر ــ ولاتنس أن عقيدة الحساب كانت ذائعة فى القرون الوسطى ، وقد كان لها أكبر الأثر فى نفوس الناس ، وكانوا يؤمنون بأن الغالب لابد أن يكون على حق . وكانوا يتساءلون مدهوشين :

« لو صح ماقاله القساوسة من أن محمداً نبى منافق كذاب ، فكيف نعلل انتصاره ، وما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلو إحداها الأخرى ، ومابال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد ؟ وكيف لايدل ذلك على معجزة هذا الرسول ؟ »

ولقد كانوا يعتقدون ــ أول أمرهم ــ أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة ، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة التى كانت تحدث لأقل مناسبة، وانتظروا هذه المعجزة التى تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين ، ولكن انتظارهم تلك المعجزة قد طال وذهب صبرهم أدراج الرياح، وعبثا حاولوا وقوع هذه المعجزة .

وهكذا أصبح الاعتقاد بوقوع المعجزة ، الذى طالما روجت له الكنيسة وغلت فى الدعاية له أكبر نكبة حاقت بها وطوحت بنفوذها .

وأعجب من ذلك أن المعجزة ـ إن لم نقل المعجزات ـ قدحدثت حقا فى ذلك العصر ، وكانت معجزات أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم ؟ وأى معجزة أروع وأعجب من أن نرى شعبًا كان إلى زمن قليل فى غيابة من الخمول ، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة ، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها وهو يغزو الأرجاء الفسيحة ، وينتصر على قطر بعد قطر فتدين له البلاد بالطاعة والولاء ، وتقبل على دينه من كل حدب وصوب ، راضية غير مكرهة .

ولو أننا عزونا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية أو الرغبة فى التخلص من الذل والضعة ، فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيرا من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة و إيمان .

دين الفرس

وأهم من ذلك أن الفرس أقبلوا على هذا الدين الجديد ودخلوا فيه أفواجا وآمنوا به مخلصين عن ثقة ويقين .

فإن الديانة الفارسية العتيقة التى نشأت من انشقاق البرهمية قد أسسها « زارواستر » وزاد انتشارها بفضل من خلفه من الكهان ، قد فقدت قوتها وقداستها بعد أن خضعت بلاد فارس للعرب .

ولقد غزا « الإسكندر » بلاد الفرس من قبل ، فلم يصبح هذا الدين دين الدولة، ويظهر أنه لم يستطع أن ينهض بعد هذه الصدمة .

ولا جرم أنه وجد نصيراً وعوناً عند بنى ساسان ، فقد دأبت هذه الأسرة جادة فى الاستيلاء على العرش فى القرن الثالث بعد الميلاد المسيحى ، واستطاعت أن تستميل الشعب إلى مناصرتها وتأييدها بعد أن أخذت على نفسها عهداً بإعادة المجوسية .

وكان رئيس هذه الأسرة كثيراً مايقول :

« إن العرش فى عون المذبح ، كما أن المذبح فى عون العرش »

ولم يجد من خلفوه أيضاً سلاماً إلا بعقد معاهدة وثيقة بينهم وبين كهنة الزور واستر .

وعلى الرغم من حماية هؤلاء الملوك ، فإن المجوسية لم تجد قط

حياة قوية لها . ذلك لأنه شعر بمؤثرات خارجية قوية وآراء وأفكار جديدة نجح فى إدخالها إغريق ومسيحيون . وكان كسرى أنو شروان قليل التبصر فى هذا الأمر إذ قبل حوله فلاسفة من الإغريق الذين كان يضطهدهم جوستانيان ، وأمر بترجمة كتب أفلاطون وارستطاليس .

وبعد زمن قليل ــ ولعله كان فى عهد حكم الإغريق والهند ــ ذهب مبعوثون من البوذيين [١] ينشرون تعاليمهم فى أرجاء فارس ، وكانوا يقولون : إن « بوذا » رسول من عنـد الله ووسيط بين الخالق والمخلوقات ، وإن واجب الإنسان هو ألا يعيش لهذه الحياة الدنيا ، بل يعيش للسماء [٢] .

وهكذا نشأت هـذه الشيع التى كانت ترمى إلى إدخال عناصر إصلاحية لترقية الاجتماع ؛ ومزجت – فى طياتها – اعتقادات جديدة فى ديانة المجوسيـة ، فأضافت إليها التقمص أو التناسخ ، وهو من معتقدات البراهمة [٣] والوحى الذى أوحى به الله للإنسان الأول ، وهو من معتقدات البوذيين ، واعتقاد أن الزمن غير محدود ، وأنه هو الله العلى الأعظم ، والإيمان بأن الله تعالى يتقمص فى شخص الملك

---

(١) من المعروف عن « بورنوف » الذى يسلم كنبر من الفارسيين إلى اليوم بصحة قوله : «إن بوذا مات سنة ٥٤٤ قبل الميلاد» . « دوزى »

(٢) هذا ماقاله « المسعودى » فى مذكراته عن الهند ص ٩٠ « دوزى »

(٣) ارجع إلى رسالة الغفران (ج ٢) « المترجم »

الحاكم [١] الخ .

وهذا من اعتقاد البوذيين أيضا، وقد تفرع عن هذه الملل كثير من النِّحل .

* * *

وجماع القول أن بلاد الفرس كانت مسرحا لكثير من التخرصات الدينية،حيث التقت فيها أخلاط من المذاهب المختلفة وأمشاج من النحل المتباينة ، ووجدت فى هذه البلاد حقلا خصبا لازدهارها .

وقد انتهت هذه المقدمات بالنتيجة الطبيعية المنتظرة فظهرت بينهم فئة آثرت تحكيم العقل ، فأنكرت كل عقيدة ، وظهرت فئة من الطبيعيين ، وهو دين قديم من أديان الفرس ، وكان من تعاليمهم حب التعذيب، والدعوة إلى قهر النفس ، وكبح جماح الشهوات والعمل على ترقية النفس الإنسانية ورياضتها على الصبر والجلد .

وكانوا يؤمنون – إلى ذلك – بكائن أعلى ويدينون بقدرة الله وخلود الروح بينما غيرهم لايعتقد ذلك ، وهم أحرار الفكر يبيحون لأنفسهم أقصى مدى من الحرية .

وعبثا حاول الملوك والكهنة مجتمعين أن يتألبوا على هدم هؤلاء المبتدعين الذين يروجون البدع الدينية ، وأن يقضوا على أولئك

(١) لاتنس أنه لايزال إلى اليوم فى التيبت يعدونه إلها فى شكل إنسان. «دوزى»

به المزدكيون . وقد أثرت المسيحية فى هذين المذهبين كما أثر فيهما الإسلام .

وكان إسلام الفارسيين عظيم الخطر جليل النفع على الدين الإسلامى ، فقد نهض بالإسلام إلى حدّ ما ، ولئن رأينا من مسلمى العرب قلة اكتراث بالدين ، فإننا نرى الفرس ـ على عكس ذلك ـ يلتهبون غيرة وحماسة لنصرة هذا الدين .

وقد ألف الفارسيون ـ إلى ذلك ـ ممارسة العلوم ، ومعاناة البحوث العويصة ، وطبعوا على التمحيص ، فلما أسلموا ظهر من بينهم واضعو أساس « اللاهوت » الإسلامى ، وقد قال المؤرخ « ابن خلدون » : « إن أغلب الحفاظ الذين استظهروا الحديث والدين وأعودهم نفعًا على الإسلام ، كانوا من الفرس ، وقد نقلوها إلى الفارسية ، وتوفروا على درس القرآن وبرعوا فى تفسيره والتفقه فيه . »

* * *

ومن ثم نرى أن الإسلام قد أصبح ـ بفضل الفرس ـ قوة عظيمة الخطر فى العالم ، ولم يكن ليتاح له أن يصل إلى هـذه الذروة بفضل جهود العرب وحدهم .

ولقد كان تاريخ الإسلام ـ أعنى تاريخ نشأته وانتشاره ونموّه ـ مماثلا تاريخ البوذية والمسيحية ، فقد نشأت البُوذيَّة فى الهند ، وماتت فى مهدها وصرعتها البرَهْمية . ولم تطق البوذية أن تَصْمُدَ لها فى نضالها ،

ولكنها — مع ذلك — انتشرت في بلاد أخرى كالصين وسيلان والتتر واليابان ، وما وراء « الجنج » .

كذلك نرى أن المسيحية لم تظفر بالحياة في مهدها ، فقد أنكرها اليهود، ولجُّوا في مناوأتها — مع أنها وليدة الموسوية — ولكنها على ذلك قد ذاعت خارج موطنها ودان بها الرومان ، وإن كان تدينهم اسمياً ، وفتن بها شعب ثالث هو الشعب الجرماني حيث لقيت بين ظهرانَيْهِ كل إقبال وترحيب .

ولسنا ننكر خطر الإسلام واستقامة مبادئه ونفعها وإن كان يحوى — على ذلك — ضرراً جسيما ، فإن أكثر من دانوا به لم يكونوا مخلصين في اعتقادهم ، وثمة رأينا كثيراً منهم يطرقون أبواب الكنائس ويأوون إليها ، وهم غير معتقدين بالإسلام ، وإن تظاهروا به رغبة فيما يلقونه من كرم الوفادة وحسن الضيافة .

ولقد كان الداخلون في حظيرة الإسلام فريقين ، فريقا يرى أن الإسلام أيسر مما يطلبون لأنه لا يمنح المؤمنين به ما تطمح نفوسهم إليه ، وفريقا يرى أنه أصعب مما يطيقون لأنه يفرض عليهم أكثر مما يحتاجون إليه .

فأما الفرس فكانوا من الفريق الأول — وقد ألفوا دينا معقداً — فلما جاء الإسلام وجدوه أيسر وأبسط مما ألفوه ، ورأوا تعاليمه جافة

شديدة الجفاف بعيدة عما ألفوه من خيال خصب بهيج .

أما سواد المفكرين الأحرار فقد وجدوا هذا الدين شاقا شديد العسر — على مافيه من تيسير وتسهيل — وهكذا وجدوا كل دين آخر عسيراً شاقا ، مادام يفرض عليهم بعض القيود ، فلم يرضوا عن الإسلام ولا عن غيره من الديانات .

وثم نرى نزعتين باديتين فى الشيع الإسلامية ، إحداهما ترمى إلى اقتباس التعاليم الدينية من الأديان الأخرى ، والثانية تنزع إلى انتهاز الفرص للتخلص من أكثر أوامره ونواهيه ، وتحوير نصوص أحكامه حتى يصبح وَفق رغباتهم وأهوائهم .

* * *

وكانت هاتان النزعتان تمشيان أحيانا جنبًا إلى جنب ، فقد عرف الجاحدون كيف يستفيدون من المتشددين فى العقيدة ، وتضافرت المصالح الشخصية والمآرب السياسية على ذلك ، ورأى الفرس أن يسلكوا كل وسيلة للتخلص من نير الاستعباد ، وفكروا فى مواصلة العمل على استقلال فارس .

وفى كل مكان فى الدنيا نرى الشِّيَع والنِّحَل فى كل زمن تنشأ لغاية سياسية أكثر منها دينية ، ولا تحوى الفصول التالية جميع هذه المذاهب بل تشير إلى أعظمها خطراً وأكبرها أثراً . فليس من همنا

أن نذكر تاريخ الشيع والنحل . وبحسبنا أن نتتبع النزعات السياسية مغفلين منها مالاخطر له .

* * *

وقد كتب المؤلفون المسلمون فى هذا الصدد مدفوعين باعتبارات دينية عن الإسلام وقرروا عكس ماتقرره ، فإذا قامت الشبهة قوية فى الإسلام ، لجأوا إلى اختراع تقليدى – ولا جرم أنه تقليدى – من مقتضاه أن النبى (ص) قال :« تنقسم أمتى إلى ثلاث وسبعين شعبة اثنتان وسبعون منها هالكة وواحدة ناجية . »

وقد أضافوا إلى هذا أنه كان لِزِّرْواستر سبعون شعبة ، ولليهود إحدى وسبعون ، وللمسيحيين سبعون ، ثم ذهبوا إلى قياس عظمة الدين إلى عدة ما يحويه من شعب .

وهذه البدعة التى نعدها غريبة مردها إلى قيمة رمزية ، فإن العدد المقدس : وهو يبدأ من سبعين إلى اثنين وسبعين كان فى آسيا – منذ أقدم العصور – متداولا نظراً لقيمته الرمزية .

وقد ردالباحثون أصل ذلك إلى الفلك فعدد سبعين هو خمس أيام السنة القمرية القديمة ، وعدد اثنين وسبعين هو خمس أيام السنة الشمسية .

وقد أخذت هذهالفكرة من الديانة المجوسية ، وفى كتاب «ياسنا»

ـ فيما أعرف ـ أقدم مثال ذكر فيه هذا العدد . فهذا الكتاب يحوى اثنين وسبعين باباً . وذلك التقسيم ـ كما يقول « هوج » ـ لم يكن جزافا بل وضع عن خبرة وتقدير فإن البابين فى هذا الكتاب وهما الواحد والستون والثانى والسبعون متشابهان ، والباب الثامن عشر لا يحوى غير أشعار من قسم « الغطاس » فى كتاب « ياسنا [١] »

وبعبارة أخرى ترى أن كتاب « ياسنا » قسموه فى أول الأمر إلى سبعين باباً (خمس أيام السنة القمرية) ثم مضى على هذا التقسيم زمن طويل ، فقسموا هذا الكتاب بعد ذلك إلى اثنين وسبعين بابا (خمس أيام السنة الشمسية) وفى العهد الذى نفى فيه « بابليون » تسربت هذه الفكرة إلى اليهود مع غيرها من جمهرة الأفكار الأخرى .

ثم انتقلت بعد ذلك ـ مع الزمن ـ من اليهود إلى المسلمين .

---

(١) هذا المثال عظيم الخطر لأنه أقدم مثال نستدل به على أصل هذه الفكرة ، وما أجدره بأن يضاف إلى المجموعة الفنية التى جمعها « سنين شنيدر » . ولو اطلع « هوج » على كتاب « شنيدر » لأمن الوقوع فيما وقع فيه من الخطأحين تصدى لتفسير هذاالرمز العددي، فقدنسب هذا الرقمـ حين عرض للكلامعنه ـإلى مضاعفات العدد (٦)، وعللذلك بأن رقمستة يدل على عدد الأيام التى تمفيها خلق العالم .

وكان المسلمون يجهلون أصل هـذه الفكرة ، وقد كانوا خلقاء أن ينسبوا تلك الرموز العددية إلى كتاب « ياسنا » بل ما كان أجدرهم أن ينسبوها إلى مصادرها الأربعة التى أخذت عنها وأصبحت عدداً أكبر من رقم (٧٢) وقد عناهم أن ينسبوا إليهم وحدهم هذا الرقم.

* * *

ومتى أقررنا ذلك أصبحنا جديرين ألا نأخـذ بهذه الأرقام وألا نتشبث بحرفيتها ، وإن أبى رجال اللاهوت من المسلمين إلا أن يتشبثوا بها ويؤمنوا بصحتها . وقـد تم لهم ذلك ورأوا من واجبهم أن يصلوا بالفرق الإسلامية إلى هذا الرقم .

على أن لحظة من لحظات الروية والتفكير كانت جديرة أن تقفهم على خطل هذا الرأى وأفنه . ولنأخذ « الشهرستانى » مثلا للتدليل على صحة مانقول — وهو من رجال القرن الثانى عشر — فقد تأثر بهذا الرقم (٧٣) وما كان أجدره أن يتريث ويمعن الفكر ويطيل الروية ليعلم أن هـذا العدد عرضة للزيادة والنقص — كما أثبتت الحوادث صحة هذه النظرية فى المستقبل — ولكنه آثر التشبث بهذا الرقم، وقد جره ذلك إلى نتيجة تافهة قليلة الخطر ، ولم يصل به تمسكه بهذا الرقم (٧٣ لا أكثر ولا أقل) إلى غاية محمودة موفقة .

ولو أنه أطال الروية لأمن العثار والزلل كما أمنه من جاء بعده من الباحثين الذين لم يبهر أبصارهم هذا الرقم الخلاب .

* * *

والحق أن هذا الرقم الخاطىء (٧٣) وهـذا الرأى المأفون الذى دفعهم إلى التشبث به قد وصلا بمن أخذ بهما إلى نتائج مُعْتَسَفَة شوهت تاريخ الإسلام إلى مدى بعيد، وأدخلت فيه من ألوان التعقيد والغموض ما أفسد بساطته ويُسْرَه .

وقد وجد ـ لحسن الحظ ـ مؤلفون جاءوا بعد الشهرستانى ، ورأوا ـ كما رأى الشهرستانى ـ أن يميزوا هذه الشيع فيجعلوها قسمين ، مِللاً ونحلا [١].

وبهذا التمييز أصبحنا ندرك المذاهب الأصلية وما نشأ عنها من الفروع .

---

(١) قال أبو العلاء المعرى فى نشأة المذاهب :

« نحل غدت مللا ، فكل شريعة بدى ـ لمضمر غيرها ـ إكفارها »

« المترجم »

فهرست

تفصيلي لملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام

ملوك الطوائف

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

ملوك الطوائف وعواصمهم

نظرات فى تاريخ الاسلام

كتب للمؤلف

روائع من قصص الغرب

صورة جديدة من الأدب العربي

مختار القصص

رسالة الغفران

نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى

مصارع الخلفاء

مصارع الأعيان

ديوان ابن الرومى

ديوان ابن زيدون

مختارات كامل كيلانى

موازين النقد الأدبى

فن الكتابة

أساطير ألف يوم